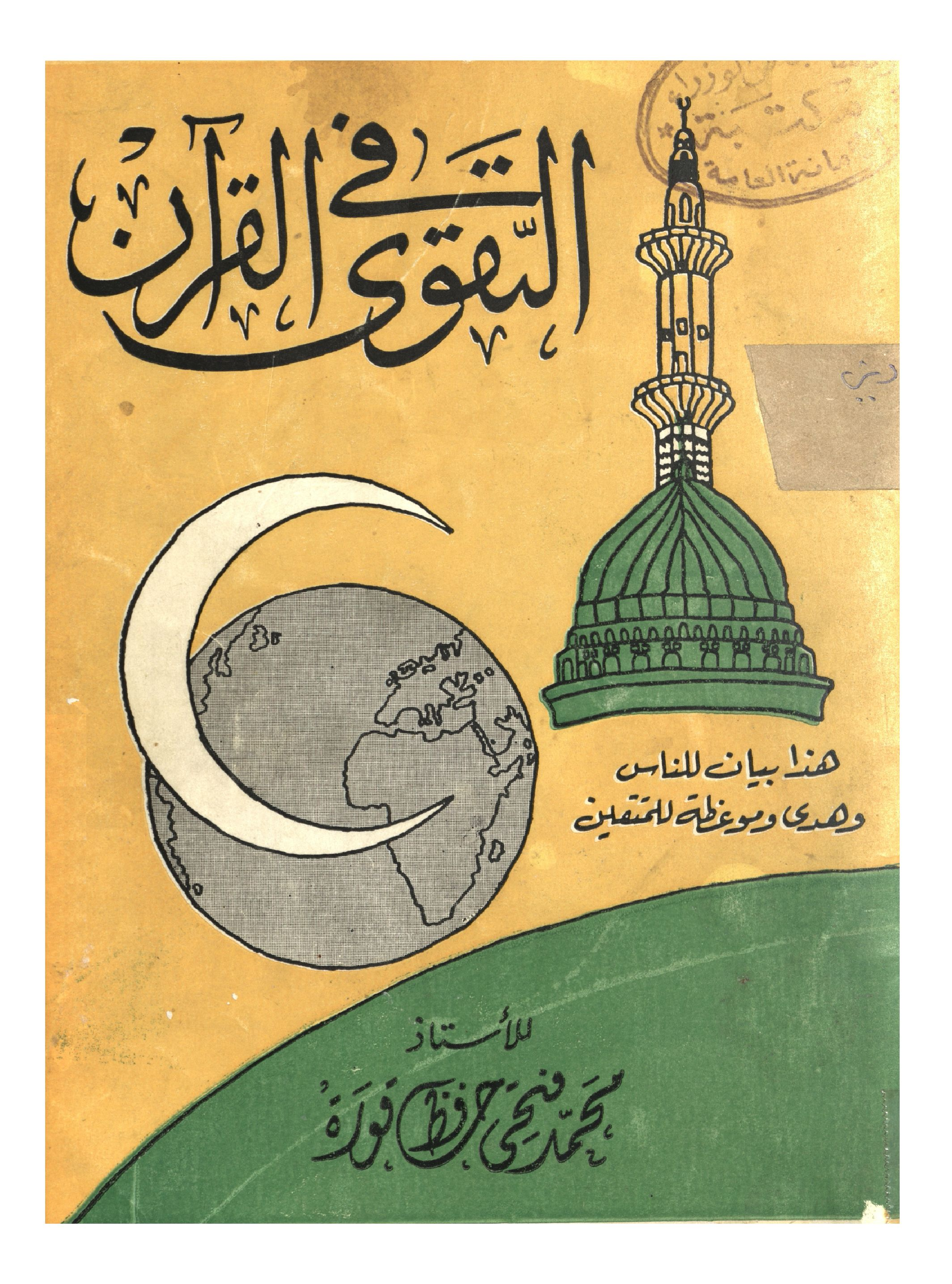



التقوى في القرآن
هذا بيان للناس
وهدى وموعظة للمتقين
للأستاذ
محمد فتحي حافظ فودة



الطبعة الأولى

هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ
« صدق الله العظيم »

للأستاذ

محمد فتحي حفظ قورة

جامعة الأزهر

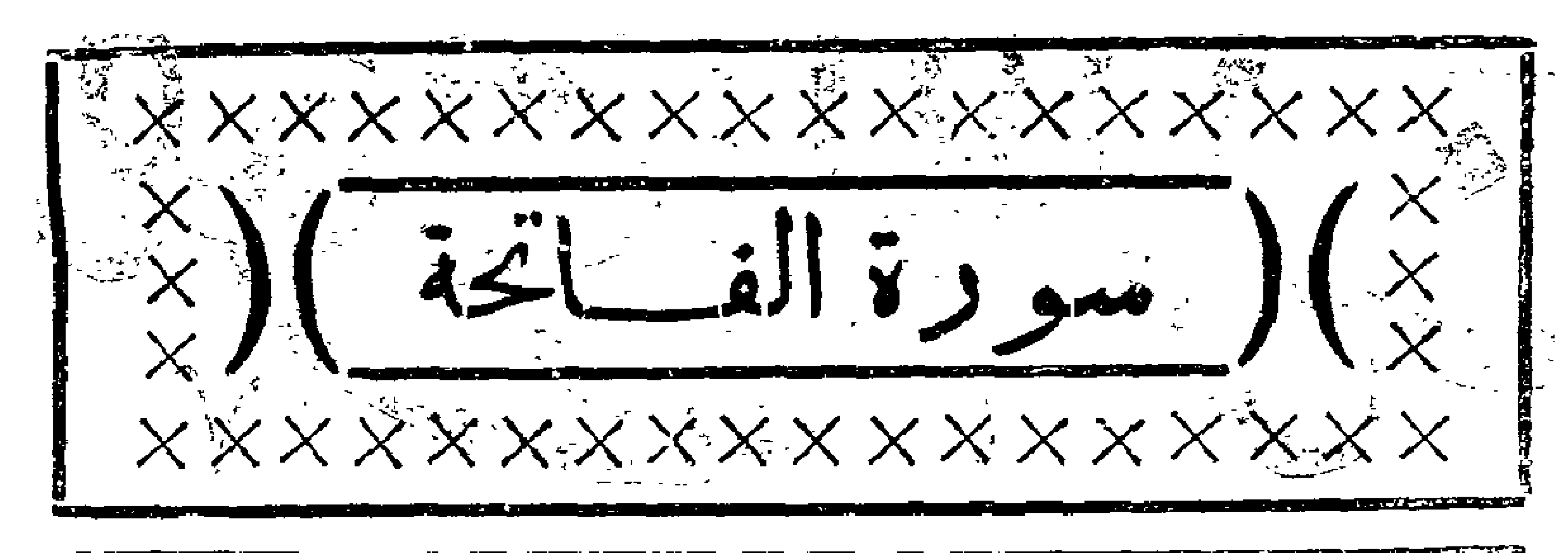
ووكيل ثانوي

القاهرة

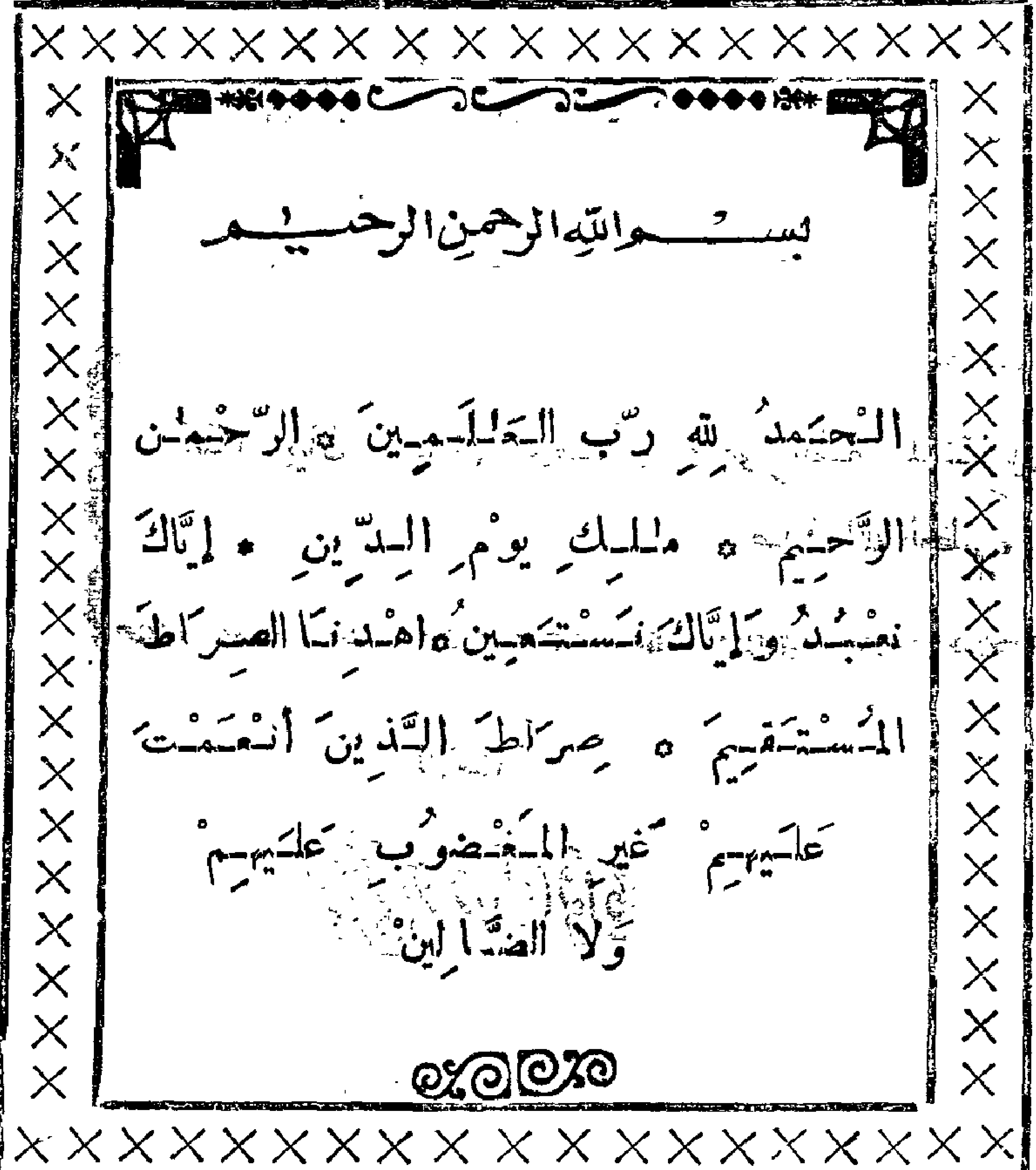
مطبعة النهضة العربية

١٣ شارع كامل صدقي (الفجالة)

ت ٩٠٦٧٨٠



سورة الفاتحة



بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمٰن
الرَّحِيمِ ۝ مٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝ إِيَّاكَ
نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ
الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ
عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ
وَلَا الضَّالِّينَ

إهداء الى :



الذين يسلكون طريق النور ويحملون للغير مشاعل على النور .

الذين عرفوا أن الاسلام دين ذو قوة روحانية تقود الانسان الى الوحدة الاخوية وترشده الى الله وتؤكد له وحدانية الخالق .

الذين تجافت جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا .

الذين قادوا الفكر الاسلامى والذين يؤدون رسالتهم ولا يبخلون بما آتاهم الله من فضله .

الذين اتقوا ربهم حق تقواه ـ وحارب كل منهم نفسه وهواه .

الذين عملوا بما علموا فورثهم الله علم مالم يعلموا .

الذين وصلوا الى درجة الفناء فى الله فلم ينشغلوا بغير الله .

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وإمام المتقين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه الى يوم الدين

وبعد - فإن التقوى نور ينبعث من قلب المؤمن فيضيء له السبيل ويوضح له الطريق ويوقظ فيه الضمير ويوطد الصلة بينه وبين ربه

فما من عبد يخشى ربه ويتقيه إلا ووجد شعاعاً من الفيض الإلهى والهدى الربانى فيشعر بإنجذاب نحو خالقه ويتعلق قلبه بمولاه وسيده . فيخلص فى العبادة ويحس بوجل القلب إذ اذكر الله أمامه . يطمئن قلبه لذكر الله وتتساقط دموعه خشية من الله ويتعلق قلبه بكل ما يحبه الله - فلا يترك باباً يحبب الله إليه إلا ويطرقه - ولا سبيلا يوصله إلى الله إلا ويسلكه - لم تشغله زخارف الدنيا عن عبادة الله ولم تغره زينه الحياة الدنيا فينسى طاعة الله ولم يصرفه الشيطان لحظة عن ذكر الله .

وقد سلك العباد مسالك شتى للوصول إلى حب الله

فمنهم من جعل الزهد لباسه والتصوف طريقه ومنهم من أحسن العبادة ولم ينس نصيبه من الدنيا عملا بقول الله تعالى (ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك) ومنهم من حاول جاهداً أن يقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم ويبحث عن كل طريق موصل إلى المعرفه بالسنة النبوية فيعض عليها بالنواجذ ومنهم من كان على قدر من المعرفه فسلك سبيل الصالحين حتى يأخذوا بيده ليصل إلى ماوصلوا اليه .

وهؤلاء وأولئك هم عباد الرحمن الذين امتدحهم الله فى آياته وورد ذكرهم فى كثير من المناسبات القرآنية

لقد سارعوا إلى مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار واستبقوا الخيرات فهم يعلمون حق العلم أن المرجع إلى الله فكيف بهم وهم فى مقام الرهبة يسألهم ربهم عز وجل كيف كنتم فى الدنيا وقد أسبغت عليكم نعمتى وأظللتكم برحمتى ومنحتكم مودتى وذكرتكم بسلطانى وهيبتى ووعدت الطائعين منكم بجنتى - فها أنتم أولاء اليوم أتيتم خاشعين ومن الحساب وجلين ؟

ولهذا اليوم يعد المؤمن عدته ويعمل كل مايحقق له السعادة فى الآخرة .

هذه رسالة الداعين الى الله - يوضحون الطريق - ويحـــققون ما يرجوه المؤمن ويأخذون بيده الى طريق النجاة .

لقدأوضحت الطريق فى هذا الكتاب لمن أراد الهداية وبحث عن النور وسلك الطريق إلى الله . وقد حوى هذا الكتاب موضوعات مترابطه تتحدث عن التقوى فى جميع المجالات - وعن حياة إمام المتقين الذى جعله الله الأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر - وقد أوجب الحديث عن التقوى أن نعيش مع الله ونقف على المسلك الذى سلكه المتصوفون للوصول اليه - ثم نتعرف الى عباد الرحمن الذين ذكرهم الله فى آياته لنحاول جاهدين أن نكون منهم .

وقد تطرق الحديث إلى حال بيان المتقين لنعرف كيف وصلوا إلى ماوصلوا اليه ونعرف الصدق فى العبادة من نور القرآن الكريم وهذا مادعانى إلى الافاضة فى الحديث عن التقوى هذا وقد سجلت وقائع حدثت لى فى بعض المواقف الربانية والرحلات الإلاهية فى ليال قضيتها مع الله وفى الأراضى المقدسة التى يضيء فيها بيت الله الحرام ويشع بها أنوار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوضحت طريق العبادة بالتفصيل الكامل وصحبت من أراد بيت الله الحرام فى كل مكان أرشده الى المناسك حتى يؤدى فريضة الحج على أكمل وجه

وقد رأيت زيادة فى الفائدة إضافة الموضوعات التى نشرتها فى بعض الصحف مع التوضيح الكامل لبعض الأفكار التى روعى اختصارها عند النشر طبقاً للقيود الصحفية حتى يستفيد المستزيد من المعرفة .

وقد قصدت بهذا كله وجه الله ودعوت إلى التقوى إستجابة لأمر الله .

والله أسأل أن يعم النفع بما فى هذا الكتاب ويحقق الرجاء الذى أرجوه — إنه نعم المجيب —

شبرا مصر فى : —
ربيع الآخر سنة ١٣٩٥ هـ
مايو سنة ١٩٧٥ م

المؤلف
محمد فتحى حافظ قورة
جامعة الأزهر
ووكيل ثانوى

تمهيـــــــــــد

التقوى

التقوى سلاح قوى يحارب به المرء شيطانه وهواه عند كل عمل يعمله .

والتقوى فى اللغة : اتخاذ الوقاية من كل ما يخاف منه .

وشرعاً : ـ كلمة جامعة لفعل المأمورات وترك المنهيات فهى شاملة لأصول الدين وفروعه .

وحقيقتها متوقفة على العلم لأن الجاهل لا يدرى ـ كيف يتقى ولا أى شيء يتقى وبذلك تظهر فضيلة العلم كما ورد فى الصحيحين عن معاوية رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : ـ « ومن يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين » .

وقد روى عن أبى ذر بن جندب بن جنادة ، وأبى عبد الرحمن معاذ بن جبل رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » .

ولبيان معنى هذا الحديث لما يتضمن من دستور شامل وتوجيهات اجتماعية وتوضيح لسبيل السعادة ـ نوضح ما يلى : ـ

(حيثما كنت) كلمة تدل على تعميم الأمكنة ويفهم منها تعميم الاحوال أى فى أى مكان وعلى أية حال ـ وكلمة (حيث) ظرف مكان زيدت فيها (ما) لإفادة التعميم ، وكان تامة ـ أى اتق الله فى إى مكان وجدت فيه ـ وجملة (اتق الله حيثما كنت) من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم لأنها تشير إلى مقام الصديقين الذين امتلأت قلوبهم بذكر الله تعالى فأفئدتهم منه وجلة وأعضاؤهم خاشعة (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) .

(وأتبع السيئة الحسنة تمحها) أى إذا ارتكبت سيئة فعليك أن تتبعها بحسنة فانها تكون سبباً لمحوها من صحف الملائكة كما تزيل أثرها من القلب ـ وذكر هذه الجملة بعد الأمر بالتقوى ليتدارك المؤمن ما يفرط منه فتكمل تقواه .

والسيئة إن كانت من الصغائر يمحوها الوضوء والمشي الى المسجد والصلوات الخمس والصدقة تطفيء الخطيئه كما يطفيء الماء النار وما الى ذلك — كما يمحوها اجتناب الكبائر . قال تعالى (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا) .

وإن كانت من الكبائر تمحوها التوبة النصوح (وشروط التوبة الندم على فعل الذنب والاقلاع عنه والعزم عل عدم العودة اليه)

وقد وردت أحاديث كثيرة تدل على أن من الأعمال مايكفر الكبائر كالحج المبرور والجهاد . وإنما كانت الحسنة تمحو السيئة لان الشيء يزول بضده . وكان مقتضى ذلك أن الحسنات تمحوها السيئات . الا أن فضل الله عظيم ومن هذا الفضل أن السيئة لاتمحو الحسنة مادام العبد مؤمناً وأما حديث « إياكم والحسد فانه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » فمعناه أن المحسود يأخذ من حسنات الحاسد كثيراً حتى يذهب بها .

« وخالق الناس بخلق حسن » . الخلق بضم اللام . الطبع والسجية وهو فى العرف (صفة راسخة فى النفس تصدر عنها الأفعال بسهولة من غير سابق تفكير) فإن كانت الأفعال الصادرة عنها محمودة عقلا وشرعا سميت هذه الصفة خلقا حسنا، وإن كانت مذمومة عقلا وشرعا — سميت خلقا سيئاً .

فالمراد (عامل الناس بما يقتضيه الخلق الحسن) وهى الأعمال المحمودة عقلا وشرعاً . ويجمع ذلك طلاقة الوجه وكف الأذى وبذل المعروف والعفو عن الصغائر من غير عتاب ولا لوم وقبول العذر إذا صدر ممن أخطأ . ويشير الى ذلك حديث الامام احمد عن ابى هريرة رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم « أفضل الفضائل ان تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتصفح عمن شتمك»

وفائدته فى الدنيا عظيمة . فبه تدوم المحبة بين الأهل والجيران والأصدقاء وتزول العداوة بين الناس قال تعالى (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) .

(إن الذى يريد أن يكسب هذا الخلق يحتاج الى جهاد طويل وممارسة للصبر حتى يعتاد فعل الخير) فتصدر الأفعال الكريمة منه دون تكلف - فالحديث المذكور قد اشتمل على أمور ثلاثة (حق الله - وحق النفس - وحق العباد)

لذلك كان الحديث من قواعد الدين - وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحث أصحابه على تقوى الله فى كل مناسبة فمن ذلك مارواه أبو نجيح العرباض بن سارية السلمى رضى الله عنه قال - وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظه وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون فقلنا يارسول الله كانها موعظة مودع فأوصنا - قال (أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وأن تأمر عليكم عبد وأن من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيراً فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنوا جذوا ياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة) .

فابتدأ الرسول صلى الله عليها وسلم بتقوى الله لأنها سبب السعادة فى الدارين قال تعالى . (وَمَنْ يتَّقِ اللهَ يجعلْ له مَخرَجاً - ويرزقْه مِنْ حيثُ لا يَحتَسِبُ) وهى وصية الله تعالى للأولين والآخرين - قال تعالى . (ولقد وَصّيْنا الذين أوتوا الكتاب َمن قبلكم وإيّاكم أنْ اتقوُا الله) .

وخير سبيل للتقوى التمسك بالسنة النبوية وتتبع افعال الرسول صلى الله عليه وسلم فنرى كيف كان يقضى وقته فى العبادة تقربا الى الله بالصلاة فى خشوع تام - وتلاوة القرآن بكل فهم وتدبر - وكم ذرف الدمع عندما يمر بآيات الخشية والرهبة - وكثيرا ما أشار عليه بعض المحيطين به بأن لا يجهد نفسه بالعبادة وكفاه حب الله له فكانوا يقولون له : قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فكان جوابه صلى الله عليه وسلم (أفلا أكون عبدا شكوراً) ؟

وهكذا رسم لنا الرسول طريق الشكر فلا تكون العبادة طمعا فى تحقيق مآرب دنيوية أو نعما أخروية فيكون العبد فى هذه الحالة كالأجير - لا يعمل إلا إذا عرف أن هناك أجراً لما يعمله - فالله يستحق العبادة لأنه (الله) وكفى وحبنا له يدفعنا الى عبادته وتقواه - وعلينا ان نذكر دائما قول الله تعالى (لئن

شكرتم لأزيدنكم) وليس هناك مجال للشكر خير من العبادة حتى يشعر الانسان دائماً بشرف العبودية لعظمة خالقه ومولاه — وحينئذ يستحق ان يكون من بين الذين يخاطبهم رب العزة (ياعبادى لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون) وحسبنا أن علاقة التقوى علاقة دائمة فى الدنيا وفى الآخرة ، فقد تجد العداوة طريقها بين الأصدقاء أما بين المتقين فلن يكون الا المحبة والوفاء فهم يظلهم الله برحمته ويغشاهم بفضله وإحسانه كما ورد فى الحديث الشريف عند ذكر الأصناف السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لاظل الا ظله (ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه) ومما يدل على دوام العلاقة الحسنة والمحبة بين المتقين قول الله تعالى (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) فهل هناك أقوى من رابطة التقوى ؟!

ليت التقوى تجد طريقها الى القلوب — فتنتشر المحبة وتسود الرحمة — وتتحقق العدالة — ويشعر الناس بالطمأنينة — ويعرف كل طريقه الى الاخلاص فى العمل ويراقب مولاه دائما فى كل تصرف فانه وحينئذ يسعد المجتمع فلن تجد شاكيا من ظالم — ولا متألما من حيف — ولا باكيا من جور — ولا مرتعدا من خوف المة

وان ترى صاحب سطوة يتسلط على من تحت يده — ولا تاجراً يحتكر قوت أخيه — ولا طبيبا يقسو على مرضاه — ولا مستغلا يمتص دماء من هم فى حاجة إليه — فالجميع يرتدون زياً واحداً يتزينون به (ولباس التقوى ذلك خير) ويسلكون طريقا واحداً . يستضيئون به .

(وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) . (١)

---

(١) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام .

الباب الأول

مع الله

«ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق — ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون».

«إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون».

«الله» حينما يذكره الانسان يشعر براحة نفسية تسيطر على حواسه وبقوة تامة تملأ جوانبه ويتلمس نوراً يضيء له كل ما حوله ويسبح بفكره إلى عالم علوى يسلب لبه وينجذب إليه روحه ويشعر أنه انتقل من عالم المحسات الى عالم المغيبات ويتخيل تلك اللحظة الرهيبة التى عاشها رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم فى ضيافة رب العزة ليلة المعراج وقد تجلى المولى بأنواره القدسية فخر ساجدا خاشعا يسبح ربه وقد اضطرب فؤاده واهتزت جوارحه رغبة ورهبة وما رفع رأسه من سجوده إلا بعد أن سمع نداء غطى سمعه واهتزت له جوارحه (أرفع رأسك وسل تعط)

وما كان له أن يبلغ هذه المنزلة لولا فيض الله برحمته وإعزازه لنبيه وترحيبه بحبيبه وتأييده لصفيه ورسوله.

ولقد أراد موسى عليه السلام من قبل أن يحظى بنعمة الفيض الالهى وطلب من ربه أن يراه فقال: (رب أرني أنظر إليك) فأجابه المولى عز وجل: (لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني — فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا) فلم يستطع الجبل أن يثبت لأنوار ربه فتزلزل وارتجف واضطرب فزعا ورهبة ودك خشية وخضوعا — (وخر موسى صعقا) سقط مغشيا عليه ولم يستطع الصمود لأنوار ذاته القدسية.

(فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك) أناب الى الله وطلب منه الصفح والغفران لجرأته على طلب رؤية الحق تبارك وتعالى وما كان له أن يتطاول

على هذا المقام العظيم ، ويطلب رؤية ذات تجلت عن الوصف وتعالت عن الكيف .

وطلب قومه ذلك منه من قبل — فقالوا (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) فماذا كان جزاؤهم على هذه الجرأة ؟ (فأخذتهم الصاعقة بظلمهم) انتشرت النار فى كل مكان تصعق هؤلاء الطغاة وتردهم إلى الصواب فكيف لعبد ذليل يتطاول فيطلب رؤية الخالق الأعظم الذى خلقه فسواه فعدله فى أى صورة ما شاء ركبه .

والانسان فى كل زمان ومكان جبار عنيد فإذا ما جاءه نور من ربه يأخذ بيده إلى طريق الخير أطفأه باليد الأخرى .

يميل الى الجدال والمعارضة (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً — أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً — أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلا - أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرأه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا)(١) .

هكذا شأن المجادلين المكابرين لا يميلون إلى الاعتراف بسهولة ولا يحبون الانصياع لما تجىء به الرسل ويجدون فى ذلك ذلة لهم ومهانة إذ كيف يستسلمون لرجل مثلهم من جنس البشر الذى يأكل ويشرب كما يأكلون ويشربون (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق — لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً) يريدون رؤية ملك يسير فى صحبة الرسول يصدق كل كلمة يقولها ويستمعون لحديثه وتأييده وحينئذ يستجيبون لدعوته وأنى يستجيبون وهم المتعنتون ؟!

(ولو أنهم آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) .

(١) الآيات ٩٠ — ٩٣ من سورة الإسراء .

لقد جادلوا كثيراً فى وجود الله ودفعهم الجدال الى إنكار وجوده وأشبهوا الدهريين فى آرائهم .

(وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون) من سورة الجاثية .

وهذان مشهدان صورهما كتاب الله لنا لندرك أن الذين حاولوا إنكار وجود الله سبحانه وتعالى لم يكن لهم بذلك أدنى برهان وأنهم حين يشعرون أنهم عجزوا وضعفوا وصغروا أمام الأدلة المنطقية الدامغة يردون على الدليل بالقوة ، وعلى بروق الحق الدافقة بأساليب الظلم القاسية .

ففى مجادلة أحد الملوك لابراهيم عليه السلام (ألم تر إلى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين) .(١)

والمشهد الآخر — مناقشة بين فرعون وموسى عليه السلام لندرك أن فرعون لم يستطع أن يأتى بدليل واحد على ما يزعم ، وإنما كان موقفه موقف الأبله الغبى .

(قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين — قال لمن حوله ألا تستمعون — قال ربكم ورب آبائكم الأولين . قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون — قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون — قال لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين . قال أو لو جئتك بشىء مبين — قال : فأت به إن كنت من الصادقين — فألقى عصاه ، فاذا هى ثعبان مبين — ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين) (٢) — هذا وقد استعمل بعض الناس عقولهم فاهتدوا الى الاعتراف بوجود الله بالدليل المنطقى ، وكان ذلك قبل بعثة الرسول صلى الله

(١) الآية ٢٥٨ من سورة البقرة. (٢) الآيات ٢٣ — ٣٢ من سورة الشعراء .

عليه وسلم . فقد سئل اعرابى : ما الدليل على وجود الرب ؟ فقال يا سبحان الله إن البعر ليدل على البعير — وأن أثر الأقدام ليدل على المسير — فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج — ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير ؟ ! .

وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله تعالى أرسلك . قال صدق قال فمن خلق السماء ؟ قال : الله . قال فمن خلق الأرض ؟ قال : الله — قال : فمن نصب هذه الجبال ؟ وجعل فيها ما جعل ؟ قال : الله قال فبالله الذى خلق السماء وخلق الأرض ونصب الجبال آلله أرسلك ؟ قال نعم قال وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات فى يومنا وليلتنا . قال صدق . قال فبالذى أرسلك آلله تعالى أمرك بهذا ؟ قال نعم — ثم ذكر الزكاة ثم الصيام ثم الحج كذلك والرسول صلى الله عليه وسلم يقول عند كل سؤال : صدق فيقول فبالذى أرسلك آلله أمرك بهذا ؟ فيقول نعم ثم ولى مدبراً وقال والذى بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن فقال النبى صلى الله عليه وسلم (لئن صدق ليدخلن الجنة) .

وذكر ابن كثير عن أبى حنيفة أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود البارى تعالى . فقال لهم : دعونى فإنى مفكر فى أمر قد أخبرت عنه — ذكروا لى أن سفينة فى البحر موقرة (مثقلة بأحمالها) فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها وهى مع ذلك تذهب وتجىء وتسير بنفسها وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد فقالوا هذا شىء لا يقوله عاقل . فقال : ويحكم ! — هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوى والسفلى . وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة أليس لها صانع ؟ ! فبهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه .

كذلك من شأن الإنسان إذا نزل به مكروه أو حل به بلاء لا يستطيع مقاومته — أن يتحرك فى وجدانه شعور قوى بالتوجه إلى قوة عليا يعتقد أن فى مقدورها

إزالة هذا الضرر عنه وعندئذ يتجه إلى هذه القوة بالرجاء فتكشف عنه ما نزل به أو تيسر له الصبر .

وحتى نقف على رأى الفلاسفة فى وجود الله نكتفى بذكر إثنين من فلاسفة العصر الحديث وقد انتشر رأيهما وأهتم بهما كتاب هذا العصر :

أما أولهما فهو (جوسيا رويس) فيلسوف أمريكى من فلاسفة القرن التاسع عشر ومذاهبه أقرب المذاهب الحديثة إلى وحدة الوجود لأنه يقول بأن الله ذات تتصل بكل ذات من هذه الموجودات فالعلوم لا تعرفنا بحقائق الكون الكبرى ولا تكشف لنا عن كنه المادة والحركة ولا عن كنه الزمان وغاية ما نعلمه أن نرجع إلى معرفتنا بذاتنا فنستمد منها معرفتنا بالذات العظمى وهى الله فما هى الذات الانسانية ؟ وما هى الشخصية المستقلة ؟ التى نسميها نفسنا ونتميز بها عما حولنا ؟ هبنا منفردين وحدنا فى عالم لا نشعر فيه بحى ولا جماد ولا بأرض ولا سماء ولا يكون فيه ما يدخل فى الوعى ويتعلق بالشعور . فهل يكون لنا يومئذ وعى أو شعور ؟ وهل تكون لنا يومئذ نفس أو ذات ؟ هل يكون لك وعى وليس هناك ما تعيه ؟ وهل تكون لك ذات وليس هناك خلاف الذات ؟ ثم يقول : كلا . إن الذات موقوفة على ما عداها وإن وجودها هو وجود غيرها وعلى هذا يصح أن يقال أن الذات لا تستقل بالوجود عن الأشياء وأن الأشياء لا تستقل بالوجود عن الذات .

فما نراه وما نذكر أننا رأيناه وما نتخيله أنه كائن أو يكون هو قوام ذاتنا وهو مساك وعينا وشعورنا . وعلى قدر اتصال الانسان بالموجودات تكون غزارة وعيه وسعة شعوره وعظمة ذاته — فالاتصال بالكون أو الاتصال بالله هو أكبر تحقيق للذات وأثبت إقرار للوجود .

والذات العظمى وهى الله هى التى تتصل بكل شىء وتحيط بكل شىء وتطلع على كل شىء وهى كلية الوجود لأنها واعية لكل موجود .

وأما ثانيهما فهو داروين وقد نقل عنه قوله :

يستحيل على العقل الرشيد أن تمر به ذرة من الشك فى أن هذا العالم الفسيح بما فيه من الآيات البالغة والانفس الناطقة المفكرة قد صدر عن مصادفة عمياء لأن المصادفة لا تخلق نظاما ولا تبدع حكما وذلك عندى أكبر دليل على وجود الله .

أما (لا مارك) الفرنسى أستاذ داروين فإنه يقول (إن الطبيعة قد صنعت الحياة) ونحن نناقشه ونقول له : فكيف إذن صنعت الطبيعة هذه الحياة ؟

فيجيب : إن المادة التى نسب إليها القدرة على الخلق والابداع مسيرة لا مخيرة ومحكومة لا حاكمة .

فنقول له : فمن الحاكم إذاً ؟

فيجيب : إن هناك قوة أكبر من قوة الطبيعة سخرتها وسيرتها .

فنقول له : ولمن هذه القوة ؟

فيجيب : إنها لخالق هذه المادة وهذه الطبيعة وبالتالى خالق الانسان والحيوان والنبات .

فنقول له ولأمثاله : هذا الخالق الذى اعترفتم به مجبرين هو المبدع لهذا الكون وهو المرسل للرسل وهو المنزل للكتب وهو الذى عرفنا أن اتباع الغير لابد أن يكون عن دليل فالاسلام علم أتباعه أن الأمور لا تساق هكذا دون برهنة علمية أو فعلية أو عقلية — والاسلام قد علمهم أيضا أن يعيشوا فى رحاب هذا الكون وينظروا ويتأملوا فيستفيدوا أن كشف أسرار الكون وقوانينه تستغل فى إسعاد البشرية وتسخر لخدمة الإنسان — ويستفيدوا أيضا أن هذا الكون البديع المنظم المحكم إنما كان عن مبدع حكيم خالق قادر .

ويترتب على هذا الإيمان الكامل بأن مبدع هذا الكون وخالق الإنسان هو الذى يعلم علماً يقينا أن خير هذا الإنسان فى إتباع الدين القويم (الاسلام) وأن التشريع الذى قد شرعه لمخلوقاته هو التشريع الأقوم (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) .

ولنستمع إلى رائد الفضاء الأمريكى (جيمس أروين) الذى قاد سفينة الفضاء أبوللو عام ١٩٧١ وقد منح درجة الدكتوراه الفخرية فى علوم الفضاء .

وقد زار القاهرة أول عام ١٩٧٥ وسئل عن أثر اشتراكه فى رحلة الفضاء على إيمانه بالله على أساس أن الذهاب بعيدا فى بحور العلم يؤدى أحيانا إلى الالحاد .

فقال : بالعكس - لقد أدى نزولى على سطح القمر الى زيادة ايمانى بالله وزادت العقيدة عمقاً فى نفسى .

قيل له : ولكن رائد الفضاء السوفيتى (جاجارين) قال بعد أول رحلة له حول الأرض إنه بحث عن الله فى السماء فلم يجده . فقال : أنا لا أعرف إذا كان جاجارين قد صرح بذلك أم لا - ولكن أحب أن أوضح أن الانسان لايمكن أن يرى الله بعينه كما يرى سائر الكائنات . وأنا أيضا لم أر الله فى رحلتى من الارض الى القمر ولكنى شعرت به وازداد ايمانى بوجوده وبقدرته وبقوته فهذه الكواكب والنجوم التى تسبح فى الفضاء اللانهائى بنظام رائع وبديع ومحكم لايمكن أن يكون قد حدث تلقائيا أو بمحض الصدفة ولكن لابد من وجود قوة خارقة لا يبلغ مداها عقل الانسان هى التى تتولى تنظيم حركة الكواكب والنجوم فى الفضاء وهذه هى القوة الالهية .

هذا ماصرح به رائد الفضاء وعلينا أن نذكر قول الله تعالى :

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) (١) .



(١) الآية ٥٣ من سورة فصلت .

دليل وحدانية الله

قال الله تعالى : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ »(١)

لقد ساق القرآن دليلا منطقياً على وحدة الله. فاجتماع المؤثرين على أثر واحد مستحيل عقلا لأن أحدهما لو أثر لثبتت قدرته وعجز الآخر .

قال تعالى « قُل لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقولونَ اذًا لابْتَغَوا إِلَى ذِي العَرْشِ سَبِيلاً » (٢) .

فالآلهة المتعددة إن أطاعت الله ولم تخرج عن قضائه وقدره فحكمها حكم المخلوقات وإن كانت لا تطيعه فهى تنازعه وتبتغى « إلى ذى العرش سبيلا » فلا يستقيم على ذلك أمر الوجود .

ولم تكن قضية إنكار الله هى قضية الرسل مع البشر إلا فى أحوال قليلة ولكن قضية القضايا — هى قضية التوحيد — وهى أن يعتقد الناس أن الذى يستحق العبادة والخضوع هو الله وحده — فإن البشرية فى أطوارها المختلفة كثيراً ما ألغت عقولها ونزلت عن المكانة التى اختارها الله لها فتوهمت أنها أقل شأناً من أن يكون اتصالها مباشراً — فاتخذ الناس آلهة غير الله من البشر أو الحجر أو النار أو الشجر أو غيرها فعبدوها وتقربوا إليها لتقربهم هذه الآلهة بدورها إلى ربهم ، وتقضى لهم حاجاتهم ، وتلبى رغباتهم فقالوا :

« مَا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبونَا إلى اللهِ زُلْفَى »(٣) .

وبهذا سموا مشركين لأنهم أشركوا مع الله غيره فيما هو مختص به تعالى ولا

---

(١) الآية ٢٢ من سورة الأنبياء .
(٢) الآية ٤٢ من سورة الإسراء .
(٣) الآية ٣ من سورة الزمر .

يصح أن يكون هذا الاختصاص لغيره وهو العبادة والدعاء ـ والاستغاثة وقت الشدة والنذر وغير ذلك .

وقضية التوحيد هى القضيه التى عانى من أجلها المرسلون ما عانوا من المتاعب والمشقات مع قومهم .

قال تعالى « قُلْ هُوَ اللهُ أحدٌ ـ اللهُ الصَّمَدُ ـ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحدٌ » .

وقد اشتملت هذه السورة على أهم أركان الرسالة النبوية (توحيد الله وتنزيهه وتقرير الحدود العامه للأعمال ببيان الصالحات وما يقابلها ـ وذلك هو الشريعة وأحوال النفس بعد الموت من البعث وملاقاة الجزاء من ثواب وعقاب) .

والأحد : هو الواحد الذى لا كثرة فى ذاته فهو ليس بمركب من جواهر مختلفة ـ فليس بمادى ولا من أصول متعددة غير مادية وقد أجمع العقلاء على أن موجد العالم واجب الوجود ـ ووجوب الوجود يستلزم ببداهة العقل ـ وحدة الذات ـ لأن التعدد فى الذات مستلزم لافتقار المجموع إلى الأجزاء ـ فلا يكون المجموع المسمى بالله واجب الوجود .

وكذلك الافراد نفسها لا يكون كل واحد واجب الوجود لأنه يختلف عن الآخر بمميزه ـ وذلك المميز غير ما يشتركان فيه من الوجود ـ فيكون كل منها مركبا والمركب غير واحد ـ فلم يبق إلا أن يكون واجب الوجود واحداً ـ فالله أحد .

ثم إن جميع ما يصل إليه عقلنا وحواسنا من هذا العالم يدخل فى نظام واحد يرتبط بعضه ببعض تمام الارتباط وهو يدل على أن موجده واحد ـ (والصمد) هو السيد الذى يصمد إليه ويقصد فى الحوائج ـ وحاجة ما فى الوجود لا تتوجه إلى غيره ـ فجميع المسببات تنتهى إليه وجميع ما يسرى فيها من الوجود فهو من إيجاده وأن صاحب الاختيار كالإنسان إذا أراد أن يحصل مسبباً من سبب فعليه أن يبحث عن طريقة ارتباطه به ـ على حسب ما أمره الله بالبحث والنظر والتدبر

فى مخلوقاته — ليعلم كيف يسرى الوجود الموهوب من واجب الوجود من الأسباب إلى المسببات ثم يذهب بها حتى يسندها إلى مبدئها وهو الأمر الالهى.

وهذا فيما يظهر فيه السبب والمسبب و يظهر فيه أثر الكسب وعمل الإرادة والقوى الممنوحة البشرية .

أما ما هو وراء ذلك مما لادخل للارادة فيه فعلى صاحب الحاجة أن لايتوجه فى المعونة عليها — بعد الأخذ بالأسباب — إلا إلى الله وحده فهو المستأثر بالعمل فيما وراء ما جعل لك فيه عملا وقوله (الصمد) يشعر بأنه الذى ينتهى إليه الطلب مباشرة بدون واسطة ولا شفيع وهو فى ذلك يدعو إلى ما يخالف عقيدة مشركى العرب الذين يعتقدون بالوسائط والشفعاء . وكثير من أهل الأديان الاخرى يعتقدون بأن لرؤسائهم منزلة عند الله ينالون بها التوسط لغيرهم فى نيل مبتغياتهم فيلجأون إليهم أحياء أو أمواتا ويقومون بين أيديهم أو عند قبورهم خاشعين خاضعين كما يخشعون لله بل أشد خشية .

ثم هو (الصمد) فى تحديد الحدود العامة للأعمال ووضع أصول الشرائع فلابد أن يرد إلى ما أنزل جميع ما يقع الاختلاف فيه وليس من المباح أن يرجع إلى قول غيره .

(لم يلد ولم يولد) ينزه الله عن أن يلد أحداً ويشير إلى فساد رأى مشركى العرب والهند والنصارى وغيرهم ممن نسبوا الأبناء والبنات إلى الله — فالولادة إنما تكون من الحى الذى له مزاج — وما له مزاج فهو مركب ونهايته إلى انحلال وفناء — وهو جل شأنه منزه عن ذلك .

(ولم يكن له كفواً أحد) : الكفؤ معناه المكافىء والمماثل فى العمل والقدرة وهو نفى لما يعتقده بعض المبطلين من أن لله نداً فى أفعاله يعاكسه فى أعماله (اه تفسير الإمام محمد عبده) .

وقد نفت هذه السورة جميع أنواع الاشراك وقررت جميع أصول التوحيد والتنزيه وقد قال الله فى تفصيل ما أجملته هذه السورة :

« وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إداً ـ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ـ أن دعوا للرحمن ولداً وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً ـ إن كل من في السموات والأرض إلا آت الرحمن عبداً ـ لقد أحصاهم وعدهم عداً ـ وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً » (١).

فهذه الآيات تحكى موقف الكافرين الذين اتخذوا الأصنام آلهة متجاوزين الله تعالى ليتعززوا بهم بأن يكونوا لهم وصلة إليه وشفعاء عنده عز وجل فيوضح الله لهم بأن هذه الأصنام ستجحد بعبادتهم لها حينما ينطقها المولى سبحانه ـ وتقول (ما عبدتمونا) وتكون عوناً عليهم وآلة لعذابهم حيث تجعل وقود النار وحطب جهنم : « كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً » (١) .

فالآيات المذكورة تهول هذا الادعاء وتبين كمال السخط وشدة الغضب المفصح عن غاية التشنيع والتقبيح وتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجهل (والإد) العظيم المنكر ـ وبسبب هذه الجرأة على الله ـ تكاد السموات يتشققن مرة بعد أخرى من عظم ذلك الأمر وتنشق الأرض وتسقط الجبال سخطا من الله ودليل غضبه فلولا حلمه تعالى لخرب العالم وبددت قوائمه غضبا على من تفوه بها وادعى للرحمن ولدا وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا ـ فما من أحد في السموات أو في الأرض إلا وهو مملوك لله يأوى إليه بالعبودية والانقياد ـ لقد أحصاهم بحيث لا يكاد يخرج منهم أحد من حيطة علمه وقبضة قدرته وملكوته وعد أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم وكل شيء عنده بمقدار .

لقد جاءت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى الإيمان بالله وحده ، وقد كانت هي دعوة الرسل السابقين قبل تحريفها من الدعاة إليها :

---

(١) الآيات من ٨٨ ـ ٩٥ من سورة مريم .

(٢) الآية ٨٢ سورة مريم

« وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون »(١) .

جاءت بهذه الدعوة لتعيد إلى الإنسان قيمته ولتصحح له وضعه فى الحياة والوجود « ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره »(٢).

والمجتمع المؤمن بالله وحده : هو المجتمع الإنسانى المتحرر هو المجتمع الذى فصل فى وعى ويقظة بين الإنسان ككائن مخلوق متميز وبين كائنات أخرى يعدها مسخرة له .

إن المؤمن الذى ارتبط بربه وعرف فضله عليه وأنه فى حاجة إلى رحمته ورعايته فى كل لحظة من حياته وفى كل ذرة من جسمه وأنه بيده الخير وهو على كل شىء قدير وأن المصير يوم القيامة إليه والحساب بين يديه والعفو والمغفرة والسعادة كلها مردها إليه — لابد وأن يحب الذى أنعم عليه ورعاه — ويخاف الذى إليه مرجعه ومنتهاه — ويأمل فيما عنده من خير وبر ورحمة وحينئذ تراه مندفعا إلى العمل بصدق إيمانه وتكامل شعوره بربه فالحب لله والخوف منه والرجاء فى رحمته والعمل لرضاه آثار لازمة لمن آمن بالله إيمانا ملك عليه زمام قلبه .

« تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون — فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون »(٣).

وعن أنس رضى الله عنه قال . دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل وهو فى الموت فقال له «كيف تجدك»؟ فقال: أرجو الله تعالى يارسول الله وأخاف ذنوبى. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن

---

(١) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء . (٢) الآية ٦٥ من سورة الحج .

(٣) الآيتان ١٦ ، ١٧ من سورة السجدة .

إلا أعطاه الله عز وجل الذى يرجو وأمنه الذى يخاف » .

وروى أن جبريل عليه السلام سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن الإحسان فقال « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وتلك هى المراقبة أى ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه ويعنى بها حالة القلب يثمرها نوع من المعرفة وتثمر تلك الحالة أعمالا فى الجوارح — فالله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت — وسر القلب فى حقه مكشوف ـ قال تعالى :

« يَأَيُّهَا الذينَ آمَنوا اتَّقوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نفسٌ مَا قدَّمتْ لِغَدٍ — واتقوا اللهَ إنَّ الله خبيرٌ بِمَا تعمَلون »(١).

وهذه إشارة إلى المراقبة والمحاسبة على ما مضى من الأعمال ـ فإن عمل الإنسان خيراً شكر الله على توفيقه إياه ، وإن أخطأ توجه إلى الله بالتوبة ، والله واسع المغفرة ـ وبذلك تطهر النفوس وتقوى صلتها بالله :

« إنَّ الذينَ اتَّقوْا إذا مَسَّهُمْ طائِفٌ منَ الشَّيطانِ تَذَكَّروا فإذا هُمْ مُبْصِرون»(٢).

فالتذكر دائماً من علامات التقوى ، والالتجاء إليه سبحانه فى السر والنجوى هو شعار المتقين .

---

(١) الآية ١٨ من سورة الحشر .

(٢) الآية ٢٠١ من سورة الأعراف .

التصوف

التصوف صفة تطلق على الواصلين المقربين من الذات الآثيرين عند الله .

والصوفية كما يقول ابن تيمية لفظ لم يكن مشهوراً فى القرون الثلاثة الأولى انما اشتهر التكلم به بعد ذلك، وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة — كالامام أحمد بن حنبل وغيره وقد أدرك الحسن البصرى جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : رأيت صوفيا فأعطيته شيئا فلم يأخذه .

وقال ابن القيم : إن التصوف مبنى على الارادة وهى حركة القلب ولهذا سمى علم الباطن . .

قال ابن ابى الحديد « ومن العلوم علم الطريقة والحقيقة وأحوال التصرف وقد عرفت أن أرباب هذا الفن فى جميع بلاد الاسلام إليه ينتهون وعنده يقفون وقد صرح بذلك الشبلى والجنيـــدى وأبو زيد البسطامى وأبو محفوظ معروف الكرخى وغيرهم .

ويكفيك دلالة على ذلك الخرقه التى هى شعارهم الى اليوم وكونهم يسندونها باسناد متصل إليه عليه السلام .

والتصوف فى ذاته (ثورة من ثورات الضمير تدفع الانسان الى محاولة الكشف عن الذات لتملأ القلب وتنقيه وتصرفه عن الشواغل) وقد أخذ احمد بن حنبل على التصوف : أنه يغذى الفكر ويصرف أصحابه عن ظاهر العبادة ويحملهم على طلب الخلة من الله فيستبيحون إغفال الفرائض — حتى ان بعض مريدى ابن حنبل جعلهم طائفة من الزنادقة الروحيين .

وادّعى فريق من الباحثين — أن الصوفية نسبة إلى أهل الصّفه وهم جماعة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم — هاجروا إلى المدينة فلم يجدوا مكانا يجمعهم فاجتمعوا فى (الصفّه) وهو الموضع الظليل فى المسجد .

والمتصوفون قوم آثروا الإلهام على العلم فهم لا يؤمنون بالنظريات والأدلة والبراهين — بل بجهاد النفس والطاعة والإخلاص والإيمان، وهي أمور تنشأ عنها صفات وأصول لها نتائج وثمرات ترقى إلى مقام التوحيد والعرفان.

والمقام: هو مقام العبد فيما يقام فيه من العبادات والرياضيات والانقطاع إلى الله عز وجل.

ويقول ابن القيم: والصحيح أن هذه الواردات والمنزل لها أسماء باعتبار أحوالها — فتكون لوامع وبوارق ولوائح — عند ظهورها كما يلمع البارق ويلوح على بعد — فاذا نازلته وباشرها — فهي أحوال — فاذا تمكنت منه وثبت له من غير انتقال فهي (مقامات). اهـ

والصوفية فناء أكيد في الذات وسمو في المعرفة وخلوص في المادة وإرتقاء في معارج القرب.

فالمسلم يقرأ خلاصة العلم الذي يعلمه دارس الحكمة الإلهية حينما يقرأ قوله تعالى:

« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » (١).

ويقرأ قوله تعالى «فَفِرُّوا إلى الله إِنِّي لَكُم منه نَذِيرٌ مُبِينٌ»(٢) فيعلم أن الفرار الى الله هو باب النجاة.

الفرار الى الله:

وقد رأيت في منامي رؤيا لا أنساها ودائماً تراودني كل لحظة — وكان ذلك وأنا في مكة المشرفة وفي البلد الطيب التي شع منها نور الإيمان — هذه الارض التي تتردد في أجوائها أصداء بعيدة — قريبة لتلك الانتفاضة الروحية القوية التي انشق عنها ضمير الوجود منذ أربعة عشر قرناً من الزمان فغيرت معالم التاريخ وقفزت بالإنسانية إلى أبعد الآفاق.

ففي ليلة التروية وهي ليلة الثامن من ذي الحجة عام ألف وتسعمائة واثنين وتسعين

---

(١) الآية ١١ من سورة الشورى. (٢) الآية ٥٠ من سورة الذاريات.

هجرية، رأيت في منامي شبحاً مضيئاً يشع منه النور في كل مكان من حوله — مقبلا عليَّ قائلا «ففروا إلى الله»، فاستيقظت من نومي على الفور وانتفضت واقفاً وأحسست بنقلة روحية بعيدة — أبعدتني عن حياتي التي كنت أحياها وقذفتني إلى حياة جديدة — نفخت في روحي شحنة لا عهد لي بها من المشاعر والأحاسيس فهتفت على الفور «لبّيك اللهم لبّيك»، وأيقظت جميع النائمين في حجرتي وأنا أردد الأمر «ففروا إلى الله» فاستيقظوا فزعين وطالبتهم بسرعة الوضوء والخروج إلى بيت الله الحرام حتى نلحق بالجماعة وتؤدي كعادتنا صلاة الفجر في الحرم الشريف — وقصصت عليهم الرؤيا (وكان ذلك قبل الأذان الأول بقليل — ففي مكة والمدينة — يؤذن المؤذن أذانين وقت الفجر — وبين الأذان الأول والثاني ساعة تقريباً — والغرض من الأذان الأول هو الاستعداد للصلاة وهو أذان كامل ولا ينص فيه على عبارة (الصلاة خير من النوم) وإنما تقال هذه العبارة في الأذان الثاني فقط.

وقد تعودنا القيام قبل الأذان الأول بلحظات للتوجه إلى الكعبة المشرفة — ولكن في هذه الليلة أخذنا النوم فلم نتيقظ في موعدنا كما اعتدنا حتى أتاني هذا البشير في منامي — وفرحوا حينما أخبرتهم بما رأيت وخرجنا جميعاً قاصدين البيت الحرام في موكب ربّاني تظلّلنا رحماته — مسترشدين بأنواره نردّد معاً — الله أكبر — الله أكبر — لبيك اللهم لبيك. حتى أقبلنا على حرم الله منيبين إليه فلا مهرب منه إلا إليه. فالفرار إلى الله هو باب النجاة.

والمتصوف حينما يقرأ «اللهُ نورُ السَّمواتِ والأرْضِ»(١) — «ولله المشرقُ والمغربُ فأينَما تُوَلّوا فثَمَّ وَجهُ اللهِ إنّ اللهَ واسعٌ عليم»(٢) فلا يزيد المتصوف إلا هذا التفسير حين يقولون إن الوجود الحقيقي هو وجود الله وأنه أقرب إلى الإنسان من نفسه لأنه قائم في كل مكان يصلي له كل كائن.

---

(١) الآية ٣٥ سورة النور.
(٢) الآية ١١٥ من سورة البقرة.

ومن القرآن الكريم يعلم المسلم الخلاف بين عالم الظاهر وعالم الباطن أو عالم الحقيقة وعالم الشريعة — لأنه يقرأ مثلا واضحا لهذا الخلاف فيما كان بين الخضر وموسى عليهما السلام من خلاف « فوَجدا عبْداً من عبادِنا آتيناهُ رَحمةً مِنْ عِندِنا وَعلّمناه مِنْ لدُنّا عِلْمًا — قال لهُ موسَى هَلْ أتّبعُكَ على أنْ تُعلّمَنِ مِمّا عُلّمتَ رُشدًا — قال إنّك لَن تستطيعَ مَعي صبرا ، وكيفَ تصبرُ على ما لم تحط به خُبرا — قالَ ستجدُني إنْ شاء اللهُ صابِرًا ولا أعْصى لكَ أمرًا — قال فإن اتّبعتني فلا تسألني عن شيء حتّى أحدثَ لكَ منه ذِكرا . . . » (١) .

فالمسلم الذى يقرأ هذا الآيات — وهو مطبوع على التصوف والبحث عن خفايا الآثار ودقائق الحكمة — يجد فيها غناء من الأصول الصوفية ولا يفوته إذا اكتفى بها أن ينشىء منها مدرسة صوفية إسلامية تلتقى بالمدارس الأخرى فى كثير وتنفصل عنها فى كثير — ولكنها لا تنعزل عن لُباب التصوف بالطبع والفطرة كما يرى بعض المعقبين على الصوفية الإسلامية التى يستمدها المسلم من الدين .

ولكن القرآن حين يفتح للمسلم أبواب الحياة الروحية يحرم عليه أن يوصد بيديه أبواب الحياة الجسدية وينهاه أن يترك العمل لينقطع عن الدنيا وينسى نصيبه منها . قال تعالى :

« وابْتغِ فيما أتاكَ اللهُ الدّارَ الآخرةَ ولا تنسَ نَصيبَكَ من الدّنيا وأحسِنْ كما أحسَنَ اللهُ إليكَ ولا تبغِ الفسادَ فى الأرضِ إنّ اللهَ لا يحبُّ المُفسدين » (٢) .

« يأيّها الّذينُ آمَنوا لا تُحرّموا طيّبات ما أحَلَ اللهُ لكُم ولا تَعْتَدوا إنّ اللهَ لا يُحبُّ المُعتَدينَ » (١) .

---

(١) الآيات ٦٥ — ٧٠ من سورة الكهف .

(٢) الآية ٧٧ من سورة القصص . (٣) الاية ٨٧ من سورة المائدة .

فالحياة الروحية فى الإسلام : تجرى على سنن القصد الصالح للحياة البشرية — لا استغراق فى الجسد ولا إنقطاع عنه فى سبيل الآخرة وإذا كان الإسلام قد عرف أناساً من النساك الذين تفرغوا للمطالب الروحية فانما كان ذلك على سنة التخصص فى كل مطلب من مطالب الحياة الإنسانية ولم يكن من قبيل الإلغاء أو التعطيل لمطلب من هذه المطالب الضرورية .

ومما لا جدال فيه أن نوازع الجسد تحجب الفكر عن بعض الحقائق الاجتماعية فضلا عن الحقائق الكونية المصفاة .

إن للدين سحره وإن له لقوته الجبارة التى لا تثبت أمامها قوة فى الوجود — وإن لأولئك الذين جعلوه زادهم وعدتهم وفنوا فيه وأخلصوا — مكانة عالية فى الدارين فهم فى دنياهم أحب خلق الله إلى قلوب عباده .

ففى الحديث « إن الله إذا أحب عبداً نادى جبريل — إن الله تعالى يحب فلانا فأحببه — فيحبه جبريل — ثم ينادى فى أهل السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء — ثم يوضع له القبول فى الأرض »

فلنهرع إلى ظلة الحب الأسمى نستروح عبقه ونتنشى بأريجه لنحس بحميا الخلود تسرى فى أرواحنا فترقى إلى الملأ الأعلى حيث سبقنا محبون شربوا كأس (الصفاء) فسكرت أرواحهم وغابت عن الوجود الحسى وانصرفت عن المادة وارتقت فى معارج القرب حتى حظيت به ووصلت حدود عالمه النورانى عند قوائم العرش المجيد .

حياة الصوفية :

ولنعرف شيئاً عن الحياة الروحية التى يحياها الصوفية الذين خضعوا لسلطان الوجد حتى لقد ملك عليهم كل جارحة من جوارحهم — نستمع إلى ذى النون المصرى المتوفى سنة ٢٤٥ هجرية وهو يتحدث عن مذهبه فى التوحيد فيقول : هو أن تعلم قدرة الله تعالى فى الأشياء بلا مزاج وصنعه للأشياء بلا علاج وعلة

كل شىء صنعه ولا علة لصنعه وليس فى السموات العلا ولا فى الأرضين السفلى مدبر غير الله وكل ما تصور فى وهمك فالله بخلاف ذلك ».

وحينما يناجى ربه يقول « إلهى — ما أصغى إلى صوت حيوان ولا حفيف شجر ولا خرير ماء — ولا ترنم طائر ولا تنعم ظل ولا دوى ريح ولا قعقعة رعد إلا وجدتها شاهدة بوحدانيتك — دالة على أنه ليس كمثله شىء - إلهى - لا تترك بينى وبين أقصى مرادى حجابا إلا هتكته ولا حاجزاً إلا رفعته ولا وعراً إلا سهلته ولا بابا إلا فتحته حتى تقيم قلبى بين ضياء معرفتك وتذيقنى طعم محبتك وتبرد بالرضى منك فؤادى وجميع أحوالى حتى لا أختار غير ما تختاره وتجعل لى مقاما بين مقامات أهل ولايتك ومضطربا فسيحا فى ميدان طاعتك . . . »

ثم نستمع إلى الحسين بن منصور الحلاج وهو يتحدث عن التوحيد فيقول « إنه سبحانه لا يظله فوق ولا يقله تحت ولا يقابله حد، ولا يزاحمه عند ، ولا يأخذه خلف ، ولا يحده أمام ، ولم يظهره قبل ، ولم يخفه بعد، ولم يجمعه كل ولم يوجده كان ، ولم يفقده ليس ، وصنعه لا صنعة له، وفعله لاعلة له . وكونه لا أمد له ، تنزه عن أحوال خلقه ، ليس له من خلقه مزاج ، ولا فى فعله علاج، باينهم بقدمه كما باينوه بحدوثهم ، ان قلت متى فقد سبق الوقت كونه ، وان قلت هو فالهاء والواو خلقه ، وان قلت أين فقد تقدم المكان وجوده، فالحروف آياته ، ووجوده إثباته ، ومعرفته توحيده ، وتوحيده تمييزه من خلقه. ما تصور فى الأوهام فهو بخلافه ، لا تماقله العيون ، ولا تقابله الظنون قربه كرامته ، وبعده إهانته ، علوه من غير توقل ، ومجيئه من غير تنقل ، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن ، القريب البعيد ، الذى ليس كمثله شىء وهو السميع البصير»

وقد كان أبو اليزيد البسطامى يجالس رجلا فسمع المؤذن يقول (الله أكبر) فقال أبو اليزيد لجليسه — ما معنى الله أكبر ، فقال الرجل: أكبر من كل شىء — فقال أبو اليزيد : ليس معه شىء فيقاس عليه — فقال الرجل فما معناها ؟ فقال أكبر من أن يقاس بالناس أو يدخل تحت القياس أو يدرك بالحواس وهذا يشبه قول الإمام الحسين رضى الله عنه حينما سأله ابن الأزرق كبير الخوارج : يا حسين

صف لى إلهك الذى تعبده — فقال : ياابن الأزرق — أصف إلهى بما وصف به نفسه : أكبر من أن يقاس بالناس أو يدخل تحت القياس أو يدرك بالحواس قريب غير ملتصق، بعيد غير مستقصى لا إله إلا هو الكبير المتعال . وقد وصف الإمام على بن أبى طالب العلماء الربانيين فقال : هجم العلم بهم على حقيقة البصيرة فباشروا روح اليقين واستلانوا ما استوعره المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الغافلون ، عاشوا بأبدان أرواحها معلقة بالملأ الأعلى أولئك خلفاء الله فى أرضه والدعاة لدينه .

وجاء فى الحديث الشريف « من عمل بما علم ورّثه الله علم مالم يعلم »

وقال صلى الله عليه وسلم « اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور اليقين) والصوفيه يقولون فى تفسير هذا الحديث ينظر بنور اليقين لأنه تعالى يقول :

« قدْ بيَّنا الآياتِ لِقَوم يوقِنونَ » أى بينا لهم الآيات بنور اليقين» وتهتم الصوفية بتربية القلوبِ — لأن القلب هو محل التقوى فيقول سيدى أحمد الرفاعى « طريقى دينى بلا بدعة وهمة بلا كسل وعمل بلا رياء ونفس بلا شهوة وقلب عامر بالمحبة »

ويقول سيدى أحمد البدوى « ليس التصوف الزهد أو لبس الصوف وإنما التصوف أعمال ومجاهدة وأخلاق والأخذ بأيدى الناس إلى خير الدنيا والآخرة »

وكانت رابعة العدوية تقول : إن ثمرة العلم الروحى هو أن تصرف وجهك عن المخلوق كيما توجهه إلى الله الخالق وحده لأن المعرفة هى معرفة الله »

وتقول : ما أسوأ العبد الذى يعبد الله تعالى رجاء دخول الجنة أو مخافة النار فإذا لم يكن ثمة جنة ولا نار أفلا يعبد الله تعالى؟ ومن يتحدث عن رابعة العدوية يذكر أنها كانت تصلى الليل كله فاذا طلع الفجر هجعت فى مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر فتثب من مرقدها فزعة تقول : يانفس كم تنامين وإلى كم تقومين ؟ يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور فكانت بذلك ممن ذكرهم الله تعالى :

«تَتَجافَى جُنوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ يَدْعونَ رَبَّهُمْ خَوفًا وَطَمَعًا ومما رزقناهم ينفقون »(١).

وقد روى أحمد بن أبي الحوارى — الواقعة التالية لمتصوف آخر فيقول: دخلت على أبي سلمان الداراني وهو يبكى فقلت ما يبكيك ؟ قال يا أحمد — ولم لا أبكى: وإذا جن الليل ونامت العيون وخلا كل حبيب بحبيبه وافترش أهل المحبة أقدامهم وجرت دموعهم وتقطرت فى محاريبهم أشرف الجليل سبحانه وتعالى فنادى : ياجبريل. بعيني من تلذّذ بكلامى واستراح إلى ذكرى وإنى لمطلع عليهم فى خلواتهم أسمع أنينهم وأرى بكاءهم ألا فاسْتناد فيهم ياجبريل . ما هذا البكاء ؟ هل رأيتم حبيبا يعذب أحبّاءه . أم كيف يجمل بى أن أؤاخذ قوما إذا جنّهم الليل تعلقوا بى ؟ فبى حلفت . لئن وردوا علىّ يوم القيامه لأكشفنّ لهم عن وجهى حتى ينظروا إلىّ وأنظر إليهم »

وتقول الكاتبة (سنيه قراعه) فى كتابها عروس الزهد — ورغم ما فى هذا التصريح من المبالغة فانى ألمح فيه ظلال الشبه بمناجاة رابعه التهجديه مما يجعلنى أجزم أن الجميع قد تتلمذوا على أستاذ واحد وتخرجوا فى مدرسة واحدة .

ثم تقول انه ذكر فى كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان: أن ثوبان بن إبراهيم الزاهد — المشهور باسم (ذى النون المصرى) — كان له أثر فى هداية رابعة وإبعادها عن طريق الغى وإرشادها الى طريق الهدى والإيمان.

ويحلل الانس بالله فيذكر ثلاثة من أعماله. وهى استلذاذ الخلوة والاستيحاش من الصحبة واستجلاء الوحدة .

ويعبر عن مقومات الشوق الى الله بما يذكره من أعلام ثلاثة هى: حب الموت مع الراحة وبغض الحياة مع الدعه ودوام الحزن مع الكفاية .

ويصور الخوف بعلامات ثلاث هى : الورع عن الشبهات بملاحظة الوعيد، وحفظ اللسان مراقبة للتعظيم، ودواء الكمد إشفاقا من غضب الحليم .

---

(١) الآية ١٦ من سورة السجدة .

ويقول عن الاستغناء بالله :

إنه التواضع للفقراء المتذللين والتعظم على الأغنياء المتكبرين وترك المعاشرة لأبناء الدنيا المستكبرين .

وفى أعلام للتقوى : ترك الشهوة المذمومة مع الاستمكان منها والوفاء بالصالحات مع نفور النفس عنها ورد الأمانات إلى أهلها مع الحاجة إليها .

وذو النون المصرى ليس مجرد صوفى هائم فى حب الذات فحسب بل دوره فى التصوف الإسلامى دور المعلم المرشد الذى يمزج علم (الطريق) بغيره من العلوم الدينيه ذات الأصول والفلسفات كعلم التوحيد مثلا وان فى نجواه التاليه ما يفسر ذلك إذ يقول :

« إلهى لا تترك بينى وبين أقصى مرادى حجابا إلا هتكته ، ولا حاجزاً إلا رفعته ، ولا وعراً إلا سهلته ، ولا بابا إلا فتحته ، حتى تقوم قلبى بين ضياء معرفتك وتذيقنى طعم محبتك وتبرد بالرضا منك فؤادى وجميع أحوالى ، حتى لا أختار غير ما تختار ، وتجعل لى مقاما بين مقامات أهل ولايتك ومضطربا فسيحا فى ميدان طاعتك »

رابعه العدوية وحياتها الصوفية :

ولقد تأثرت « رابعة العدوية » بأستاذها — فزهدت فى الدنيا وكرهت متاعها — وزهدت أيضاً فى متاع الآخرة — وأحبت الله فى الآخرة ومضت عمرها فى معبدها تذكر الموت باعتباره الجسر الموصل الى الآخرة فى انطلاق الروح نحو الأبدية — نحو الملكوت فرابعة إذن لم تعبد الله عن رهبة ولا عن رغبة بل عبدت الله لأنها أحبت ذاته وتعلقت بها وأرادت عن طريق الحب أن تصل إليها فهداها إليه ، فأضحت لا تعرف غير هذا الحب العظيم الذى قالت فيه أنها ما عبدت الله خوفا من ناره ولا طمعاً فى جنته حتى لا تكون كالأجير السوء بل عبدت الله حبا فيه وشوقاً إليه .

وعاشت رابعة فى عصر كله حركة واجتهاد وبحث وجدل - فشغل الدين كل من فيه — فمنهم من اهتدى ومنهم من ضل ومنهم من تزندق أما من تصوف وزهد فقد شغله الذكر وتمكنت المحبة منه فغلبه الوجد ولم يجد من متنفس غير البكاء المستمر .

وفى هذا العصر نرى ألوانا من التصرفات التى لا يرضاها الدين تصدر من أولئك الذين يدعون أنهم متصوفون والدين مما يفعلون براء !

ذلك ما نشاهده من الملابس القذرة التى تعافها النفس ويرتديها البعض منهم — وما نسمعه من ألفاظ بذيئة تصدر من البعض الآخر تمجها الاسماع — فإذا ما اعترض معترض عليهم سلقوه بألسنة حداد واتهموه بالكفر — وقالوا له: أنت لا تفهم أحوال الصوفية : فلهم مقامات لم تصل إليها بعد ؟ — وإذا أذن المؤذن للصلاة انشغلوا بحركات غريبة فى الوقت الذى يتوجه الناس فيه إلى المساجد ملبين دعوة الله .

وقد روى عن ربيعة بن كعب الأسلمى رضى الله عنه قال : كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لى سل فقلت : أسالك مرافقتك فى الجنة . قال أو غير ذلك؟ قلت هو ذاك . قال فأعنّى على نفسك بكثرة السجود» وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان قال الله عز وجل :(إنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ)(١) .

أما مجالس الذكر: فأود التحدث عنها موضحا ما ورد عنها من أحاديث نبوية ورأى العلماء فيها .

فقد روى عن أبى موسى الاشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم «مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر — مثل الحى والميت»

---

(١) الآية ١٨ من سورة التوبة .

ومعنى الحديث: أن صفة الذى يذكر ربه بنوع من أنواع الذكر -ومنه مدارسة العلم وقراءة القرآن والحديث، وصفة الذى لا يذكر ربه- مثل الحى والميت، ووجه الشبه أن كلا من الذاكر والحى فيه نفع ومتزين الظاهر والباطن — أما الظاهر فبحلية الحياة والتصرف التام فيما يريده أما الباطن فبنور العلم والمعرفة — وأما غير الذاكر والميت فلم ينتفع كل منهما بالحياة وبقى ظاهره عاطلا — وأما باطنه فبطل اتصاله بنور العلم والفهم والإدراك لما ينفعه.

وروى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله ملائكة يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذكر — فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا. هلموا إلى حاجتكم قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا — قال فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم — ما يقول عبادى؟ قالوا: يقولون يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك — قال فيقول: هل رأونى؟ قال فيقولون، لا والله ما رأوك قال فيقول وكيف لو رأونى؟ قال يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيدا وأكثر لك تسبيحا. قال يقول: فما يسألونى؟ قال — يسألونك الجنه — قال يقول وهل رأوها؟ قال يقولون: لا والله يارب ما رأوها — قال يقول: فكيف لو أنهم رأوها؟ قال يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصا وأشد لها طلبا وأعظم فيها رغبة — قال فمم يتعوذون؟ قال يقولون: من النار — قال يقول وهل رأوها؟ قال يقولون: لا والله ما رأوها — قال يقول: فكيف لو رأوها؟ قال يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فرارا وأشد لها مخافة. قال فيقول: فأشهدكم أنى قد غفرت لهم — قال يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة: قال هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم » !!

وقال الشاطبى فى كتابه الاعتصام: وقع سؤال عن قوم يتسمون بالفقراء بزعمهم أنهم سلكوا طريق الصوفيه فيجتمعون فى بعض الليالى ويأخذون فى الذكر الجهورى على صوت واحد ثم فى الغناء والرقص إلى آخر الليل — هل هذا العمل صحيح فى الشرع أولا؟ فوقع الجواب بأن ذلك كله من البدع المستحدثات المخالفة لطريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم — وطريقة أصحابه والتابعين لهم بإحسان — ثم قال: إن مجالس الذكر الصحيح هى ما كانت على ما اجتمع عليه السلف الصالح

فانهم كانوا يجتمعون لتدريس القرآن فيما بينهم — كما جاء فى حديث أبى هريرة عن النبى صلى عليه وسلم « ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفّت بهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده » .

هذا هو الاجتماع للذكر وليس على صوت واحد ، وإذا اجتمع القوم على التذكر لنعم الله أو التذاكر فى العلم إن كانوا علماء أو كان فيهم عالم فجلس إليه متعلمون أو اجتمعوا يذكّر بعضهم بعضا بالعمل بطاعة الله والبعد عن معصيته وما أشبه ذلك مما كان يعمل به الرسول صلى الله عليه وسلم فى أصحابه وعمل به الصحابة والتابعون — فهذه المجالس كلها مجالس ذكر — وهى التى جاء فيها من الأجر ما جاء .

ثم قال . وكان الذى نراه معمولا به فى المساجد أن تجتمع الطلبه على معلم يقرئهم القرآن . أو يعلمهم علما من العلوم الشرعيه أو تجتمع إليه العامة فيعلمهم أمر دينهم ويذكرهم بأس ربهم ويبين لهم سنة نبيهم ليعملوا بها ويبين لهم المحدثات التى هى ضلاله ليحذروها ، فهذه مجالس الذكر على الحقيقة وهى التى حرمها الله أهل البدع من هؤلاء الذين زعموا أنهم سلكوا طريق التصوف — وقَلّ أن تجد فيهم مع يحسن قراءة الفاتحه فى الصلاة فضلا عن غيرها ، ولا يعرف كيف يستنجى أو يتوضأ — وكيف يعلمون ذلك وهم قد حُرموا مجالس الذكر التى تغشاها الرحمه وتنزل فيها السكينه وتحف بها الملائكة ؟

فبانطماس هذا النور عنهم ضلوا فاقتدوا بجهال مثلهم وأخذوا يقرءون الأحاديث والآيات فينزلونها على آرائهم لا على ما قال أهل الحق فيها فيخرجون عن الصراط المستقيم ويقرأ أحدهم شيئا من القرآن يكون حسن الصوت جيد التلحين تشبه قراءته الغناء المذموم ثم يقولون تعالوا نذكر الله فيرفعون أصواتهم مداولة : طائفة فى جهة وطائفة فى أخرى ويزعمون أن هذا من مجالس الذكر المندوب إليها — وكذبوا — فإنه لو كان حقا لكان السلف أولى بادراكه والعمل به وإلا فأين فى الكتاب أو فى السنة الاجتماع للذكر على صوت واحد جهراً عاليا ؟

وقد قال تعالى: « واذكُرْ ربَّكَ فى نفسِكَ تضرُّعًا وخِيفَةً ودونَ الجهْرِ مِنَ القَوْلِ »(١) — وقال تعالى: « ادْعوا ربَّكُمْ تضرُّعاً وخفْيةً إنَّه لا يحبُّ المعْتَدِين » وقد فسر العلماء المعتدين بالرافعين أصواتهم بالدعاء — فعن أبى موسى رضى الله عنه قال: كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير — فقال النبى صلى الله عليه وسلم « أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا إنكم تدعون سميعا بصيرا وهو معكم » — ومعنى أربعوا على أنفسكم: ارفقوا بها — وروى الشيخان أيضا عن أبى هريرة فى حديث السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله « ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » قال شراح الحديث: رجل ذكر الله بلسانه أو بقلبه خاليا من الخلق - أى فى خلوته - لأنه أقرب للاخلاص وأبعد من الرياء ففاضت عيناه من الدمع لرقة قلبه وشدة خوفه.

وقال الغزالى: ولما روى أنس بن مالك قوله صلى الله عليه وسلم « لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من غدوة إلى طلوع الشمس أحب إلىّ من أن أعتق أربع رقاب » التفت إلى يزيد الرقاشى وزياد النميرى وقال: لم تكن مجالس الذكر مثل مجالسكم هذه — يقص أحدكم وعظه على أصحابه ويسرد الحديث سرداً — إنما كنا نقعد فنذكر الإيمان ونتدبر القرآن ونتفقه فى الدين ونعد نعم الله علينا تفقها (ثم قال الغزالى) وقد ورد فى الثناء على مجالس الذكر أخبار كثيرة — فنقل ذلك إلى ما ترى أكثر الوعاظ فى هذا الزمان يواظبون عليه وهو: — (القصص والأشعار والشطح والطامات).

أما القصص فهى بدعة — وقد نهى السلف عن الجلوس إلى القصاص — وقالوا لم يكن ذلك فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا فى زمن العمرين بعده — وقد أخرج على رضى الله عنه القصاص من مسجد البصرة ماعدا الحسن البصرى رحمه الله — إذ كان يتكلم فى علم الآخرة والتذكير بالموت والتنبيه على عيوب النفس وآفات الأعمال وخواطر الشيطان ووجه الحذر منها — ويذكّر

(١) الآية ٢٠٥ من سورة الإعراف.

بآلاء الله وتقصير العبد فى شكره فهذا هو التذكير المحمود شرعا — وقد قال أحمد : ما أحوج الناس إلى قاصّ صادق — فإن كانت القصة من قصص الأنبياء عليهم السلام فيما يتعلق بأمور دينهم — وكان القاص صادقا صحيح الروايه فلست ارى به بأسا — وأما الاشعار فتكثيرها فى المواعظ مذموم ولاينبغىأن يستعمل منها الا ما فيه موعظه أو حكمة على سبيل الاستشهاد .

ثم فسر الشطح بصنفين من الكلام الذى أحدثه بعض المتصوفه - أحدهما الدعاوى الطويلة العريضه فى العشق مع الله عزوجل ،والآخر كلمات مفهومه — وكثيرا ما تصدر عن تخبط فى العقل وحيرة فى النفس — ثم قال وأما الطامات فيدخلها ما ذكرناه فى الشطح — وأمر آخر يخصها وهو صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنه لا يسبق منها إلى الأفهام فائدة — وهذا من البدع الشائعة العظيمة الضرر - إن الذكر كما ورد فى القرآن الكريم هو العظة والاعتبار وتذكّر الله ومراقبته فى جميع الأحوال كما ورد فى سورة آل عمران .

« إنَّ فى خَلْقِ السَّمَوات والأرْضِ واختلافِ اللّيلِ والنَّهارِ لآياتٍ لِأولِى الألبَابِ — الّذِين يَذْكُرُون اللهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعلَى جنوبِهم ويتفكَّرونَ فى خَلْقِ السَّموات والأرْضِ .ربّنا مَا خَلقْتَ هذا باطلاً سُبْحانَكَ فقِنا عَذابَ النّارِ »(١) .

يذكرونه بعظمته وجلاله وقدرته فى جميع أوقاتهم وفىجميع شئونهم — ثم يكون هذا الذكر نتيجة لتدبرهم فى خلق السموات والأرض وما فيهما من إبداع وإتقان وعجائب وأسرار فليس ذكْراً ينطلق به اللسان فقط ، إنما هو ذكر ينبع من القلب إلى سماء الرب فيرفع همة صاحبه فينطلق لسانه بالدعاء وقلبه بين الخوف والرجاء .

هذا موقف الذاكرين لربهم المفكرين فيما خلق ودبّر — عرف منهم الصدق فى الإيمان والذكر والتفكير والتنزيه « فاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أنى لا أُضِيعُ عمَلَ عامِلٍ منكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أو أنثَى بعضُكُم مِنْ بَعْضٍ » .(٢)

---

(١) الآيتان ١٩٠ — ١٩١ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ١٩٥ من سورة آل عمران .

عباد الرحمن

قال الله تعالى :

(وعِبادُ الرَّحمَنِ الذينَ يَمشونَ عَلى الأرْضِ هَوْناً وإذا خاطَبهُمُ الجاهِلونَ قالوا سلاماً — والذينَ يَبيتونَ لربِّهم سُجَّداً وقياماً — والذينَ يَقولونَ ربَّنا اصرِف عنّا عَذابَ جَهنَّمَ إنَّ عَذابَها كانَ غَراماً — إنها ساءتْ مُستَقرّاً ومُقاماً — والذينَ إذا أنفَقوا لم يُسرِفوا ولم يَقتُروا وكانَ بَينَ ذلكَ قَواماً — والّذينَ لا يَدْعونَ معَ اللهِ إلهاً آخَرَ ولا يَقتُلونَ النفسَ التّي حَرّمَ اللهُ إلاَّ بالحَقّ ولا يَزْنونَ ومَن يَفْعَلْ ذلِكَ يَلقَ أثاماً — يُضاعَفْ لهُ العَذابُ يَومَ القيامَةِ ويَخلُدْ فيهِ مُهاناً — إلاَّ مَن تابَ وآمنَ وعَمِلَ عملاً صالِحاً فأولئكَ يُبدّلُ اللهُ سَيئاتِهِمْ حسَنَاتٍ وكانَ اللهُ غَفوراً رَحيماً — ومَنْ تابَ وعَمِلَ صالِحاً فإنّهُ يَتوبُ إلى اللهِ مَتاباً — والذينَ لا يَشهَدونَ الزُّورَ وإذا مَرُّوا باللَّغوِ مَرُّوا كِراماً — والذينَ إذا ذُكِّرُوا بآياتِ رَبّهِم لم يَخِرُّوا عَليها صُمّاً وعُمياناً — والذينَ يَقولونَ رَبَّنا هَبْ لنا مِنْ أزواجِنا وذُرّياتِنا قُرّةَ أعْيُنٍ واجعَلْنا للمتّقينَ إماماً — أولئكَ يُجزونَ الغُرفَةَ بِما صَبرَوا ويُلقَّوْنَ فيها تحيّةً وسَلاماً) (١)

معنى العبادة : — العبادة اخلاص لله فى السر والعلن ، ومراقبة الله فى الأقوال والأفعال ، والاعتراف بوحدانية الله وتقديسه ، وتنزيهه عما لا يليق به سبحانه ، والتوجه اليه فى السراء والضراء ، والشكر على نعمه ، والصبر على بلائه .

---

(١) الآيات ٦٣ — ٧٥ من سورة الفرقان .

وحسبك دليلا على شرف العبودية ومكانتها ، أن الله تعالى جعل تضرعنا بها اليه فرضا محتومًا فى أشرف المواقف ونحن ندعوه مخلصين له الدين (إيَّاكَ نعبدُ وإيَّاكَ نستعين) .

والعبادة لم تكن قاصرة على الإنسان وحده، فقد اشترك معه فيها كل المخلوقات «وإنْ مِنْ شئٍ إلاّ يُسبِّحُ بحمده»(١)

فالطيور والأشجار والجبال والبحار والأنهار والهواء والحشرات والحيوانات كلها تهتف باسم الرحمن — وقد وهب الله لسليمان النبى إدراك ذلك كله (ففهّمناها سليمانَ وكلاًّ آتينا حُكمًا وعلمًا وسخّرنا معَ داودَ الجبالَ يُسبّحن والطّيرَ وكنّا فاعلين»(١)

فكل من فى السموات والأرض يعبدون الله ويسبحونه ليلا ونهارا (ولَهُ مَنْ فى السّموات والأرْض ومَنْ عِنْده لا يستكبرونَ عَنْ عبادتِهِ ولا يَستحسرون — يُسبّحونَ اللّيلَ والنهارَ لا يَفْترون)(٣) (إنا سخّرنا الجبالَ معَهُ يُسبّحنَ بالعشيّ والإشراق — والطّيرَ محشورةً كُلّ لهُ أوّابٌ) (٤) (ويُسبّحُ الرّعْدُ بحمده والملائكةُ مِنْ خيفته)(٥).

(ألمْ تَرَ أنّ اللهَ يُسبّحُ لهُ مَنْ فى السّموات والأرْض والطّيرُ صافّات كُلّ قدْ علمَ صلاتهُ وتسْبيحه واللهُ عليمٌ بما يفعلون)(٦) .

وكيف لا تسبّح الموجودات بحمده وهو خالقها ؟ وكيف تنصرف عن عبادة الرحمن لحظة وهو المدبّر لها ؟!

سبحانك يا رب — كلنا نتوجه إليك بالعبادة والتقديس والحمد والثناء، فأنت أهل لكل عبادة — فكلنا عبيدك تأمر فنطيع — وتنهى فلا نعصى — تقلب الليل والنهار فتبدو آلاؤك ، ويقف أمامها القلب الخاشع حامداً لنعمائك — يرجف خشية

---

(١) الآيه ٤٤ من سورة الإسراء . (٣) الآية ٧٩ من سورة الأنبياء .
(٢) الآيتان ١٩، ٢٠ من سورة الأنبياء . (٤) الآيتان ١٨، ١٩ من سورة ص
(٥) الآية ١٣ من سورة ص . (٦) الآية ٤١ من سورة النور .

ورهبة وتذرف العيون دموعها خوفا وحسرة — فكم ضاعت أيام دون أن نؤدى ما علينا من حق العبادة نحوك — وكم استجبنا لنداء النفس الخبيثة التى ما عهدناها تأمر بغير السوء — ولكن رحمتك أوسع من غضبك وعفوك أعظم من سخطك — وبابك مفتوح لكل من أقبل عليك فأنت التواب الرحيم — والكريم لا يرد سائلا التجأ إليه يطلب منه العطاء .

من أجل هذا استجبت لبلاغك وتوجهت إلى حرمك أرجو رحمتك، وقصدت رسولك الذى بعثته رحمة للعالمين أستشفع به إليك فإذا بى أستمع إلى صوت القارىء يردد آياتك (وعبادُ الرحمنِ الذينَ يمشونَ على الأرْضِ هَوْنا . . .) فأشعر بالخشوع يملأ نفسى والفرحة تملأ قلبى وأسير الهوينى استجابة لأمرك أردد مع القارىء صفات عبادك كما صورتها آياتك ـ فقد جمعت الصفات التى يتميز بها عباد الرحمن ، وبينت أحوالهم الدنيوية والأخروية وحسبهم هذا الشرف العظيم الذى اكتسبوه من صفة العبودية والتقديس للرحمن ! ! عدت إلى نفسى أسترجع هذه الصفات التى تتوافر فى عباد الرحمن كما ذكرت هذه الآيات أتدبرها خاشعا .

وصفات عباد الرحمن : المشى فى سكينة وتواضع من غير فظاظة أو خيلاء استجابة لأمر الله (ولا تَمْشِ فى الأرْضِ مرَحًا إنَّكَ لن تخرقَ الأرْضَ، ولنْ تبلُغَ الجبَالَ طولاً) (١)

ومنها حسن المعاملة مع الغير ـ حتى ولو كانوا سفهاء ـ فهم يلقون إليهم بالتحية والسلام، ويتركونهم دون احتكاك بهم أو التعرض لأذاهم، أما فترة الليل فيحيونها بالصلاة (يبيتونَ لربِّهم سجّداً وقياماً) وصلاة الليل لها منزلة خاصة ولهذا كان لها ولفاعلها من آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول الحظ الأوفى ففى القرآن الكريم (إنما يؤْمنُ بآياتنا الذين إذا ذُكّروا بها خرُّوا سجَّداً وسبّحوا بحمد ربِّهم وهم لا يستكبرون ـ تتجافى جنوبُهم عن المضاجع يدْعون ربَّهم خوْفاً وطمعاً) ٢ .

---

(١) الآية ٣٧ من سورة الاسراء .

(٢) الآيتان ١٥ — ١٦ من سورة السجدة .

(إنّ المتقينَ فى جنات وعيونٍ ـ آخذينَ ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ـ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعونَ ـ وبالأسحارِ هم يستغفرون وفى أموالهم حقٌ للسائلِ والمحروم) (١)

ومن الحديث ماروى عن أبى أمامة الباهلى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « عليكم بقيام الليل فانه دأب الصالحين قبلكم وقربة إلى ربكم ومكفرة للسيئات ومنهاة عن الإثم » .

ثم يقولون فى أعقاب صلواتهم أو فى عامة أوقاتهم (ربَّنا اصْرِفْ عنا عذابَ جهنم إن عذابها كان غراماً) فالعذاب شر دائم وهلاك لازم ـ فمع حسن معاملتهم مع الخلق واجتهادهم فى عبادة الحق يخافون العذاب ويبتهلون إلى الله تعالى فى صرفه عنهم (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون)(٢).

ثم تتحدث الآيات عن بقية صفات عباد الرحمن فتذكر حبهم الزكاة وانفاقهم دون إسراف أو تضييق فهم مقتصدون .

ومع إتيانهم بالطاعات فهم يجتنبون المعاصى ـ فلا يدعون مع الله إلها آخر ولا يلجأون فى حاجاتهم إلا إلى الله (ولا يقتلون النفسَ التى حرّم الله إلا بالحق) أى لا يقتلونها بسبب من الأسباب الا بسبب الحق المزيل لحرمتها وعصمتها ـ (كما فى تفسير أبى السعود) ـ ولا يقدمون على جريمة الزنا ـ فان من يفعل واحدا من الأمور الثلاثة (يَلْقَ أثاماً ـ يضاعفْ له العذابُ يومَ القيامةِ ويخلد فيه مهانا) فيلقى جزاء الاثم الذى ارتكبه ـ وهو العذاب المضاعف والخلود فيه ذليلا مستحقرا جامعا للعذاب الجسمانى والروحانى .

فمن شأن عباد الرحمن أنهم أخلصوا التوحيد لله ونبذوا كل أثر للشرك فى عبادة ربهم وقصروا أنفسهم على الحلال من أوجه المتاع لينجوا من عقاب هذه المهلكات .

---

(١) الآيات ١٥ - ١٩ من سورة الذاريات (٢) الآية ٦٠ من سورة المؤمنون

ومع هذا فمن تاب من هذه الذنوب وصدق فى إيمانه وأتبع ذلك بالطاعات والأعمال الصالحة فهؤلاء يغفر الله لهم رحمة منه ويجعل لهم مكان السيئات السالفة حسنات يثيبهم عليها أجزل الثواب (فإن الله من شأنه الرحمة والغفران)

ومن صفات عباد الرحمن أنهم لا يقيمون الشهادة الكاذبة — أولا يحضرون محاضر الكذب — فان مشاهدة الباطل مشاركة فيه — وإذا مروا مصادفة بمجلس يلغو فيه جلساؤه بما لا يفيد أعرضوا عن الوقوف عليه .

— (والذينَ إذا ذكّروا بآيات ربّهم لم يخرّوا عليها صُمًّا وعمْيانًا) فاذا سمعوا القرآن الكريم وما فيه من مواعظ أقبلوا عليه بآذان واعية وذكروا آخرتهم — ولم يتغافلوا حتى يكونوا بمنزلة من لا يسمع — فاذا تليت آيات الرحمة وجلت قلوبهم فخروا سجدًا وبكيا .

ولحرصهم على العبادة الحقة ودوامها يرجون الله أن يهب لهم الأزواج الصالحه، والذرية الصالحة فان المؤمن إذا ساعده أهله فى طاعة الله وشاركوه فى العبادة شعر بالسعادة . فسوف يلحقونه فى الجنة

ولم يكتفوا بذلك بل سألوا الله أن يجعلهم قدوة للتوفيق للعمل الصالح ولقد أعد الله لهؤلاء جميعاً من اتصفوا بجميع الصفات المذكورة التى تميزوا بها نعما جليلة — ففازوا برضاء الله عنهم وأصبحوا بحق عباد الرحمن .

فجزاؤهم نعيم مقيم فى الآخرة — ودرجة عالية من المنازل فى الجنة (أولئك يجزون الغرفة بما صبروا) والغرفة — الدرجة الرفيعة وهى أعلى منازل الجنة وأفضلها .

(ويلقون فيها تحية وسلاما — خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما) فتحييهم الملائكه ويدخلون عليهم من كل باب يقولون (سلام عليكم بما صبرتم) ويدعون لهم بطول الحياة والسلامة من الآفات وما أجدرهم بهذا النعيم فهم المؤمنون التقاة — هم أولياء الله . !

أولياء الله :— وقد ذكر الله سبحانه وتعالى الولى فى القرآن حيث قال (إن أولياؤهُ إلاّ المتّقون) وقال (ألا إن أولياءَ الله لا خوفٌ عليهم ولا هُمْ يحزنون — الذينَ آمنوا وكانوا يتّقون)(١) . وقال (وهو يتولّى

---

(١) الآيتان ٦٢، ٦٣ من سورة يونس

الصَّالحين) وقال (اللهُ وَليُّ الذين آمنوا يُخرِجُهم من الظُّلمات إلى النور) (١)

فمن كل هذا يتبين أن الولى شرعا (هو المؤمن التقى)

(والولى معناه النصير — من الولاء) — ومعنى الولاء القرب والدنو من الله سبحانه وتعالى — وللولاء معنى آخر هو الخضوع والطاعة والامتثال لأوامر الله سبحانه وتعالى .

والآية تتفاوت بتفاوت درجات إيمان الشخص وتقواه — فمن كان عنده ذرة من إيمان وتقوى فعنده ذرة من الولاية — ومن كان كامل الايمان والتقوى فهو كامل الولاية — وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رب العزة (من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب — وما تقرب الى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضت عليه ومايزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه — فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها وإن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته)

والحديث يوضح أنه لاشىء مما يقرب الى الله أحب إليه من الفرائض — وفى الإتيان بالفرائض على الوجه المأمور به امتثال الأمر واحترام الآمر وتعظيمه بالانقياد إليه وباظهار عظمة الربوبية وذل العبودية .

وأيضا مما جبلت عليه النفوس ثقل التكليف الملزم فإذا فعله المكلف مع ذلك بانشراح نفس ورضا كان ثوابه أوفى ، وحب الله للعبد فى هذه الحال أقوى فكان التقرب بذلك أعظم العمل .

وحقيقة المحبة كما قال الغزالى . ميل النفس الى الموافق الملائم لها وهذا إنما يتصور فى نفس ناقصة — قد فاتها ما يوافقها فتستفيد بنيله كمالا لا تلتذ به وهذا محال على الله تعالى . فان كل كمال واجب له أزلا وأبدا فلا يتصور تجدده فى حقه سبحانه وتعالى واذا فما ورد من ألفاظ محبته فى قوله جل ذكره

(إنَّ اللهَ يُحبُّ التوابينَ ويحبُّ المتطهِّرين) (٢) وقوله (إنَّ اللهَ يحبُّ

---

(١) الآية ٢٥٧ من سورة البقرة (٢) الآية ٢٢٢ من سورة البقرة

الذين يقاتلون فى سبيله صفًّا) (١) الى غير ذلك مما لا يحصى - فهو مجاز عن رضائه تعالى عن عبده لصفاء باطنه بالعبادات والنوافل - فيكون هو الهادى له والمدبر لأمره والجمل لأخلاقه والمسدد لظاهره وباطنه والمبغض للدنيا فى قلبه والكاشف له من الحجب الحائلة بينه وبين معرفته .

ولهذا يقول الله فى الحديث القدسى « فاذا أحببته كنت سمعه .. الخ » أى إذا وصل الى درجة القرب بأن صفت نفسه والتزم أنواع العبادات — تولينا أمره ومكناه من فضائل عديدة فمنحناه الهداية والتوفيق لتكون حواسه بعيدة عن الشر وليس للشيطان عليها سلطان وفى عبارة (كنت سمعه) مبالغة فى شدة انقياد العبد لربه فلا يحب الا ما يحبه الله ولا يكره الا ما يكرهه — فقد اطمأنت نفسه إلى كل ما قدره الله له فلا يسمع الا ما يحب الله أن يسمعه ولا يبصر الا ما يرضى الله أن يبصره ولا يبطش بيده الا حيث يطلب الله البطش بها ولا يمد رجله إلا حيث يرضى الله

ثم يوضح الحديث إظهار عطف الله على العبد وشفقته عليه فالمؤمن يكره الموت ويستاء منه لما فيه من الكرب والشدة (وأنا أكره ما يسيئه فانا متردد بين الموت الذى هو حتم على كل حى وبين كراهة عبدى المؤمن له)

وعن عبادة بن الصامت عن النبى صلى عليه وسلم أنه قال .« من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» قالت عائشة أو بعض أزواجه : إنا لنكره الموت قال ليس ذاك. ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته فليس شىء أحب إليه مما أمامه فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه وان الكافر إذا حضر . بشر بعذاب الله وعقوبته . فليس شىء أكره إليه مما أمامه . كره لقاء الله وكره الله لقاءه » — رواه البخارى .

ومحبة الله معناها رضاؤه برؤيه عبده وملاقاته لينعم عليه بمشاهدته — قال تعالى (وجوه يومئذ ناضرة — إلى ربها ناظرة) (٢) أو رضاؤه له الموت لينعم عليه بما بعده .

---

(١) الآية ٤ من سورة الصف

(٢) الآيتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة القيامه

والعبد إذا أنس من نفسه أنه موفق فى طاعته فانه يحب ملاقاة ربه ليحظى بجزاء عمله عنده تعالى .

ولقد فهمت السيدة عائشة رضى الله عنها . أن لقاء الله معناه الموت وأن كراهته حاصلة فى حال الصحة والعافية ورأت أنها وكل الناس تكره الموت فى هذه الحالة — فذعرت وخافت من هذا الحديث — وفى رواية أخرى « فأكبّ القوم يبكون وقالوا يارسول الله إنا كانا نكره الموت » . . .

فقال صلى الله عليه وسلم مطمئناً لهم ليس الامر كما فهمتم بل المراد الكراهة والمحبة حال الاحتضار عندما يشاهد المحتضر ما أعد له من نعيم أو شقاء فيحب أو يكره .

وفى حديث حميد عن أنس « ولكن المؤمن اذا احتضر جاءه البشير من الله وليس شىء أحب اليه من أن يكون قد لقى الله فأحب الله لقاءه »

من هم المتقون؟ وقد أوضح القرآن الكريم فى أكثر من آية من هم المتقون — الذين يستحقون أن يكونوا أولياء الله — ويحب الله لقاءهم — ففى سورة آل عمران:

(وَسَارِعُوا إلى مغفرةٍ منْ ربِّكم وَجنّةٍ عَرْضُها السَّموات والأرضُ أُعدّت للمتقين — الذينَ يُنفقون فى السرَّاءِ والضرَّاءِ والكاظمين الغيظَ والعافين عن الناسِ واللهُ يُحبُّ المحسنين — والذينَ إذا فعلوا فاحشة أوْ ظلموا أنفُسَهُم ذكَروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومَن يغفر الذنوبَ إلاّ الله ولم يُصرّوا على ما فعلوا وَهُم يعلمونَ — أولئكَ جزاؤُهم مغفرة منْ ربّهم وجنّات تجرى مِنْ تحتها الأنهارُ خالدين فيها ونعمَ أجرُ العاملين)(١) .

وفى سورة المؤمنون :

(قدْ أفلحَ المؤمنون الذين هُمْ فى صلاتهم خاشعون — والذين هُمْ عن اللّغو مُعرضون — والذين هُمْ للزّكاة فاعلون — والذين هُمْ لفروجهم

---

(١) الآيات ١٣٣ ، ١٣٦ من سورة آل عمران

حافظونَ — إلاَّ على أزواجهم أوما مَلكتْ أيمانهُم فإنَّهم غيرُ ملومينَ — فمنْ ابتغى وَراءَ ذَلكَ فأولئكَ هُمُ العادونَ — والذينَ هُم لأماناتهم وعهدهمْ راعونَ — والذين هُمْ على صلواتهم يحافظونَ — أولئكَ هُم الوارثونَ — الذينَ يرثونَ الفردوسَ هُمْ فيها خالدونَ)(١).

ولاشك أن الولاء ليس وقفا على مسلم دون مسلم أو مسلمة دون مسلمة وانما الولاء صفة عملية يتسم بها كل من أطاع الله ووالاه — ونفذ أوامره باخلاص وطاعة وأمانة .

والنـــاس فى ذلك الولاء درجات — فأصحاب الدرجة الأولى هم الرسل والانبياء — وأصحاب الدرجة الثانية هم أصفياء الانبياء وأولياؤهم ونصراؤهم عند ظهور النبوة أو الرسالة — وأصحاب الدرجة الثالثة هم الذين ترسموا خطى الأنبياء وأصفيائهم من بعدهم — وكل هذه الدرجات تقريبا للفهم، وهى تتجمع تحت رحمة الله سبحانه وتتقارب حتى لايشعر أصحابها أن بينهم فوارق فالكل عباد الرحمن .

وقال على رضى الله عنه فى صفة المتقين (فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة فى دين ، وحزما فى لين ، وإيمانا فى يقين ، وحرصا فى علم . وعلما فى حلم ، وقصدا فى غى ، وخشوعا فى عبادة ، وتجملا فى فاقة . وصبرا فى شدة ، وطلبا فى حلال ، ونشاطا فى هدى ، وتحرجا عن طمع ، يعمل الأعمال الصالحات وهو على وجل . يمسى وهمه الشكر، ويصبح وهمه الذكر، مقبلا خيره ، مدبرا شره فى الزلازل وقور ، وفى المكاره صبور ، وفى الرخاء شكور ، نفسه منه فى عناء، والناس منه فى راحة) .

وتكريم هؤلاء الأولياء يكون بالاقتداء بأعمالهم وترسم خطاهم والسير فى الطريق الذى أوصلهم إلى مناطق الأمان فى رحمة الله ورضوانه .

---

(١) الآيات ١ — ١١ من سورة المؤمنون .

والتقرب إلى الله لا يكون إلا بما شرعه الله تعالى فالزيادة عليه تعدٌّ افتياتا على الشارع الحكيم الذى أكمل الدين المشروع على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم وقال فيه (اليَومَ أكمَلتُ لكُمْ دِينكُمْ)(١) ونهى عن التقدم بين يدى الله ورسوله فقال (يأيّها الذينَ آمَنوا لا تقدّموا بين يدَىِ اللهِ ورسولِه واتقّوا اللهَ إنّ اللهَ سميعٌ عليمٌ) (٢) وقد روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ » أى مردود — وهذا الحديث من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم يحذر فيه من الابتداع فى الدين .

كما أن الاسلام يحذر من الاعتقاد فى الأولياء بأن لديهم القدرة على التصرف فى ملكوت الله أو بأن لهم ميزة توجب الاستغاثة بهم — فلا يراهم الاسلام سوى أنهم مؤمنون متقون .

والقرآن يقول (يَومَ لا تَمْلِكُ نفسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا والأمرُ يَومئذٍ للهِ)(٣) .

ويوجه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم فيقول « قُل لا أملكُ لِنَفْسى نَفْعًا ولا ضرًّا إلاّ ما شاءَ اللهُ ولو كُنْتُ أعلَمُ الغيبَ لاستَكْثَرتُ مِنَ الخيرِ ومَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إنْ أنَا إلاّ نذيرٌ وبَشيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون)(٤).

وهكذا أوضح الاسلام الطريق الصحيح للعبادة الحقة البعيدة كلّ البعد عن الزيف والضلال أو الزيغ والانحراف .

---

(١) الآية ٣ من سورة المائدة . (٢) أول سورة الحجرات .
(٣) الآية ١٩ من سورة الانفطار . (٤) الآية ١٨٨ من سورة الأعراف

الباب الثاني

التقوى والشباب

الشباب هو القوة المحركة لصنع التقدم لهذا يجب توجيهه توجيهاً دينيا حتى يعيش المجتمع سعيدا نقيا من الفساد والانحراف .

وقـــد تأثر المحيطون بالرسـول صلى الله عليه وسلم من الشباب بتعاليمه وتوجيهاته نذكر منهم . على بن ابى طالب الذى طبع على الإسلام فأصبح مثلا أعلى للشباب التقى .

فقد كان عابداً يشتهى العبادة كأنها رياضة تريحه وليست أمراً مكتوباً عليه ـ وكان يُرى فى كهولته وكأنما جبهته ثفنة بعير من إدمان السجود ـــ وكان حجة فى الإسلام لا يحيد عنه لرغبة ولا لرهبة ـ فكلما زينوا له الهوادة (أى أن يداهن فى دينه ويعطى الدنية فى أمره) رجعل الدين موضوعا من موضوعات التفكير والتأمل، ولم يقصره على العبادة واجراء الأحكام وأخلص غيره أيضا من الشباب فى العبادة وأسلم وجهه لله وقضى وقته فى مرضاة الله ـــ ففى النهار يسعى فى سبيل الرزق ـــ فإذا مافرغ من العمل ـــ شغل نفسه بالعبادة عمـــلا بقوله تعالى (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ)(١) فالفراغ المفسد لامكان له فى الإسلام .

درس من دروس النبوة فى تربية الشباب:

كان الرسول صلى الله عليه وسلم جالساً مع أصحابه ذات يوم فنظروا إلى شاب ذى جلد وقوة وقد بكر يسعى ـــ فقالوا: ويح هذا لو كان شبابه وجلده فى سبيل الله ! فقال صلى الله عليه وسلم « لاتقولوا هذا فانه إن كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة ويغنيها عن الناس فهو فى سبيل الله وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفيهم فهو فى سبيل الله »

---

(١) الآية ٧ من سورة الشرح .

وهذا درس من دروس النبوة فى تربية الشباب فقد أوضح الرسول أن سبيل الله متعدد الميادين وليس قاصرا على حمل السلاح فكل عمل طريقه مشروع وغايته شريفة هو جهاد فى سبيل الله كما أن طلب العلم لمواجهة الحياة فى يقظة ووعى جهاد فى سبيل الله .

إن منهج الإسلام فى تربية الشباب منهج واضح يقوم على الترغيب قبل الترهيب وعلى الثواب قبل العقاب — ووفر لهم كل أسباب الحماية والرعاية ليشبوا على حب الله وطاعته ويبتعدوا عن كل مظاهر الدنس - وهذه هى التقوى ومظاهرها فما أحسن الشاب الذى نشأ فى عبادة الله فألف الطاعة صغيراً وتمرس بها يافعاً ولم يشغله شبابه وفتوته عن طاعة ربه، فمن الطبيعى أن يجد جزاء وفاقا على حسن الطاعة وشدة الإخلاص لله مع سورة الشباب وطيشه .

وقد أوضح الرسول صلى الله عليه وسلم مكانة الشاب الذى نشأ فى عبادة الله وجعله فى جملة الذين يظلهم الله بظله يوم القيامة فى وقت تشتد فيه الأهوال فقال: « سبعة يظلهم الله تعالى فى ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها ، فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه » (١) صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

المدنية الحديثة والشباب :

أما ما نلاحظه اليوم من تصرفات شاذة تحدث من الشباب وما يبدو من مظاهر يندى لها الجبين باسم المدنية الحديثة فهى أشياء تجل عن الوصف وتثور لها الكرامات التى حرص عليها الإسلام — ذلك ما أقدم عليه بعض شباب هذا الجيل الذين زين لهم الشيطان أعمالهم — فقد تفشت بينهم ظاهرة التشبه بالنساء فى حركاتهم وأزيائهم وإطلاق شعورهم واسترساله وهو ما يطلق عليه (الخنفسه) .

(١) رواه البخارى ومسلم بترتيب ألفاظ مختلفة

وما يبدو فى حياتهم اليومية من مظاهر التهاون فى أمور الدين فأهملوا العبادات وانطلق بعضهم يتباهى بقوته فيتلفظ بألفاظ تأباها الفطرة السليمة وتمجها الاسماع — وانحرفوا عن الطريق السوى فانحطت الأخلاق وضاعت الكرامة وتجرأ البعض بالاعتداء على حقوق الغير دون وازع من خلق أو رادع من ضمير وعجز الآباء عن تقويم المعوج وعلاج سوء الخلق المتفشى بين الأبناء، فتركوا أبناءهم يتصرفون كما يشاءون وباسم الحرية الشخصية أتقن هؤلاء المحرفون طريقة الجدال والسفسطة وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل . . . . وركن الآباء إلى الاستسلام للأمر الواقع ونسوا أو تناسوا قول الرسول الكريم «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . الإمام راع ومسئول عن رعيته والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته والرجل راع فى مال أبيه ومسئول عن رعيته — وكلكم راع ومسئول عن رعيته » (١).

فأين المسئولية التى حث عليها الرسول؟ وأين الاصلاح الذى نادى به الإسلام؟ لقد قال أحد الشباب : إننا فى عصر التقدم فعلينا أن نقلد الدول المتقدمة ونتخلى عن الرجعية — فقلت له ومن تقصد بالدول المتقدمة ؟ فقال أقصد الدولتين الكبيرتين : أمريكا وروسيا ؟ !

فقلت له استمع إلى قول رؤساء هذه الدول عن شبابهم ورأيهم فيهم بكل صراحة ووضوح :

فى عام ١٩٦٢ صدر تصريح من خروشوف قال فيه (إن الشباب الشيوعى قد بدأ ينحرف ويفسده الترف وان من بينه عصبجية وصيعاً — وأنذر بأن الحكومة السوفيتية تبحث إطلاق يد البوليس فى معالجة هؤلاء البلطجية — كما أنذر بأن معسكرات جديدة قد تفتح فى سيبيريا للتخلص من الشباب المنحرف — لأنه خطر على مستقبل روسيا » .

---

(١) أخرجه الخمسة إلا النسائى

وهو خبر مفجع للكثيرين لأنهم لم يتصوروا مثله .

وفى نفس العام قال كينيدى (إن الشباب الأمريكى مائع منحل مترف غارق فى الشهوات وأنه من بين كل سبعة شبان يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين بسبب انهماكهم فى الشهوات وأنذر بأن هذا الشباب خطر على مستقبل أمريكا — وأهاب بالعلماء والمصلحين الاجتماعيين أن يبحثوا هذا الخطر ويقرروا العلاج) — هذا هو رأى قادة الدول المتقدمة فى شبابها .!!

فكيف نقلد شباب هذه الدول فى تصرفاتهم ولنا عاداتنا وتقاليدنا الاسلامية وطابعنا الشرق الذى نتميز به ؟

لقد أصاب الشباب ريح السموم المسمى (بالهيبز) — ولو دروا معنى هذه الكلمة لنفروا منها — فأوضح تفسير لها أنها كانت تعنى الأولاد والبنات الصغيرات الذين كانوا يعملون فى خدمة معبد الإله زيوس (رب الأرباب الأغريقى) وكهانه وحجابه — فيقدمون لهم الطعام والشراب والترويح .

فالهيبز : اتجاه غير لائق بشبابنا المسلم فلا يصح تقليد عبدة الأصنام، بل نريد قوة الايمان بالله والتمسك بالخلق الذى رسمه لنا الله .

فهل آن لنا أن نصحو من غفلتنا ونثوب إلى رشدنا ونرجع إلى كتاب الله ندرس مافيه ونتحلى بلباس التقوى (ولباس التقوى ذلك خير . . .)(١)

---

(١) الآية ٢٦ من سورة الأعراف

التبرج وتعاليم الاسلام

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)(١)
واستهوى الشيطان بعض نساء العصر الحديث فزين لهن الفساد باسم المدنية الحديثة والتقدم العصرى وأخذ دعاة الفساد يزينون للمرأة حب التبرج والخلاعة والأزياء الحديثة التي تكشف عن مفاتنها - وتبرز جسمها في صورة فاضحة - فهي تلبس غلالة رقيقة شفافة لا تستر ماتحتها فتزيد الجسم فتنة — أو ملابس قصيرة عارية كاشفة — وأخرى ضيقة ملتصقة بالجسم تبرزه في صورته الحقيقية - والشيطان من ذلك كله يضحك ساخرا بعقولهن فرحا باستهوائهن مزينا لهن ما فعلن مغريا للشباب بالتغزل فيما يرون — فأصبحن بما فعلن وسيلة إغراء للفتنة والفجور — فالعينان تزنيان بالنظرات المحدقة — والأذنان تزنيان بما تسمعان من ألفاظ الميوعة والدلال — تحت ستار الرقة والأدب المصطنع والعقول تزنى بالتفكير في الإقدام على المتعة المحرمة — (وأخيرا الاختلاط المتاح والإندماج المباح بين الجنسين في الشوارع والمحلات والأندية وأماكن اللهو)!

فكيف نطالب الشباب بالتدين ومراقبة الله في الأقوال والأفعال ، والحرص على العبادة — ومفاتن المرأة بادية أمامهم في كل مكان ؟ وماذا نتوقع من شبابنا اليوم — وهم في نزوة الشباب وطيشه — حينما يرون وسائل المتعة الرخيصة المباحة تطاردهم في كل مكان ؟! — ماذا ننتظر بعد اختلاط الجنسين (من الشباب) والفتاة تغرى الفتى بكل وسائل الاغراء والفتنة وتدعى أنها من أسرة محافظة ؟ ! فأى محافظة تدعيها ؟ اللهم إلا المحافظة على التبرج والسفور المنبوذ؟! وهذه والله مفاسد الغرب التى استوردناها باسم المدنية والتقدم — وأصبحت الحشمة والوقار والتمسك بتعاليم الدين من مظاهر الرجعية والتأخر ، حتى أن الدين — أصبح وسيلة التخلف في رأى هؤلاء المتزندقين — المفسدين باسم الانفتاح على مباهج العالم الخارجى ؟! — ومما يندى له الجبين أن

---

(١) الآية ٤١ من سورة الروم

نجد بعض الفئة المثقفة هي التي تتعصب لهذا الاستهتار ـ وهي التي كما نتوقع منها أن تتفتح على الدين بدافع الثقافة والاستفادة بما درست ــ لا أن تنغلق عليه وتنفتح على الفساد وقد تفشت مذاهب فاسدة تبيح المتعة المحرمة وجميع هذه المذاهب قادها رسل الفساد وتعصب لها محبو الاباحية ــ فأقدموا على أشياء لا يرتضونها لأمهاتهم وأخواتهم وبناتهم ــ فهل ماتت الغيرة فى القلوب؟ أم ضاعت الكرامة من الشباب؟ ــ أم ضعف الدين فى النفوس؟!.

إن المرأة المتعلمة أقدر النساء على الجدل والسفسطة ـ تجادل وتعارض وتعتبر الاحتشام تزمتا وترى التبرج من مظاهر المدنية ـ والخمار من مخلفات العصور القديمة ـ ولا يتفق مع الحضارة الحديثة ويحط من قدر المرأة المثقفة المتمدينة.!!

ويظن الآباء أن تبرج بناتهم واستعراض جمالهن يعجل بزواجهن فيسمحون بالعرض الرخيص الدنيء ــ ونسوا أن الرجل الصالح لا يرضى بهذه الرذيلة ــ وإنما يرضى بها الرجل الفاسق الذى لا يؤتمن على الأعراض.

وكم أساء الفهم بعض فتيات هذا الجيل ظنوا أن الشباب يباح له كل شيء ومن حق الفتاة أن تتمتع بجمالها وتتزين كما يحلو لها ــ كأن الخمار جعل لستر الشيب والشيخوخة لا لستر الجمال والزينة ــ ونسوا أن العكس هو المباح ــ قال تعالى (وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)(١).

والمرأة الصغيرة الجميلة سفورها أدعى للفتنة فيجب عليها ستر جمالها عن أعين الفاسقين، وعن أعين المتقين الذين يتألمون من النظر الى جمال ليس لهم الحق فى التطلع إليه ــ وكم من جميلة أغراها شيطان جمالها بالافراط فى التبرج والتزين ورغب الرجال عنها فلم يتزوجها واحد ممن كان يحوم حولها شكًّا منه فى سلوكها

---

(١) الآية ٦٠ من سورة النور.

لخسرت الدنيا والآخرة بجهلها وطيشها — وكم من زوجة خسرت بتبرجها ثقة زوجها فيها — وأضاعت أولادها وهامت على وجهها لا تجد من يثق فيها !!

إن المدنية لتتبرأ من قوم مزقوا ثوب الحياء . وإن الرسول ليغضب من قوم خالفوا أوامر المنتقم الجبار — فقد برىء ممن تبرجن واستجبن لأهوائهن فقال (صنفان من أمتي من أهل النار — قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رءوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وأن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة سنة) .

وقد توعد الله العصاة لأوامره / المخالفين لشريعته بأشد عقاب / فقال :

(وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ (١) .

وحفظا للمجتمع من مفاسد التبرج نهى الله النساء عنه فى قوله : (وقل للمؤمنات يَغْضُضْنَ من أَبْصَارِهِنَّ ويَحْفَظْنَ فروجهنَّ ولا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلا ما ظَهَرَ منها وليَضْرِبْنَ بخُمُرِهِنَّ على جيوبِهِنَّ (٢) ولا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلا لِبُعولتهنّ أو آبائهنّ أو آباء بُعولتهنّ أو أبنائهن أو أبناءِ بُعولتهنّ أو إخْوانِهِنّ أو بني إخوانِهِنّ أو بني أَخَواتِهِنَّ أو نسائِهِنَّ أو ما ملكَت أيمانهنَّ أو التَّابِعِينَ غيرِ أولي الإرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أو الطفْلِ الذين لم يظهروا على عوراتِ النساء ولا يَضْرِبْن بأرجلهنَّ ليُعْلَمَ ما يُخْفِين مِنْ زِينَتِهِن وتوبوا إلى الله جميعًا أيّها المؤمنون لعلَّكم تُفلِحون (٣).

والمراد بالخمار — غطاء الرأس الذى يغطى الصدر — دون تجميل أو تزيين كما يلاحظ الآن — حتى ليكون الخمار نفسه زينة للناظرين — فمن فعلت ذلك فقد

---

(١) الآية ١٤ من سورة النساء .

(٢) الجيب — فتحة القميص من جهة الصدر .

(٣) الآية ٣١ من سورة النور .

خادعت الله والله عليم بما فى نفسها — ونسيت أمر الله (ولا يبدين زينتهن) .
أى أن الخمار وحده لا يكفى مع التجمل والتزين .

ومما نهى الله عنه أيضا الصوت اللين الذى يميل القلوب (فلا تَخْضَعْنَ بالقولِ فيَطْمعَ الذى فى قلبِهِ مَرَضٌ)(١) وقد نهى الاسلام عن تعطر المرأة أثناء خروجها فقال الرسول صلى الله عليه وسلم (إذا خرجت المرأة متعطرة فإنها زانية) وقد أوضح الرسول حكم الإسلام فى الثياب الشفافة حينما دخلت عليه أسماء بنت أبى بكر وعليها ثياب رقاق فقال « يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح لها أن يرى منها الا هذا وهذا » وأشار إلى وجهه وكفيه .

وعلى هذا فقد أباح الاسلام للمرأة كشف وجهها وكفيها فقط بلا زينة — فلا أصباغ فى الوجه ولا طلاء للأظافر — ولا إظهار لما يجب ستره .

وليس التوجيه لما يجب فعله عملا بتعاليم الاسلام موجها إلى المرأة وحدها بل هو موجه الى الرجل أيضا لأن السبب فى انتشار داء التبرج بين فتيات هذا العصر إنما هو راجع إلى اهمال الرجل فى القيام بواجبه فهو مكلف برعايتها سواء كان أبا أو أخا أو زوجا أو محرما أيا كانت صلته بها فهو ملتزم بتأديبها وتهذيبها ورعايتها وتوجيهها إلى ما يجب عمله — عملا بالحديث الشريف (كلكم راع — وكلكم مسئول عن رعيته — فالرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته . . .) الخ

وقال تعالى (الرِّجالُ قوَّامونَ على النِّساءِ)(٢) — ويقول فى تأديب المرأة وزجرها (واللاتِى تخافونَ نُشوزَهُنَّ فعِظوهُنَّ واهجروهُنَّ فى المضاجِعِ واضْرِبوهُنَّ)(٣) .

وما أعظم احتشام المرأة ، وما أجمل تدينها ، فإن هذا المظهر يثير الإعجاب والاحترام ، وقد نشرت الصحف خبرا أثار إعجاب القراء ، فقد تحدثت جريدة الأخبار يوم ٢٥/٤/٧٥ عن فتاة فى سن السادسة والعشرين تخفى وجهها تحت

---

(١) الآية ٣٢ من سورة الأحزاب (٢) الاية ٣٤ من سورة النساء
(٣) الآية ٣٤ من سورة النساء .

الحجاب وتغطى كل جزء من جسدها — إنها فتاة طبيبة شابة لم يمنعها هذا التحفظ الشديد من الدراسة فى كلية الطب ، ثم العمل كطبيبة لأمراض النساء تخدم بنات جنسها .

إن وراء هذا الحجاب سيدة متدينة ومثقفة تؤمن بالعمل ، وتحمل فى داخلها رسالة نبيلة هى علاج المرضى من أهالى الريف — فهى تعمل فى قرية الرهاوى بمحافظة الجيزة . ثيابها كلها حشمة ووقار وتدور فى رأسها أفكار فى منتهى التقدمية فهى ترفض أن يكون البيت هو مكان المرأة الوحيد ، فالمرأة فى رأيها يجب أن تزاول بعض الأعمال مثل الطب والتمريض والتدريس ، وأن تخدم بنات جنسها بشرط ألا يمنعها ذلك من أن تكون أماً صالحة وزوجة أمينة ، تطيع زوجها كل الطاعة .

وهذه السيدة ضد سفور المرأة وخروجها مكشوفة الوجه ، وتقول إن مثلها الأعلى فى الحياة زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم ، لذلك فهى ترتدى الحجاب وتؤدى فروض الصلاة . والحجاب فى رأيها لا يمنع المرأة من الاختلاط فى حدود معينه فى الجامعة والعمل وفى المؤتمرات العلمية ، وقد اشتركت أخيراً فى المؤتمر الأول للخدمة الصحية بالريف ، ولا ترى فى لقائها بالرجال أو التحدث معهم أى حرج ما دامت محتشمة) اهـ.

هذا وقد ظهر أثرها فى زميلاتها وزميلاتها بمستشفى دمنهور ، فقد استطاعت أن تؤثر على الجميع وتحببهم فى الصلاة مع المواظبة عليها — ورغبت زميلاتها فى التمسك بالزى الإسلامى — فاشتد تعلقهن بها — فنور الإسلام يجمع دائماً بين من يستضيئون به .

إنها نموذج للفتاة المتدينة — وكم كنا نود أن نرى الكثير من الفتيات اللاتى يخشين الله بالغيب — فعليهن تقع المسئولية الكبرى فى تربية النشء ، ولأنهن أمهات المستقبل — والأبناء أمانة فى أيديهن — وبحمد الله — لا زالت بعض فتياتنا على خير وتتمسك بتعاليم ديننا الحنيف فى العاصمة وفى بعض بلاد الوجه "قبلى والبحرى

لا زالت محتشمة — وقد رأيت استجابة كاملة من بعض فتيات مدارس شبرا الثانوية لنداء القرآن ورغبة طائفة منهن في الأخذ بمبدأ الحشمة والوقار — أما أزياء فتيات البلاد العربية الأخرى، فإني أقولها بكل اعتزاز بأن المرأة في السعودية لا زالت تتمسك بتعاليم الإسلام وتتحجب تماماً بالحجاب الذي أوضحه القرآن، وتلك ظاهرة من مظاهر الحفاظ على كرامة المرأة — فقد استجبن لقول الله تعالى : « يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » (١)

شاهدت ذلك في كل مكان تجولت فيه بالمملكة العربية السعودية ، فبارك الله فيهن — وشكر الله لهن ولأولياء أمورهن .

وفي موسم الحج لاحظت أيضاً ذلك الحجاب ، تتمسك به المرأة التونسية والجزائرية ممن كن يقمن معنا في مسكن المطوف .

أما المرأة السودانية فقد لاحظت تمسكها بزيها التقليدي وهو أشبه بالحجاب الكامل . فلم يبد منها — لدى الأكثر منهن — إلا الوجه والكفان — شاهدت ذلك في كل مكان مررت فيه بجمهورية السودان .

فيجب أن نعلم أن بعض النظريات الوافدة إلينا قصد بها تغرير القاصرين السطحيين — حتى تجرهم إلى هاوية الكفر والضلال — ألا فليرجع هؤلاء الشباب عن غيهم وضلالهم — وليتنبه الآباء إلى هذا الخطر المحدق بهم وبأبنائهم وبأمهاتهم وليأخذوا على أيدي هؤلاء العابثين المستهترين حتى يردوهم إلى الصواب، ويرون نور الإيمان ، فيستضيئون به ويفتحون أمامهم باب التوبة والأمل في المغفرة « إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ » (٢).

ولن تصلح هذه الأمة إلا بما صلح به من سبقهم (لين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف) .

---

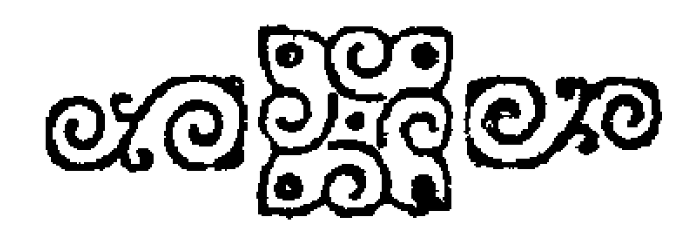
(١) الآية ٥٩ من سورة الأحزاب (٢) الآية ٣٢ من سورة النجم

ويجب أن يكف أصحاب الأفلام المؤثرة فى نفوس الشباب، والذين أكثروا من الكتابة عن الجنس ، ويقدمون سماً ناقعاً لهذا الجيل — حتى أفسدوهم — وليتق الله الذين يقدمون أفلاماً سينمائية أو تليفزيونية يعرضون فيها المناظر المخجلة — ويقدمون بدلا منها الأفلام العلمية والبطولية والدينية والتاريخية وغيرها مما يفيد المجتمع .

فهل علاج مشكلات المجتمع فيما يعرضون من سفك الدماء وفى المشاهد التى يندى لها الجبين وفى مظاهر (البلطجة) وغير ذلك مما يترك أسوأ الأثر فى نفوس الأبناء ، ويدفعهم ذلك كله إلى التقليد الأعمى؟! — فكم شاهدت أطفالا يقومون بتمثيل ما يشاهدون عقب انتهاء رؤيتهم لهذه الأفلام ، وكم يتقن الشباب ارتكاب هذه الموبقات التى تمثل أمامهم ويتحاشون الأخطاء التى أودت بأبطال الرواية إلى الهلاك ! كما يحدث فى البلاد الأوربية.

وكم نشرت الصحف العديد من حوادث الاجرام التى يرتكبها الشباب مثل اختطاف الفتيات وتهديدهن ، وقتل من يتقدم لحمايتهن — فقد قتل طالب بكلية الشرطة لأنه أقدم على إنقاذ فتاة — تستصرخه — من أيدى بعض الشباب الماجن — فمن المسئول عن هذا الاستهتار بالقيم الخلقية ؟

يجب أن يثابر المصلحون على أداء رسالتهم حتى يأخذوا بأيدى هؤلاء الشباب ، لينقذوهم من الضياع ويكونوا بحق عباد الرحمن (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) .



الباب الثالث

التقوى والعلم

قال تعالى (واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم) (١)
التقوى - كما سبق ذكره - معناها فى اللغة (اتخاذ الوقاية من كل ما يخاف منه) وشرعا (كلمة جامعة لفعل المأمورات وترك المنهيات) فهى شاملة لأصول الدين وفروعه .

وحقيقة التقوى متوقفة على العلم، لأن الجاهل لا يدرى كيف يتقى ولا أى شىء يتقى .

وفى الصحيحين عن معاوية رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ، ويقول فى فضل العلماء (علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل)

وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه - وكان بالتقوى زاهداً وفى الدنيا مقبلا على الله - قال (الناس أعداء ما جهلوا) وقال : (كل وعاء يضيق بما جعل فيه إلا وعاء العلم فإنه يتسع) .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع) . ذلك لأن طالب العلم كالمجاهد فى سبيل الله لما يتحمله من إنفاق المال والوقت، وتجشم الأسفار فى تحصيل العلم

وقد رحل الامام الشافعى إلى الشام والعراق ومصر سعياً وراء ما لم يعلم ، وغيره كثير من العلماء الأتقياء - عملا بقول الله تعالى : (فلولا نفر من

---

(١) الآية ٢٨٢ من سورة البقرة .

كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) (١).

وكان من دعاء إمام المتقين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم (اللهم انفعنى بما علمتنى وعلمنى ما ينفعنى وزدنى علما).

وقد امتن الله سبحانه على نبيه بالعلم فقال (وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً (٢) ثم دعاه إلى الاستزادة من العلم بقوله (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْمًا)(٣)

علم الدين وعلم الدنيا :

وعلم الدين فرض عين واجب على كل مسلم، ولا يغنى أن يتعلمه أحد دون أحد ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (طلب العلم فريضة على كل مسلم).

وعلم الدنيا من طب وهندسة وكيمياء وغيرها من العلوم التى تعين الانسان على فهم أسرار الكون وتريه قدرة الله وعظمته ، ويستطيع بها تسخير الكون لمنافعه — فدراستها فرض كفاية ، والاسلام يشجع عليها لأنه يريد للامة العزة والكرامة ، ولكنه لا يتوقف عند حد ، فغاية المسلم تتمثل فى قوله تعالى :(وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى) (٤).

فإذا كنا مدعوين إلى تسخير الكون ومأمورين بتسخيره فى سبيل الله وتذليله رجاء مرضاة الله، فنحن بهذا متجهون إلى الله غير ناظرين إلى هذا التسخير وإنما إلى المكون للكائنات وهو الله — وبذلك يكون التسخير نفسه عبادة — والسيطرة على الطبيعة فى الوضع الاسلامى الصحيح (هجرة الى الله) ، يقول الدكتور عبد الحليم محمود (وإذا اقتصرت أوربا على العلم المادى فإن الاسلام لا يقف عند ذلك —

---

(١) الآية ١٢٢ من سورة التوبة . (٢) الآية ١١٣ من سورة النساء .
(٣) الآية ١١٤ من سورة طه . (٤) الآية ٤٢ من سورة النجم

وإنما يوجه الإنسانية إلى مصدر آخر للعلم والمعرفة — هو القلب أو هو الروح والبصيرة .

إن الإسلام يوجه الإنسانية إلى المعرفة الاشراقية أو الكشفية أو الإلهامية، ويجمع الاسلام الاتجاه العلمي الحديث إلى الاتجاه البصيري في قوله تعالى:
(إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا) (١).

فالسمع والبصر هما أساس العلم المادي : علم التجربه والملاحظة . أما القلب فإنه أساس العلم الإلهامي .

الملاحظة والتجربة :

إن الله سبحانه وتعالى يوجه المسلم إلى الملاحظة والتجربة ويوجهه أيضاً إلى الاستشراف للهداية والنور القلبي عن طريق الخلق الكريم والتقوى والإخلاص، وحب الإنسانية والمعاونة في الخير .

وإذا كان الإسلام أوسع نظرة في الجانب العلمي عن الحضارة الحديثة وأدق وأشمل، فإنه يختلف معها اختلافا جذريا حاسماً في مسألة الارادات والنوايا ، وفي أمر الأسباب والبواعث وفي اتجاه الغايات والأهداف.

إن الحضارة الحديثة تقول: العلم لاصلة له بالأخلاق ، أو تقول: العلم لاأخلاقي والعلم في نظرها لا شأن له بالخير والشر .

ولكن الإسلام : يجعل أسس العلم متسمة بالخير ويجعل غايته : منغمسة في الخير — ويجعل من العلم قربى إلى الله — ويجعل منه عبادة لله — إنه سبحانه يجعله باسمه الكريم — إن العلم في الجو الإسلامي قراءة باسم الله (إقرأ باسم ربك) ومن هنا كانت حضارة الإسلام حضارة رحمة وهداية، لا حضارة تدمير وتخريب (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) (٢) اهـ .

---

(١) الآية ٣٦ من سورة الإسراء . (٢) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء

إنما يخشى الله من عباده العلماء[1]

المراد بالعلم :

العلم فى نظر الإسلام هو كل إدراك يفيد الإنسان ويزيده توفيقاً فى القيام بمهمته العظمى التى تحملها منذ أن جعله الله خليفة فى الأرض ، هذه المهمة تتلخص فى عمارة الأرض واستخراج كنوزها ، وهذه الأشياء تستوجب إدراك ما يصلح به النبات وما تستنبت به الأرض . وإدراك ما يصلح الحيوان ، وتتصل به قوته موارد الصناعة على اختلاف أنواعها وإدراك الأمراض وعللها ، وكيفية علاجها وطرق الوقاية منها . وادراك وسائل الدفاع والهجوم حفظاً للأوطان وصونا للحياة ومظاهرها .

كل هذه الأشياء تتحقق بواسطة العلم .

يقول الله عز وجل (ألمْ تر أنّ الله أنزَلَ مِنْ السَّماءِ ماءً فأخْرجْنا به ثمرات مُختلفاً ألْوانُها ومِنَ الجِبالِ جُددٌ بيضٌ وحُمْرٌ مختلف ألْوانُها وغرابيبُ سود — ومِنَ النّاسِ والدّوابّ والأنعام مُختَلِفٌ ألْوانُه كذلك ، إنّما يخْشى اللهَ مِن عبادِهِ العُلماءُ إنّ اللهَ عزيز غفور)(٢) .

هاتان الآيتان فيهما إعجاز علمى — وليس الإعجاز هو التنويه فقط بما للجبال من ألوان مختلفة ترجع إلى اختلاف المواد التى تتألف منها صخورها من حديد يجعل اللون السائد أحمر — أو منجنيز أو فحم يجعله أسود — أو نحاس يجعله أخضر وغير ذلك — ولكن الإعجاز هو الربط بين اخراج ثمرات مختلفات الألوان —

---

(١) هذا الموضوع نشر بجريدة الأخبار فى ١٩٧٥/٤/١١

(٢) الآيتان ٢٧، ٢٨ من سورة فاطر .

يروى شجرها ماء واحد ، وخلق جبال حمر وبيض وسود يرجع أصلها إلى مادة واحدة متجانسة التركيب أصل معينها من باطن الأرض ويسميها علماء الجيولوجيا بالصهارة — وهذه الصهارة الواحدة عندما تنبثق فى أماكن مختلفة من الأرض وعلى أعماق مختلفة من السطح يعترى تركيبها الاختلاف فتتصلب آخر الأمر فى كتل أو جبال مختلفات المادة والألوان — وهكذا فسنة الله واحدة لأن الأصل واحد والفروع مختلفة ومتباينة — وفى هذا متاع وفائدة لبنى الإنسان .

وقد يشار إلى أن وراء هذا التباين فى تلك الأحوال جميعها وحدة فى الأصل فالثمرات من ماء واحد — والجبال من صهارة واحدة — وكذلك اختلاف الألوان والناس والدواب والأنعام — لا يظهر فى النطف التى تنشأ منها ولو فحصت بالمجاهر القوية ، فإنها فى مظاهرها لا تشير إلى شىء مما تكنه من أوجه الاختلاف — وإنما هو دقائق وأسرار تحتويها فى داخلها — وربما كان هنا إشارة أيضاً إلى أن الخصائص الوراثية الكافية فى جراثيم النبات والحيوان والإنسان تحافظ على فطرتها ولا تتغير حقيقتها بالبيئة أو الغذاء .

لماذا كان العلماء أحق الناس بخشية الله ؟

وأحق الناس بخشية الله هم العلماء الذين عرفوا أسرار اختلاف هذه الموجودات وقوله تعالى (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ) تكملة لقوله تعالى (إنَّما تنذر الذين يخشون رَبَّهم ...)(١) فى الآيات السابقة ففيها تعيين من يخشاه عز وجل من الناس بعد تباين اختلاف طبقاتهم وتباين مراتبهم — والمعنى إنما يخشاه تعالى بالغيب العالمون به عز وجل ، وبما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الجميلة ، لما أن مدار الخشية معرفة المخشى والعلم بشئونه ، فمن كان أعلم به تعالى كان أخشى منه عز وجل كما قال عليه الصلاة والسلام (أنا أخشاكم لله وأتقاكم له) . ولذلك عقب الله سبحانه وتعالى بعد ذلك بذكر أفعاله الدالة على كمال قدرته وحيث كان الكفرة بمعزل من هذه المعرفة امتنع انذارهم.

---

(١) الآية ١٨ من سورة فاطر.

هذا وقد قرئ : (إنّما يَخشى اللهُ من عبادِه العُلماءَ) برفع اسم الله الأعظم ، ونصب العلماء — على أن الخشية مستعارة للتعظيم ، فإن المعظم يكون مهيباً

العلم بدقائق الطبيعة وأثره فى زيادة الايمان :

وكلما دق علم الانسان بالطبيعة ومظاهرها كلما ازداد إيماناً بالله وعظم تقواه فقد أثبت العلم الحديث أن كل الموجودات تسير بحكم تكوينها وما يجرى عليها من تطورات مختلفة وفق نظام دقيق ثابت لا يقدر عليه إلا خالق قدير مبدع .

فمن حيث التكوين فقد تبين أن جميع هذه الموجودات والمخلوقات على اختلاف أشكالها وتباين صورها تتألف من اتحاد عناصر محدودة العدد — إذ يبلغ عددها قرابة المائة عنصر منها ست وتسعون معروفة حتى الآن ، وهى تتدرج فى صفاتها الطبيعية والكيماوية وأوزانها الذرية ، وتبدأ بالعنصر رقم (١) وهو الايدروجين ووزنه الذرى (١) وتنتهى حتى الآن بالعنصر رقم (٩٦) وهو عنصر اليوريوم ووزنه الذرى غير معلوم وآخر عنصر علم وزنه الذرى هو اليورانيوم ويبلغ وزنه الذرى (٢٣٨,٥٧) ، وتسير هذه العناصر فى اتحادها لتكوين المركبات حسب قوانين ثابتة لا تحيد عنها ، وكذلك النبات والحيوان فإن كلا منها ينقسم الى أسر وفصائل وأنواع تتدرج صفاتها فى مدارج الرقى من الكائنات الحية ذات الخلية الواحدة مثل الميكروبات الى كائنات متعددة الخلايا الى الانسان وهو أكملها — ولكل من هذه الأنواع صفات خاصة تتوارث فيما بينها جيلا بعد جيل ، وكل هذا يسير تبعا لقوانين ونظم ثابتة دقيقة تنبىء بجلاء ووضوح عن عظمة الخالق وقدرته

ومفاتيح العلم فى الإسلام واضحة صريحة لا عوج فيها ، فالقرآن الكريم يدعو الى العلم والسير والنظر — والقرآن نفسه مشتق من القراءة وهى أدنى مفاتيح العلم لبنى الإنسان .

نعمة العلم :

والأمر فى كلمة (اقرأ) من قوله تعالى (اقْرأ باسم ربّك الذى خلق) (١)

---

(١) أول سورة العلق .

فيها توجيه ملزم لكل مسلم ومسلمة فى كل زمان ومكان وأول سورة نزلت هى سورة (العَلَقْ) ومن العلق خلق الإنسان - والسورة التالية لها فى النزول سورة (القَلَمْ) وبالقلم يكتب ويتعلم الإنسان - فانسانية الإنسان لا تكون إلا بالخلق والعلم (الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرآنَ خَلَقَ الإِنْسانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)(١)

ولهذا أقسم الله بالقلم فى قوله تعالى (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)(٢).

والحلف بالقلم - هو حلف بأعظم نعمة أنعم الله بها على نوع الإنسان بعد نعمة النطق — والبيان ونعمة النطق مازته عن العجماوات — ونعمة القلم نشرت بين أفراده أنواع الشرائع وحقائق المعلومات فلو لا القلم لم يقم دين ولا كان عمران — وإذا أردت أن تقيس حالة جماعات البشر من حيث الرقى فى معارج المدنية فلا مقياس أدق من انتشار فن الكتابة فيهم فهو الذى يحدد درجة كل شعب من الحياة الاجتماعية و يضعه موضعه اللائق فى مصافّ الأمم الحية .

وليس المراد من القلم فى الآية الأداة المعروفة من حيث ذاتها بل من حيث عملها والأثر الذى ينشأ عنها — أعنى نقل الأفكار والمعانى من نفس شخص إلى نفس شخص آخر — يدل على هذا قوله تعالى (وَمَا يَسْطُرُونَ) كأنه يقول: أحلف بالقلم وبالتسطير الذى يفعله الكاتبون (فما) هنا مصدرية — فالله سبحانه وتعالى يحلف بفنّ الكتابة التى تعددت وسائطها وكان منها القلم وآلات الطباعة وسائر أدوات الكتابة — ولا نزاع فى أن هذه المدنية العبقرية والعمران العجيب الذى توصلت إليه الأمم فى عصرنا الحاضر إنما هو نتيجة من نتائج فن الطباعة. واذكر قول رسولنا الكريم « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين وانما أنا قاسم والله معطى — ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لايضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله » والمعنى أقسم بينكم تبليغ الوحى من غير تخصيص والله يعطى كل واحد منكم من الفهم على قدر ما تعلقت بإرادته تعالى وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء

---

(١) أول سورة الرحمن

(٢) أول سورة القلم

ويقول فى شأن طالب العلم « أرحموا طالب العلم فإنه متعوب البدن — لولا أنه يأخذ بالعجب لصافحته الملائكة معاينة ولكن يأخذ بالعجب ويريد أن يقهر من هو أعلم منه » وعن عبد الله بن عمرو « أن الله لاينزع العلم بعد أن أعطاكموه انتزاعاً ولكن ينتزعه منكم مع قبض العلماء بعلمهم فيبقى ناس جهال يُستفتون فيفتون برأيهم فيُضلون ويَضلون » .

وإذا رجعنا إلى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم مصابيح الهداية وجدناهم مع صدق تقواهم يحرصون كل الحرص على الدراسة المستمرة للعلم ويجالسون الرسول صلوات الله عليه لينهلوا منه مايشاءون ويناقشونه فى كل شىء ليتزودوا من المعرفة ولم تعرض لهم مسألة إلا وسألوه عنها .

ولقد كان على (رضى الله عنه) المسلم حق المسلم — فى عبادته وفى علمه وعمله . وفى قلبه وعقله — حتى ليصح أن يقال إنه طبع على الاسلام — فلم تزده المعرفة إلا مايزيده التعليم على الطباع .

وأحسن الاسلام علماً وفقها كما أحسنه عبادة وعملاً فكانت فتاواه مرجعاً للخلفاء والصحابة فى عهود أبى بكر وعمر وعثمان وندرت مسألة من مسائل الشريعة لم يكن له رأى فيها يؤخذ به أو تنهض له الحجة بين أفضل الآراء .

إلا أن المزية التى امتاز بها علىّ بين فقهاء الاسلام فى عصره أنه جعل الدين موضوعاً من موضوعات التفكير والتأمل ولم يقصره على العبادة وإجراء الأحكام

كان يتتلمذ للقرآن الكريم ويستوحيه نصاً فى عرفان إسلامه وتقرير إيمانه — فكانت نظرته الى الخلق والخالق نظرة قرآنية وقد أوصى ابنه الحسن وقد بلغ الستين فقال « . . . اعلم يابنى أن أحب ما أنت آخذ به إلى من وصيتى تقوى الله والاقتصار على مافرضه الله عليك والأخذ بما مضى عليه الأولون من آبائك والصالحون من أهل بيتك فإنهم لم يدعوا أن نظروا الى أنفسهم كما أنت ناظر وفكروا كما أنت مفكر . . . فان أبت نفسك أن تقبل ذلك دون أن تعلم كما علموا فليكن طلبك ذلك بتفهم وتعلم . . »(١)

---

(١) عبقرية الامام على للعقاد .

تنوع معنى التقوى :

فإذا رجعنا الى الآيات الكريمة التى ترشد الى التقوى وجدناها كثيرة ومتعددة الجوانب — وتشير كل آية إلى وجوب التقوى فى كل أمر ذكر معها وبهذا يتنوع معنى التقوى تبعا لتنوع المواقف المتعددة كما سنوضحه فيما بعد .

فالآية التى صدرنا بها هذا الموضوع « . . . واتَّقُوا الله ويُعَلِّمُكُمُ الله والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » هى آية ذكرت فى المعاملات المالية وأوضحت حال المداينة الواقعة فى تضاعيف المعاوضات الجارية بين الناس ببيع السلع بالنقود.

فذيلت الآية بهذه الخاتمة (واتقوا الله) فى مخالفة أوامره ونواهيه التى من جملتها نهيه عن المضارة — (ويعلمكم الله أحكامه المتضمنة لمصالحكم (والله بكل شىء عليم) فلا يكاد يخفى عليه حالكم وهو مجازيكم بذلك — وقد كرر لفظ الجلالة فى الجمل الثلاثة لإدخال الروعة وتربية المهابة وللتنبيه على استقلال كل منها بمعنى على حياله فان الأولى حث على التقوى — والثانية وعد بالإنعام والثالثة تعظيم لشأنه تعالى) اه تفسير أبى السعود وسنفرد للتقوى فى القرآن وتعدد المراد بالتقوى موضوعا خاصاً)، وعلى هذا فلا يعقل أن يكون المتصف بكل صفات التقوى يتواكل ويقعد عن طلب العلم اعتماداً على التقوى وانتظاراً لالهام الله له فى كل موضوع علمى يتطلب البحث والتمحيص دون إعمال الفكر ودقة البحث والتأمل — فالآيات والأحاديث توجب مواصلة البحث وتحث على طلب العلم — فقد كان الرسول صلوات الله عليه يعقد حلقات العلم فى مسجده ويلقى الصحابة دروسا عديدة فى كل ما يتعلق بأمور الدنيا والدين — وكان يعتمد على التجربة والخبرة بشئون الحياة فى الأمور الدنيوية كما حدث فى مسألة تأبير النخل

فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم أخبرهم أن النخل لو ترك دون تلقيح كما كانوا يفعلون لنضج ثماره — فلما توقفوا عن تأبيره — وجاء موعد جنى الثمار لم يجدوا البلح ناضجا كما ألفوا — ولما أخبروا الرسول بذلك أمرهم بتأبير النخل وقال لهم « أنتم أعلم بشئون دنياكم »

ولو تواكل المتقون اكتفاء بالتقوى، لما كان هناك اهتمام بالعلم والتعليم ولا انقسم المسلمون المثقفون الى فريقين - فريق اكتفى بالتقوى وأهمل العلم ونبذ العلماء - وفريق آخر اهتم بدراسة العلم فدقق وبحث الى أن وصل الى كشف الحقائق فآمن بقدرة الخالق، ولم يعزل نفسه عن مجال العلم اكتفاء بتقواه، وبذلك تتفتح أبواب الصراع بين أفراد الامة الاسلامية باسم الدين — والدين من الصراع والشقاق براء

وإذا استرجعنا أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وجدناها تحث على طلب العلم ومداومة الاهتمام بطلب المزيد منه — وعلينا أن نتذكر دائما قول الرسول صلوات الله عليه « لايزال الرجل عالما ماطلب العلم فاذا ظن أنه قد علم فقد جهل »

ودخل رجل على عبد الملك بن مروان وكان لايسأل عن شيء إلا وجد عنده منه علما — فقال له يوما أنّى لك هذا ؟ فقال لم أمنع قط، يا أمير المؤمنين، علما أفيده غيرى ولم أحتقر علما أستفيده لنفسى وكنت إذا لقيت الرجل أخذت منه وأعطيته (١).



(١) انتهى توضيح ما سبق [illegible] صحة الاخبار، وقد أشرت إلى ذلك فى هامش صفحة ٦١ .

التقوى فى القرآن

« ذَلِكَ الكِتابُ لا رَيْبَ فيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ » (١) .

القرآن كتاب الله وحباه المتين من تمسك به هدى ومن عمل به رشد ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبداً كتاب الله وسنتى »

جمع بين العقيدة والشريعة — عبر عن العقيدة بالإيمان وعن الشريعة بالعمل « إنَّ الذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ كانتْ لَهُمْ جَنّاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلاً » (٢) .

وقد أنزله الله كتاباً متشابها مثانى تقشعر منه الجلود وتكاد الرواسى لهيبته تمور — ويعجز عن الإتيان بمثله جميع المخلوقات « قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ والجِنُّ على أنْ يأتوا بِمِثْلِ هَذا القُرآنِ لا يأتونَ بِمِثْلِهِ ولَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » (٣) .

وقد نزل القرآن على الرسول صلوات الله عليه ، على فترة من الرسل ليرشد الأمة الى أقوم السبل فهداهم إلى الحق وهم فى ضلال مبين .

لقد أوضح القرآن الأساليب التى اتخذها سبيلا للدعوة وهى الارشاد إلى النظر والتدبر فى ملكوت السموات والأرض وما فيها للتعرف على أسرار الله فى كونه وابداعه فى خلقه فتمتلىء القلوب إيمانا بوجود الله وبوحدانيته ثم يورد القرآن الكثير من قصص الأولين للعظة والاعتبار ويوقظ الشعور الباطنى فى

---

(١) أول سورة البقرة (٢) الاية ١٠٧ من سورة الكهف

(٣) الاية ٨٨ من سورة الاسراء

الإنسان لبندفع بوحي هذا الشعور إلى التساؤل عن مبدئه ومادته ومصيره فيصل بذلك الى الاعتراف بالخالق وتلك هي «فِطْرَةَ الله التي فَطَرَ النَّاس عَلَيْها» (١)

وقد إتخذ القرآن في الدعوة الى مقاصده أسلوب الانذار والتبشير أو الوعد والوعيد .

المعجزة الخالدة :

فالقرآن بحق معجزة الاسلام الخالدة ففيه من أوجه الاعجاز الكثير من فصاحة ألفاظه وحسن تأليفها وبلاغة أساليبه «كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» (٢) .

وفيه أخبار بوقائع ماضية وليس لأحد علم بها وفيه وقائع مستقبله لم تكن وقعت حين نزوله وتحققت بعد ذلك وفي الآيات الكريمة ما يوضح ذلك كله «تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الغَيْبِ نوحيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلُ هَذا فاصْبِرْ إِنَّ العاقِبَةَ لِلمتقين» (٣) . وفيما وقع بعد ذلك قوله تعالى «غُلِبَتِ الرُّومُ – في أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ – في بضع سِنِينَ لله الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ ومِن بَعْدُ ويَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنون – بنصرِ الله يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَهو العَزِيز الرحيمُ» (٤) .

وله قوته الروحية وشدة تأثير في النفوس فاذا قرأه قارىء وفكر فيه وتذوق ما يقرأ اقشعر بدنه وذرف الدمع رهبة وخشية.

ومن منا لايتأثر ويخشع حينما يسمع صوت من في القبور — صوت الشيخ محمد رفعت ؟ !

(١) الآية ٣٠ من سورة الروم
(٢) أول سورة هود
(٣) الآية ٤٩ من سورة هود
(٤) الآيات ٢ — ٥ من سورة الروم

إذا قرأ خشعت له القلوب وأنصتت له الأسماع واهتزت له الأفئدة — وهكذا شأن من يستمع إلى من يرتل القرآن الترتيل المؤثر — عملا بقوله تعالى « وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (١)».

وقد ذكرت كتب التاريخ أن الامام الشافعى حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين — وفى المسجد الحرام كان الناس يجتمعون حوله كلما بدأ القراءة لنفسه فهم ينصتون إليه ويبكون مما يبلغه صوته وفهمه من العظة فى قلوبهم .

هذا التأثير فى النفوس صوره القرآن الكريم أبلغ تصوير فقال:

« اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ »(٢):

وصف رسول الله للقرآن الكريم :

وقد قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه على رضى الله عنه « ستكون فتن كقطع الليل المظلم فقلت — وما المخرج منها يارسول الله ؟ قال — كتاب الله ، فيه نبأ ماقبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم مابينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لاتزيغ به الاهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا : « إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا — يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا » ٣).

من قال به صدق ومن حكم به عدل ومن عمل به أجر ومن دعا إليه هدى

---

(١) الآية ٤ من سورة المزمل .

(٢) الآية ٢٣ من سورة الزمر (٣) أول سورة الجن

إلى صراط مستقيم ، ولقد حوى القرآن الكريم الكثير من آيات العقيدة وآيات الاقتصاد والمعاملات الدينية وآيات الأحوال الشخصية والميراث وآيات الجنايات وآيات الحدود، وآيات المعاهدات، وآيات الدفاع العام ، وآيات الحكم والقضاء ، وآيات الأخلاق — وغير ذلك كثير .

فأي كتاب أشمل من هذا الكتاب يتخذه المسلمون دستوراً لهم في حياتهم ومعاملاتهم ؟

« وأنزلنا إليكَ الكتابَ بالحقِّ مُصدِّقاً لما بينَ يديهِ منَ الكتابِ ومُهيمناً عليهِ فاحكُم بينهُم بما أنزلَ اللهُ ولا تتبعْ أهواءَهُم عمَّا جاءكَ منَ الحقِّ لكلٍّ جعلنا منكُم شرعةً ومنهاجاً ولو شاءَ اللهُ لجعلَكُم أمةً واحدةً ولكن ليَبلُوَكُم في ما آتاكُم فاستَبِقوا الخيراتِ إلى اللهِ مرجعُكُم جميعاً فيُنبِّئُكُم بما كُنتُم فيهِ تختلفون » (١).

ثم هو يفرض عليهم من أنواع العبادة ما يطهر نفوسهم ويزكي قلوبهم ويحضر في ضمائرهم حب الله والاخلاص له وخوف الله والإشفاق منه ويبين لهم ألا سبيل الى أن يستخفوا من الله بكبيرة أو صغيرة فهو يسمع كل شيء ويرى كل شيء ويعلم كل شيء وهو معهم حين يجتمعون

« ألم تر أنَّ اللهَ يعلمُ ما في السمواتِ وما في الأرضِ ، ما يكونُ من نجوى ثلاثةٍ إلاَّ هوَ رابعُهُم ولا خمسةٍ إلاَّ هو سادسُهُم ولا أدنى من ذلكَ ولا أكثرَ إلاَّ هو معَهُم أينَ ما كانوا ثمَّ يُنبِّئُهُم بما عمِلوا يومَ القيامةِ إنَّ اللهَ بكلِّ شيءٍ عليمٌ »(٢) — وهو عليم بذات الصدور يعلم ما يثور في قلب الانسان من عواطف ، وما يخطر في الضمير من خير أو شر،

---

(١) الآية ٤٨ من سورة المائدة (٢) الآية ٧ من سورة المجادلة

ويحصى كل عمل يقدم عليه الانسان وكل ماتحدثه به نفسه « ولقد خلقنا الإنسانَ ونعلمُ ما توسوسُ به نفسُه ونحنُ أقربُ إليه من حبلِ الوريدِ » (١) .

وهو يسجل ذلك كله فى كتاب يعرض على صاحبه يوم الحساب فيجزيه الله بما قدم من أعمال إن خيراً فخير وإن شراً فشر « وكلَّ إنسانٍ ألزمناه طائرَه فى عنقِه ونخرجُ له يومَ القيامةِ كتاباً يلقاه منشوراً — اقرأ كتابك كفى بنفسِك اليوم عليك حسيباً » ٢ .

وأخص مزايا القرآن : أن الذين يقرءونه أو يسمعونه دون أن يؤمنوا به يكذبون على أنفسهم — فقلوبهم خاشعة وأذواقهم راضية وعقولهم هى المعارضة المكذبة فهم حين يقرءونه أو يسمعونه يناقضون أنفسهم — يظهرون الإباء ويضمرون الاستجابة — قد اختلفت قلوبهم وألسنتهم ووجوههم — فقلوبهم تذعن، وألسنتهم تنكر، ووجوههم تعرض، إلا أن يطبع الله على قلوبهم ويطمس على عقولهم ويجعل فى آذانهم وقرا .

وقد لمست هذا الأثر عن قرب مع أحد أولئك الذين لايؤمنون بمحمد صلوات الله عليه — فحينما يحين موعد إذاعة القرآن الكريم يسرع الى مذياعه فيفتحه وينصت لما يتلى ويظهر عليه أثر الاعجاب — ولم يستطع كتمان ما يشعر به — ففى حوار معه تفوه بما يخفيه فى نفسه ويقول إن أكثر المقرئين تأثيرا فى نفسى (هو الشيخ محمد رفعت) — إذا سمعت صوته خشعت — بل وفى بعض المواقف يشتد البكاء — وهكذا يتجلى جمال القرآن وعظمته وبلاغته وقد روى عن ابن حبان فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى عن أسيد بن حضير رضى الله عنه قال : بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوط عنده إذ جالت الفرس فسكت فسكنت — فقرأ فجالت الفرس فسكت وسكنت الفرس ثم قرأ فجالت الفرس —

---

(١) الاية ١٦ من سوره ق (٢) الآيتان ١٣، ١٤ من سورة الاسراء

فانصرف وكان ابنه يحي قريبا منها فأشفق أن تصيبه . فلما اجتره رفع رأسه الى السماء فإذا هو بمثل الظلة فيها أمثال المصابيح عرجت الى السماء حتى ما يراها — فلما أصبح حدث النبي صلى الله عليه وسلم فقال له « اقرأ يا ابن حضير — اقرأ يا ابن حضير » قال فأشفقت يارسول الله أن تطأ يحي وكان منها قريبا فانصرفت إليه فرفعت رأسي الى السماء فاذا مثل الظله فيها أمثال المصابيح فعرجت حتى لا أراها — قال — وما تدرى ما ذلك ؟

قال : لا — قال : « تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم » هكذا تنزل الملائكة لسماع القرآن الكريم حبا فيه وتعظيما له .

وهذا ماروى عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلا نزلت عليهم السكينه وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده » والسكينة : الطمأنينة والوقار والقبول .

منزلة صاحب القرآن : ويبين الرسول صلى الله عليه وسلم منزلة صاحب القرآن يوم القيامة فى حديثه الذى رواه أبو هريرة رضى الله عنه فيقول « يجىء صاحب القرآن يوم القيامة فيقول القرآن : يارب حلّه — أى ألبسه حلة — فيلبس تاج الكرامة ثم يقول يارب زده . فيلبس حلة الكرامة . ثم يقول يارب ارض عنه فيرضى عنه . فيقال له : اقرأ وارق ويزداد بكل آية حسنة » فما أعظم هذه المنزلة ! ولو علمها الناس ماتركوا القرآن لحظة واحدة ولحرصوا على قراءته كل الحرص وحسب القارىء للقرآن هذه المنزلة التى حدثنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لا يوحى إليه — لا ينبغى لصاحب القرآن أن يجد مع من وجد ولا يجهل مع من جهل وفى جوفه كلام الله » (يجد : يغضب ويشتم ويذم)

وقد سئلت السيدة عائشة رضى الله عنها عن أخلاق الرسول فقالت « كان خلقه القرآن » ولهذا امتدحه رب العزة فقال له « وإنك لعلى خلق عظيم » .

فلم يكن فظاً مع أحد — ولو كان كذلك لتفرق الناس عنه وانفضوا من حوله، قال تعالى: «ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك» (١) .

الأمر بتلاوة القرآن : (٢)

وقد أمر الله الرسول صلى الله عليه وسلم بتلاوة القرآن — وهو قدوة لنا وكل ما يؤمر به فهو موجه الى أمته وفى الآيات التالية حث على التلاوة قال تعالى «إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شىء وأمرت أن أكون من المسلمين — وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين (٣).

تلازم تام بين أمور ثلاثه يتحقق بها الهداية و لرشد وهى :

عبادة الله الذى له كل ما فى هذا الكون خلقا وملكا ، والثبات على ملة الاسلام مع الانقياد التام لها ، والمواظبة على تلاوة القرآن عبادة وتدبرا

وفى تلاوة القرآن تكشف للحقائق الربانية وتوضيح لأهداف الرسالة المحمدية وتوثق الصلة بين العبد وربه .

فما أجمل أن يتحدث العبد مع الله ، ويتحدث معه الله ، ولا تتحقق هذه المناجاة الإبقراءة القرآن — فقد قال أحد المتصوفه : (إذا أردت أن أناجى ربى دخلت الصلاة — وإذا أردت أن يناجينى ربى قرأت القرآن).

ولهذا فقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بقراءة القرآن فى أكثر من موضع فقال (فاقرءوا ما تيسر من القرآن) — وفى موقف توضيح أجر القارىء يقول (إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور — ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور ، (٤) .

---

(١) الاية ١٥٩ من سورة آل عمران (٢) هذا الموضوع نشر بجريدة الأخبار

(٣) الآيتان ٩١-٩٢ من سورة النمل (٤) الآيتان ٢٩، ٣٠ من سورة فاطر

وتلاوة القرآن لابد فيها من الترتيل والتمهل ليكون ذلك عونا على فهم القرآن وتدبره وكذلك كان يقرأ النبي صلى الله عليه وسلم، عملاً بقول الله تعالى :

« ورتِّل القُرآنَ ترتيلا، (١) .

فالقراءة لابد فيها من التدبر والتفهم ليتحقق الغرض منها « كِتابٌ أنزلناهُ إليك مُباركٌ ليدَّبَّروا آياتِه وليتذكَّر أولوا الألباب »(٢).

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم — إن هذا القرآن هو حبل الله المتين والنور المبين والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه لا يعوجّ فيقوم ولا يزيغ فيُستعتب، ولا تنقضى عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات — أما أنى لا أقول (ألم) حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف) والأحاديث فى فضل تلاوة القرآن كثيرة وكلها تبين منزلة القارىء .

فقد روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة »

وروى الطبرانى عن جابر بن عبدالله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ القرآن أوجمع القرآن كانت له عند الله دعوة مستجابة إن شاء عجلها له فى الدنيا وإن شاء ادخرها له فى الآخرة »

هذا ويجب الاهتمام بمعانى القرآن ومعرفة المراد من الآيات وفهم دلالاتها ليكون القارىء على هذا النحو فقيها بكتاب الله — وقد قال الضحاك فى قوله تعالى « وكونوا ربَّانيّين بما كنتُم تعلّمون الكتاب » (٣) قال حق لى كل من تعلم القرآن أن يكون فقيها .

---

(١) الآية ٤ من سورة المزمل (٢) الآية ٢٩ من سورة ص

(٣) الآية ٧٩ من سورة آل عمران .

وذكر ابن أبي الحوارى قال : أتينا الفضيل بن عياض سنة خمس وثمانين ومائة — ونحن جماعة فوقفنا على الباب فلم يأذن لنا بالدخول — فقال بعض القوم — إن كان خارجا لشيء فسيخرج لتلاوة القرآن فأمرنا قارئاً يقرأ — فطلع علينا من كوة فقلنا السلام عليك ورحمة الله — فقال وعليكم السلام — فقلنا : كيف أنت ياأبا على ؟وكيف حالك ؟ قال أنا من الله فى عافية ومنكم فى أذى وان ماأنتم فيه حدث فى الاسلام — فإنا لله وإنا اليه راجعون — ماهكذا كنا نطلب العلم — ولكنا كنا نأتى المشيخة فلا نرى أنفسنا أهلا للجلوس معهم،فنجلس دونهم نسترق السمع، فإذا مر الحديث سألناهم إعادته وقيدناه ، وأنتم تطلبون العلم بالجهل ، وقد ضيعتم كتاب الله ، ولوطلبتم كتاب الله لوجدتم فيه شفاء لما تريدون ، قال : قلنا قد تعلمنا القرآن — قال إن فى تعلمكم القرآن شغلا لأعماركم وأعمار أولادكم - قلنا كيف ياأبا على ؟ قال لن تعلموا القرآن حتى تعرفوا إعرابه ومحكمه من متشابهه وناسخه من منسوخه، فاذا عرفتم ذلك استغنيتم عن كلام فضيل وابن عيينة ، اه

هكذا كان المسلمون الأول يهتمون بدراسة القرآن دراسة وافية ويعلمون أنه كتاب عقيدة يخاطب الضمير وخير ما يطلب من كتاب العقيدة فى مجال العلم أن يحث على التفكير ولا يتضمن حكما من الأحكام يشل حركة العقل فى تفكيره أو يحول بينه وبين الاستزادة من العلوم.

والقرآن قدحث على النظر الصحيح إلى آيات خلق الله فهى وسيلة من وسائل الإيمان بالله قال تعالى: «إنَّ فى خلقِ السَّموات والأرضِ واختلاف اللَّيل والنَّهار لآيات لأولى الألباب - الَّذين يذكُرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكَّرون فى خلقِ السَّموات والأرضِ ربَّنا ما خلقتَ هذا باطلاً سُبحانك فقنا عذابَ النَّارِ »(١).

وقد روى عن عبيد بن عمير أنه قال لعائشة رضى الله عنها أخبرينا بأعجب شىء

---

(١) الآيتان ١٩٠ ، ١٩١ من سورة آل عمران

رأيتيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فسكتت — ثم قالت : لما كانت ليلة من الليالى قال ياعائشة ذرنى أتعبد الليلة لربى — قلت والله إنى أحب قربك وأحب مايسرك — قالت فقام وتطهر ثم قام يصلى — : فلم يزل يبكى حتى بلّ حجره قالت وكان جالسا فلم يزل يبكى صلى الله عليه وسلم حتى بل لحيته — قالت ثم بكى حتى بلّ الأرض فجاء بلال يؤذنه بالصلاة فلما رآه يبكى قال : يارسول الله تبكى، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟! — قال (أفلا أكون عبداً شكوراً ؟! . لقد أنزلت على الليلة آية — ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها — « إنّ فى خلق السموات والأرض .... » وكثيراً ما نجد فى كتاب الله ما يدفع إلى الخشوع والتأمل والخشية والرهبة .

ومما يحث على ذلك ما أخرجه الترمذى عن جابر رضى الله عنه قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها الى آخرها فسكتوا — فقال : « لقد قرأتها على الجنّ فكانوا أحسن منكم ردّا — كلما أتيت على قوله « فبأىّ آلاءِ ربّكما تكذّبانِ » قالوا ولا بشىء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد »

وفى هذا مايشير إلى وجوب التأمل فيما يقرأ القارىء أو يسمعه السامع فاذا ماتعمق فى فهم مايقرأ شعر بقوة التوجيه وروعة البيان وحسن الارشاد واستساغ المعانى التى تنطوى عليه الآيات والأهداف التى تهدف إليها فتتحقق الاستجابة والطاعة وتلك هى الرسالة القرآنية — وقد نبّه القرآن كثيرا على أوصاف المتقين الذين ضمن لهم عز الدنيا وسعادة الآخرة فعلينا أن نتدبرها لنعرف كيف تتكون التقوى فى النفوس وكيف تبدو آثارها فى نفع البلاد والعباد.

أما من استمع القرآن فلم يؤمن به ولم يتدبر آياته ولم يعمل بما يسمع ولم يتعظ به — فهو أفاك أثيم — وقد وصفه الله بهذا الوصف فى قوله تعالى

(ويلٌ لكلّ أفاكٍ أثيمٍ — يَسمعُ آياتِ الله تُتلى عليهِ ثم يُصرُّ مستكبِراً كأنْ لمْ يسمعْها فبشّرهُ بعذابٍ أليمٍ — وإذا علمَ منْ آياتنا شيئاً اتخذَها هزُواً أولئكَ لهمْ عذابٌ مُهينٌ — منْ ورائِهم جهنّمُ ولا يُغنى عنهُمْ ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دُونِ اللهِ أولياءَ ولهم عذابٌ عظيمٌ) (١)

---

(١) الآيات ٧ — ١٠ من سورة الجاثية

وقد فسّر النسفى هذه الآية فقال : الهلاك لكل كذاب متبالغ فى اقتراف الآثام يسمع آيات الله ثم يقبل على كفره ويقيم عليه مستكبرا عن الإيمان بالآيات والاذعان لما تنطق به من الحق مزدرياً لها معجبا بما عنده — والآية عامة فى كل من كان مضاراً لدين الله — وجىء بثم لأن الإصرار على الضلالة والإستكبار عن الإيمان عند سماع آيات القرآن مستبعد فى العقول .

تفسير القرآن : —

هذا ويجب ملاحظة عدم التخبط فى تفسير القرآن الكريم — وليس غريبا على القرآن أن يكثر النظر فيه وأن تتوارد العقول عليه وأن يتداعى عليه الناس من مؤمنين وغير مؤمنين — ولا يكاد يمر يوم إلا طلع على المسلمين من يحدثهم عن القرآن مدافعاً أو مهاجما محسنا أو مسيئا — والقرآن الكريم فى سماواته العلا لا يرفعه مدح المادحين ولا يخفض مقامه لهو اللاهين أو ضلال الضالين — فكم تداعى على القرآن الكريم من تأويلات فاسدة مضللة تلبس أثوابا من الزور والبهتان مختلفة الألوان والأصباغ بما يُدّعى على القرآن بأن له ظاهراً وباطنا — وأن هذا الظاهر هو خطاب الله للعامة وأما الباطن فهو خطابه سبحانه لأهل الولاية والكشف ولأهل العصمة من الأئمة .

وفى أعماق هذا الباطن الذى لا حدود له ولا ميزان يضبط عليه — تغايرت معانى القرآن — فاذا الإيمان كفر ، وإذا الهدى ضلال ، وإذا الجنة نار ، والنار جنة — إذ لا حرج على هؤلاء الغائصين فى الأعماق أن يقولوا أى قول لأنهم يتحدثون عن عالم مجهول لم يره أحد غيرهم، بل إن أحدهم لا يرى غيره فى هذا المكان السحيق الذى لا معالم له ولا حدود .

وحسَن بل واجب أن ينظر المسلم فى كتاب الله وأن يتدبر آياته كما يقول سبحانه « كتابٌ أنزلناه إليك مُباركٌ ليدَّبَّروا آياته وليتذكَّر أولوا الألباب » (١) .

(١) الآية ٢٩ من سورة ص

ولكن ليس بالحسن — بل من المأثم — أن يدخل المسلم إلى حمى القرآن وفي خاطره وهم أو يريد أن يجعل من القرآن شاهداً له ودليلا عليه فيقلب حقائق القرآن حتى تتطابق مع أوهامه وتتلاقى مع تصوراته وقد يخرج بتفسيره الخاطىء عما يريده الله ، وهذا هو الضلال والإثم .

فضل قراءة القرآن :

وقد ورد في فضل قراءة القرآن ما رواه أبو سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «يقول الرب تبارك وتعالى من شغله قراءة القرآن عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » — وعن عطية بن قيس التابعى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما تكلم العباد بكلام أحب إلى الله تعالى من كلامه وما تقرب إلى الله عز وجل بأحب إليه من كلامه » .

فالقرآن في جملته هداية عامة للناس ومعجزة إلهية تثبت بنفسها أن هذا القرآن ليس من صنع أحد من البشر وليس هو من إنشاء محمد وابتكاره وليس هو من ثمرات عبقريته وذكائه وإنما هو كلام الله ووحيه جمله حجة ساطعة لمحمد صلى الله عليه وسلم ودليلا باقيا على صدقه في دعواه أنه رسول الله إلى الناس لينقذهم من الشرك والضلال والزيغ والانحراف وليقضى على ما كانوا عليه من قبيح العادات وسوء التعصبات ذلك شيء من هداية القرآن في جملته .

وهو في تفصيله آيات بينات ودلائل واضحات في باب الهدى والإرشاد والتفرقة بين الحق والباطل يبين الحق ويوضح دلائله ويفصّل آثاره وثمراته داعيا إليه آمراً باتباعه والتمسك بأهدابه ويكشف عن الباطل ومساويه — ناهياً عنه محذراً من مفاسده وأضراره .

وهذا ما سنذكره ونفصله في الموضوعات التالية — نقتبس من القرآن الكريم مجالات التقوى في الدعوة إلى الله والإيمان بوحدانيته على لسان أنبيائه ورسله — ثم مجالات التقوى في العبادة التي شرعها الله وذكرها في آياته وأوضحها إمام المتقين وخاتم النبيين ورسول رب العالمين إلى الخلق أجمعين .

جمع القرآن
وترتيب الآيات والسور

جمع القرآن :

لقد مات النبى صلى الله عليه وسلم والقرآن غير مجموع فى موضع واحد ولم يكن مرتب السور على الشكل الذى نراه الآن — بل كان مفرقا فى صدور الرجال وفيما كتب منه على العُسُب واللخاف ونحوها ولم يكن لذلك اسم المصحف الذى سمى به بعد جمعه — وقد قال الخطابى فى سبب ذلك : إنما لم يجمع صلى الله عليه وسلم القرآن فى المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته .

فلما كانت وقعة اليمامة فى خلافة أبى بكر أتاه عمر — فقال له : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن وانى أخشى أن يستحر القتال بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن — وقال أبو بكر كيف تفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم — فقال عمر هو والله خير — ولم يزل يراجعه حتى شرح الله صدره لذلك — وأحضر زيد بن ثابت فقال له : قد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن واجمعه — ففعل ذلك وجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال فى صحف — وأخذ الصحف التى جمعها فأعطاها أبا بكر فكانت عنده حتى توفاه الله — ثم عند عمر حياته — ثم عند حفصة بنت عمر — وقد التمروا ما يسمون ذلك ؟ فقال بعضهم : سموه السفر فرُدّ عليه بأن هذا تسميه اليهود فكرهوه وقال بعضهم رأيت مثله بالحبشة يسمى المصحف — فاجتمع رأيهم على أن يسموه المصحف وكان هذا أول تجديد فى ترتيب المصحف وتسميته .

ترتيب الآيات والسور :

وقع ذلك بتوقيف النبي صلى الله عليه وسلم وأمره — ولاخلاف في هذا بين المسلمين — فقد كان يلقن أصحابه ويعلمهم ما نزل عليه من القرآن — وذلك بتوقيف جبريل إياه — لأنه كان يبين له عند نزول كل آية أنها تكتب عقب آية كذا في سورة كذا — وما فعله الصحابة في عهد أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما كان في جمعه في موضع واحد لا في ترتيبه — لأنه كان قبل جمعهم له مفرقا في العسب واللخاف والرقاع وصدور الرجال ، وأحيانا في الحرير وقطع الأديم والأكتاف .

وقد وردت نصوص كثيرة صريحة في أن ترتيب الآيات كان بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن ذلك ماروى عن ابن عباس أنه قال : قلت لعثمان ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر — بسم الله الرحمن الرحيم — ووضعتموها في السبع الطوال ؟ فقال عثمان: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزل عليه السورة ذات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب، فيقول — ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا — وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، فظننت أنها منها ، فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر — بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتها في السبع الطوال .

وقد يشكل على ذلك ماروى عن الزبير بن العوام ان الحارث بن خزيمة أتى بها تين الآيتين من آخر سورة براءة (لقد جاءكم رسول — الى آخر السورة) فقال : أشهد أني سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ووعيتها .

فقال عمر : وأنا أشهد لقد سمعتهما ، ثم قال · لوكانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة، فانظروا آخر سورة من القرآن فألحقوها في آخرها . فظاهر هذا أنهم كانوا يؤلفون آيات السور باجتهادهم . والجواب أن هذا يعارضه ماروى

عن أبي بن كعب أنهم جمعوا القرآن ، فلما انتهوا إلى الاية التى فى سورة براءة ﴿ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قلوبَهم بأنَّهم قوم لا يفقَهُونَ﴾ ظنوا أن هذا آخر ما أنزل، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأنى بعد هذا آيتين ﴿لقَدْ جاءَكُم رسُول﴾ إلى آخر السورة) وهذا إلى سائر الأخبار التى تدل على أنهم لم يفعلوا شيئا من ذلك إلا بتوقيف . وأما ترتيب السور فذهب بعض العلماء إلى أنه بتوقيف، وذهب جمهور العلماء إلى أنه كان باجتهاد الصحابة ، وقيل إن بعضه كان بتوقيف وبعضه كان باجتهاد، وقد استدل على أنه كان اجتهاديا باختلاف مصاحف السلف فى ترتيب السور ، فمنهم من رتبها على النزول وهو على رضى الله عنه ، ومنهم من رتبها على غير ذلك .(١)

---

(١) النظم الفنى فى القرآن — عبد المتعال الصعيدى

الباب الرابع

التقوى رسالة الانبياء

« وكُلاً نقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أنباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فؤادَكَ وَجاءَكَ فى هذهِ الحقُّ وموعظةٌ وذكرَى للمؤمنين » (١).

قصص الانبياء التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم تشير كلها الى هدف واحد كان يسعى لتحقيقه كل نبى — ألا وهو (تقوى الله) فما من نبى إلا أمر بالتقوى ومامن رسول الا أمر بتبليغ التقوى ، فالتقوى شعار الجميع وهدف الجميع ورسالة الجميع ، والكل يعمل بوسيلته الخاصة على تحقيق هذا الهدف فهم سفراء الله الى عباده ، وكلهم حملة المشاعل لاضاءة الطريق الموصل الى الله .

وكل نبى له ظروفه الخاصة المحيطة به وله حياته الخاصة التى قد تميزه عن غيره وطريقته الخاصة فى عبادته — ولكن هدف الجميع لا يختلف — ومن أجل هذا نوضح بعض الظروف الخاصة ببعض الانبياء لما فيها من العظات والعبر

خطورة ميلاد بعض الانبياء وأثره : —

وفى القصص القرآنية نرى التركيز على مولد بعض الانبياء لخطورة هذا المولد ولما فيه من الدليل القوى على قدرة الله على الايجاد من العدم وعلى غير مثال :

١ — فقصة آدم وقصة عيسى بينهما تشابه فى شئ واختلاف فى شئ آخر ، فكل منهما وجد بلا أب وهذا وجه التشابه الخاص وكل منهما خلق من تراب وهذا وجه التشابه العام فى أصل التكوين . قال تعالى :

« إنّ مثَلَ عيسَى عِنْدَ الله كمثَلِ آدمَ خلَقهُ مِنْ تُرابٍ ثمّ قال لهُ كُنْ فيَكونُ » (٢) .

---

(١) الآية ١٢٠ من سورة هود (٢) الآية ٥٩ من سورة آل عمران

ويتحدث عن آدم وطريقة تسويته (إذْ قال ربُّكَ للملائكة إنّى خالقٌ بشَراً منْ طينٍ — فإذا سوّيتُهُ ونفخْتُ فيه منْ روحى فقَعوا لَهُ ساجدين — فسَجد الملائكةُ كلُّهُمْ أجمعونَ إلاّ ابليس استكبرَ وكان منَ الكافرين »(١).

٢ — أما عيسى فقد جاء مولده على غير ماتعود عليه الناس مهما أثار افتراءات بعض المفترين على عفاف امه مريم البتول الطاهرة حينما حملت بـه ، وعجبت حينما بشرت بمولود دون أن يمسها بشر .

« قالتْ أنّى يكونُ لى غلامٌ ولم يمْسَسْنى بشر ولمْ أكُ بغيًّا — قال كذلك قال ربُّك هو علىّ هيّن ولنجْعلهُ آية للناس ورحْمةً منّا وكان أمراً مقضيًّا — فحملتْه فانتبذتْ به مكانا قصيًّا »(٢)

ولقد تجلت مظاهر التقوى فى تاريخ حياته كلها منذ النشأة ، فحينما بلغ مبلغ الرجال نزل عليه الوحى وصدر له الامر بالدعوة الى تقوى الله .

« ولما جاءَ عيسَى بالبيّنات قال قدْ جئْتُكمْ بالحكْمة ولأبيّنَ لكُمْ بعْض الّذى تختلفونَ فيه فاتقُوا الله وأطيعون — إنّ الله هو ربّى وربُّكُمْ فاعْبُدوه هَذا صراطٌ مسْتقيمٌ »(٣).

٣ — أما مولد موسى فقد جاء فى عصر اشتد فيه الاستبداد وذبح الاطفال خوفا من تحقيق النبوة التى أنبأ بها الكهان فرعون ذلك العصر بأن مولوداً سوف يولد ويستولى على الحكم وسيصبح مصدر خطر على سلطانه فانتشر الجلادون فى الارض يقتلون كل مولود ذكر ، وعمت الفوضى حياتهم وذاع الذعر بين الآباء والامهات وحرم الجميع من فلذات أكبادهم تحقيقا لرغبة ذلك المتغطرس وحماية لجاه ذلك المتكبر وهكذا تتجلى عظمة الخالق وحكمته، اذ كيف

---

(١) الايات ٧١ — ٧٤ من سورة ص (٢) الآيات ٢٠ — ٢٢ من سورة مريم (٣) الآيتان ٦٣ - ٦٤ من سورة الزخرف

يبث الخوف والرعب فى قلب المتعـــاظم الذى يدعى الربوبية من طفل صغير لاحول له ولاقوة وتزداد الدهشة حينما نرى ان هذا المتعاظم يربى بيده وفى بيته ذلك الطفل الذى يخشاه .

ويتضح ذلك قوله تعالى : « وأوْحَيْنا إلى أمِّ موسى أنْ أرْضِعيه فاذا خِفْتِ عَليْه فألْقيه فى اليمّ ولا تخافى ولا تحْزنى إنّا رادُّوه إليْكِ وجاعِلوهُ منَ المُرسَلين — فالْتقَطه آلُ فِرعَوْنَ ليَكونَ لهُمْ عدواً وحَزنًا إنّ فرعوْنَ وهامانَ وجنودَهما كانوا خاطئينَ (١)».

ويكبر موسى ويحمل الرسالة ويدعو قومه الى تقوى الله «وإذ نادَى ربُّكَ موسَى أنِ ائت القومَ الظّالمينَ — قومَ فرعونَ ألا يتّقونَ »(٢)

فترة الصبا فى حياة بعض الأنبياء:

وهناك بعض القصص تذكر فترة من فترات حياة بعض الأنبياء وهى فترة الصبا مثل:

١ — قصة يوسف عليه السلام :

وتبدأ حياته بحلم يراه ويقصه على والده فيحذره من إخوته ويتحقق ما كان يخشاه ويلقونه فى الجب ويعودون لوالدهم يبكون ويدعون تعرضه للذئب ومعهم قميص بدم كذب ويشاء الله له النجاة وتأتى قافلة ويدلى أحدهم بدلو ويخرج يوسف فيدهش الرجل ويفرح ويعلن البشارة بين قومه ويبيعونه بثمن بخس دراهم معدودة لعزيز مصر وربى فى بيته ويعلمه الله تأويل الاحاديث ويحتاج إليه الملك ويجعله على خزائن الارض ، وتلجأ إليه إخوته ويستعطفونه وتتحق رؤياه التى رآها من قبل « ورَفعَ أبوَيْهِ على العرشِ وخرّوا له سُجّدا وقال يا أبتِ هذا تأويلُ رؤْيايَ منْ قبْلُ قدْ جعلها ربّى

(١) الايتان ٧ ، ٨ من سورة القصص (٢) الايتان ١٠ ، ١١ من سورة الشعراء

حقـا » (١).

وهكذا مصير المتقين كما اوضح ذلك لإخوته ومن معه « إنّه منْ يتّقِ ويصبر فإنّ الله لا يضيعُ أجْرَ المُحْسِنين » (٢).

٣ — وقصة ابراهيم تبدأ وهو فتى يتجه ببصره الى السماء ويفكر كيف يعبد الناس الكواكب ويحاربهم فى عقيدتهم ليخرج بهم الى مايتطلع اليه مستعملا المنطق والحجة الدامغه فى الوصول الى الاعتراف بوحدانية الله .

«وكذلك نُرى ابْراهيمَ مَلكوتَ السّموات والأرض وليكون منَ الْموقنين — فلمّا جنّ عليْه اللّيلُ رأى كوكبًا قال هذا ربّى فلمّا أفَل قال لا أحبُّ الآفلين — فلمّا رأى الْقمر بازغًا قال هذا ربّى، فلمّا أفلَ قال لئن لم يهدنى ربّى لأكوننَّ منَ القوم الضّالين — فلمّا رأى الشّمسَ بازغةً قال هذا ربّى هَذا أكْبرُ فلمّا أفلَتْ قال يا قوم إنّى برىءٌ ممّا تشركونَ — إنّى وجّهتُ وجهىَ للّذى فطرَ السّموات والأرضَ حنيفًا وَما أنا منَ المُشركين » (٣).

٣ — وقصة داوود تبدأ وهو شاب صغير لايدرى شيئا عن القتال وتدفعه الحياة الى صراع مع الجبابرة — مع جالوت — وهو أخطر فارس فى عصره — والحروب دائرة فى عصره — والقوم فى حاجة إلى دروع تمكنهم من حرية الحركة ويفكر داود فى هذه المشكلة ويكتشف أن يده تغوص فى قطعة من الحديد كانت فى يده وأن فى استطاعته أن يصنعها حلقات مستديرة يدخل بعضها فى بعض لتكون درعا تحمى جسد المحارب من السيوف والخناجر وتسمح له بحرية الحركة فى الميدان ويسجد داود شكراً لله الذى ألان له الحديد « ولقد آتينا داودَ منّا فضلاً يا جبالُ أوّبى معهُ والطّيرَ وألنّا لهُ الحديدَ — ان اعمَل سابغاتٍ وقدّر فى السّرْدِ واعمَلوا صالحًا إنّى بما تعمَلون بصيرٌ »(٤).

---

(١) الايه ١٠٠ من سورة يوسف . (٢) الايه ٩٠ من سورة يوسف .
(٣) الآيات ٧٥ — ٧٩ من سورة الأنعام (٤) الايتان ١٠ — ١١ من سورة سبأ

وفى آية أخرى « وعلمّناهُ صنعةَ لبُوسٍ لكُم لِتحصنكُم مِن بأسكم»(١).

وقد أحبه الله ووضع حبه فى قلوب الناس بل وأحبته الطيور والجبال فكانت تسبح لتسبيحه وتشدو الاشجار لترنيمه »

ذلك موجز لقصص بعض الأنبياء أثناء النشأة كما وردت فى القرآن الكريم .

الدعوة وموقف المتعنتين منها :

أما تبليغ الدعوة — فلا يكاد رسول يباشر مهمته فى تبليغ ماأمر بتبليغه ويحاول جاهداً أن يقنع الناس بما جاء به حتى يواجه بالقلوب الصماء القاسية، وبالنفوس التى طبعت على الشر وتطلعت الى البطش بكل من يحاول تغيير حياتهم التى ألفوها فيتعرض لايذائهم وإهاناتهم وسخريتهم.

وتختلف أساليب الايذاء فى كل عصر وينتقم الله من كل طائفة بشتى ألوان العذاب

وهذه بعض الأمثلة:

١ — قبل أن يوجد قوم نوح — كان رجال صالحون خمسة قضوا حياتهم فى صلاح وانتهى آجالهم — فصنع لهم الناس تماثيل تخليداً الذكرى — ومع مرور الأيام أصبحت التماثيل آلهة تعبد من دون الله — وفى اللحظة التى يتخلى فيها الناس عن عبادة الله تقسو قلوبهم، وينتشر الفساد فى الارض وتقضى الحاجة وجود من يرشدهم الى أقوم طريق .

فيرسل الله اليهم (نوحا) يدعوهم إلى تقوى الله وترك عبادة الاصنام

« إذ قال لهُمْ أخوهم نوحٌ ألا تتّقون — إنّى لكُم رَسُولٌ أمين — فاتّقوا اللهَ وأطيعون »(٢) . فكان جزاؤه الإهانة والسخرية والتكذيب بما جاء به، ويحاول جاهدا اقناعهم ويحثهم على التوبة والاستغفار — فالاستغفار خير سبيل لكثرة الخير وجلب الرزق ويذكر القرآن مادار بينه وبين قومه

(١) الآية ٨٠ من سورة الأنبياء (٢) الآيات ١٠٦ — ١٠٨ من الشعراء

«فقلتُ استغفِروا ربّكُمْ إنهُ كان غفّارًا - يرسل السَّماءَ عليكُم مدرارًا - ويُمددكُم بأموالٍ وبنين ويجعل لكُم جنّاتٍ ويجعل لكُم أنهارًا» (١).

«فهل آن لنا أن نرجع الى الله بالندم على مافعلنا والعزم على فعل الخير ونتعظ بهذا الحدث عسى الله أن يكثر لنا الخير؟».

فماذا كان جزاء نوح على هذه النصيحة؟ لقد زادوا فى السخرية والنكال به فهل يتركه ربه وهو الذى أرسله وتكفل بحفظه ورعايته؟ — كلا. فقد أمره بصنع سفينة يحمل فيها جميع من آمن به - ومن الطيور والحيوانات زوجين اثنين من كل صنف ليكونوا نواة لجيل صالح بعد هلاك الباقين»

ويأمر الله السماء فتمطر — ويأمر الأرض فتخرج عيونا متصاعدة قوية كأنها نافورة دافقة وتتلاحم المياه (من السماء والارض) ويغرق الناس جميعا وسط هذه الأمواج المتلاطمة فلاينجو من المكذبين بالرسول أحد حتى ابنه الذى خالف أمره وهو من صلبه — وهنا يجب أن نقف لحظة — فنعرف أن الصلة التى ينبغى أن تكون بين الناس هى صلة العقيدة التى هى أقوى صلة — ولانظر لاعتبارات أخرى - ويقص القرآن ما حدث:

«ونادى نوح ربَّهُ فقال ربِّ إنّ ابنى مِن أهْلى وإنّ وَعدَكَ الحقُّ وانتَ أحكمُ الحاكمين — قالَ يانوحُ إنّهُ ليس من أهلك إنّهُ عمل غيرُ صالح فلا تسألْن ماليس لك به علم إنّى أعظُك أن تكون من الجاهلين» (٢).

٢ — ويرسل الله لقوم عاد — هوداً — يأمرهم بتقوى الله. قال تعالى:
«كذّبتْ عادٌ المرسَلينَ — إذ قال لهُم أخوهمُ هودٌ ألا تتّقون — إنّى لكُم رسُولٌ أمينٌ — فاتّقوا اللهَ وأطيعونِ» (٣).

---

(١) الايات ١٠ — ١٢ من سورة نوح.
(٢) الايتان ٤٥ - ٤٦ من سورة هود (٣) الايات ١٢٣ — ١٢٦ من سورة الشعراء

ويكرر الأمر بالتقوى — ويكرر النصح لهم — ويناقشهم فيما يصنعون — ويحثهم على ترك القسوة والتسلط على غيرهم بلا رأفة — ويذكرهم بنعم الله ويحذرهم من عقابه وشدة غضبه ولكن زاد عنادهم وكفرهم .

ويبتليهم الله بالعذاب : فيتغير الجو فجأة وتهب الرياح وتزداد برودتها يوما بعد يوم فأسرعوا إلى الخيام يختبئون فيها — وتشتد هبوب الرياح فتقتلع الخيام وتمزق ملابسهم وتخرق جلودهم ويستمر هذا العذاب سبع ليال وثمانية أيام « فلمَّا رَأوْه عارِضًا مُسْتقبِلَ أوديتِهم قالوا هذا عارض مُمْطِرُنا بل هُوَ ما اسْتعجلتم به ريح فيها عذاب أليم — تدمِّرُ كلَّ شيء بأمرِ رَبِّها ، فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنُهم كذلكَ نجزى القومَ المجرمين » (١) .

٢ — وتتكرر قصة العذاب مع قوم ثمود — حينما يرسل الله إليهم (صالحا) يدعوهم إلى تقوى الله فيكذبونه . قال تعالى « كذَّبتْ ثمودُ المرسلينَ — إذ قالَ لهم أخوهمْ صالحُ ألا تتَّقونَ ، إني لكمْ رسولٌ أمين — فاتقوا الله وأطيعون » (٢)

فأحدثت دعوته دويا صم آذانهم — اذ كيف يأمرهم بعبادة الله وترك ما كان يعبد آباؤهم — وهو المعروف بينهم بالحكمة ؟ فاعتقدوا أنه مسحور — وطلبوا منه معجزة — فخرجت ناقة من الجبل — ولدت من غير الطريق المعروف — تشرب المياه الموجودة فى الآبار فى يوم ويشربون هم فى يوم ، وكان لبنها يكفى الجميع — رجالا ونساء وأطفالا — فوضح إذاً أنها أكبر معجزة — ومع ذلك أجمعوا على قتلها — وغضب صالح — وانتقم الله له — وانشقت السماء عن صيحة جبارة وانقضت عليهم كالجبال فهلك فيها كل شيء حى . قال تعالى :

« إنَّا أرسلنا عليهم صَيْحَةً واحدةً فكانوا كهَشيمِ المحتظِرِ » (٣) .

---

(١) الآيتان ٢٤ — ٢٥ من سورة الأحقاف (٢) الآيات ١٤١ — ١٤٤ من سورة الشعراء
(٣) الآية ٣١ من سورة القمر .

وحدة الدعوة الربانية :

وجميع الرسل كما وضح من قبل تهدف دعوتهم الى هدف واحد، تلكم الدعوة الربانية التى أمروا بحمل أعبائها وتبليغها إلى الذين أرسلوا اليهم — فما من واحد منهم إلا وقد دعا إلى تقوى الله، كما تجلى ذلك فى الايات التى سبقت الاستشهاد بها فجميع الخلق ينتمون الى أصل واحد (كلكم لآدم وآدم من تراب) والجميع قد بلغتهم الدعوة الى التقوى — ووضح لهم أنه لا تفاضل بينهم الا بالتقوى (لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أحمر .. إلا بالتقوى)

يدعو كل رسول الى وحدة الله ويحث على تقوى الله ومخافته فى كل شيء — ثم ينتقل بعد قضية التوحيد مباشرة إلى قضية المعاملات اليومية — إلى علاج الداء الذى يلمسه فى قومه ليعالجهم منه فيقضى على وسائل الاجرام المتفشية فيهم وعلى العادات التى تأباها الفطرة السليمة — وعلى مالا يتفق والعقل والمنطق من مظاهر الشرك والعبودية لغير الله .

وهكذا تبدو عقيدة التوحيد طفرة ضخمة فى طريق الأمانة والعدالة وتغيير أسلوب الناس وسلوكهم وتصرفاتهم فى الحياة اليومية وتحريم الظلم أياً كان نوعه حتى لا ينهزم الناس من الداخل وتنهار علاقات العمل ويشيع الاضطراب فى الحياة .

ولقد ذكرت هؤلاء الرسل مكتفيا بهم لأن لكل ظروفه الخاصة من حيث الزمن والمعاملة وأوضحت مراحل ثلاثة من مراحل حياة كل من الثلاثة الذين ذكرتهم ولا يتسع المقام لذكر الأنبياء كما ورد ذكرها فى القرآن الكريم، فقصص الأنبياء تفرد لها المجلدات الضخمة لتستوعب العظة والاعتبار التى تفهم من هذه القصص ، ولننتقل الى الحديث عن امام المتقين (صلى الله عليه وسلم) .

إمام المتقــين

لقد امتزج الرسول صلى الله عليه وسلم بالقرآن روحا وقلبا وجسما، وامتزج القرآن به عقيدة وأخلاقا وتشريعاً، فكان صلوات الله عليه قرآنا يسير فى الناس. كان تقيا منذ نشأته وظهرت تقواه قبل نبوته، ودعا إلى التقوى يوم أن حمل مشعل الهداية وسار يضيء للناس الطريق القويم.

واذا كانت السعادة فى الدارين معلقة بهدى النبى صلى الله عليه وسلم فيجب على كل من نصح نفسه وأحب نجاتها وسعادتها وتقواها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه مايخرج به عن الجاهلين به، لقد تجلت عناية الله بنبيه منذ ولادته وشملت العناية الربانية بلدته التى ولد بها ففى مكة بيت الله الحرام وقد تعرض له جيش أبرهة الذى يضم مجموعة من الفيلة (يستخدمونها كما تستخدم الدبابات اليوم فى الحرب) فهرب أهل مكة وخرجت آمنة بنت وهب إلى الجبال القريبة خوفا على جنينها.

ووقف عبد المطلب جد النبى أمام باب الكعبة ومعه نفر من قريش يدعون الله، وهبطت الملائكة تحرس البيت، وتجمدت الفيلة فى مكانها بأمر الله، ودهش أبرهة ورفع بصره الى السماء، فإذا به يرى أسراباً من الطيور الزاحفة تنقض على الجيش، وتقصفه بحجارة من سجيل لها أثر القنابل الفتاكة فى عصرنا هذا.

مولد النبى: ووسط أفراح مكة بنجاتها ونجاة الكعبة يولد (نبى الرحمة) وتطير البشائر بمولده، ويحدث مايشبه المعجزات تكريما لمولد الرسول، فتخمد النار المعبودة فى معابد الفرس — وتنكس الأصنام وتجف بحيرة ساوة المقدسة عند الروم وتسقط أربع عشرة شرفة من قصر كسرى الذى تجبر فى الأرض، فكان مولد الرسول رمزاً لتحرير العقل البشرى من أباطيل الضلال.

تحرك المولود فى مكة فى عام الفيل — ويرى جده فى منامه هاتفاً يهمس له «اسمه مشتق من الحمد (محمد أو أحمد) فسماه محمداً وقال رجوت أن يحمد فى الأرض ورباه الحق عز وجل من طفولته — وامتحنه باليتم فقد مات أبوه وهو جنين — ولم تكن أمه آمنة تعرف أن هذا اليتيم سيتحمل مسئولية اليتامى والحزانى فى الأرض «ولا يعرف الرحمة إلا من ذاق الحزن وعرف الآلام».

الرحمة باليتامى والمساكين :ـــ

لقد امتن الله علىْ رسوله برحمات تجلت عن الوصف وذكره بها ممتناً عليه بهذا الفضل فقال تعالى : « أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ـ وَوَجَدَكَ ضَالًا فَهَدَى ـ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى » .

لقد كان يتيماً فآواه الله وكان تائها فهداه الله وكان فقيرا فأغناه الله فما أعظم هذه الرعاية ـ استأثر الله بإيوائه وهدايته وإغنائه ، وتلك درجة من درجات الفضل لم يبلغها أحد .

يقول الاستاذ محمد عبده فى تفسيره لهذه الآيات :

« ألم يجدك يتيمًا فآوى » التعبير بلم يجدك ووجدك على متعارف الخطاب فى لسان العرب أى لم تكن كذلك وكنت كذلك ، وأصل المعنى فى وجدت فلانا كريما « مثلا » أنى لم اكن أعرف منه الكرم فعرفته وذلك لا يكون فى جانب الله تعالى والاستفهام على كل حال للتقرير ، أى أنك كنت كذلك .

وكان صلى الله عليه وسلم يتيمـا لأن والده توفى فى المدينة وهو حمل فى بطن أمه ، فلما وضعة أمه عطف الله عليه قلب جده عبد المطلب ، وقلب مرضعته حليمه على يتمه ، وكفله جده خير كفـالة ثم مات جده وسنه ثمـانى سنين ، وكفله عمه أبو طالب بوصيته من أبيه عبد المطلب وكان شديد العناية به فى صغره ، عظيم المحبة له فى كبره ، ومازال يحميه و ينصره بعد أن أكرمه الله بالنبوة حتى قبضه ، وتجرأت قريش على النبى صلى الله عليه وسلم بعد موت عمه حـــين اضطرته إلى الهجرة الى المدينه فذلك إيواء لنبيه وهو يتيم .

« وَوَجَدَكَ ضَالًا فَهَدَى » نشأ صلى الله عليه وسلم موحداً لم يسجد لصنم وطاهر الخلق لم يقترف فاحشة حتى عرف بين قومه بالأمين فضلال الشرك وضلال الهوى فى العمل كانا بعيدين عن ذاته الكريمة ، نزهه الله عنها من أول أمره ليعلى منزلته عند من يرسل إليهم فيسمعوا قوله ويهتدوا بهديه .

وقد عرف صلى الله عليه وسلم فساد دين قومه من مشركى العرب ، ولكن كان بين يديه دين النصرانية على ما كان عليه أهله ، ودين اليهودية ـ وكلاهمـا دين توحيد وفى كليهما شريعة لنبى فهل فى اختيار أحد الدينين مصلحة لـه ولقومه ؟ وهل فى الدعوة الى مايختار منها فلاح لنفسه ولشعبه ؟ وهو عليه الصلاة والسلام

أمى لايقرأ الكتب ولا يعرف ماحوته تلك الأديان من الأحكام والشرائع ؟ كيف كان يصلح ذلك وأهل كل من الدينين لم يكونوا فى حالهم أرشد من قومه؟

فكان شيء من الشرك يشوب عقائدهم وكثير من السيئات والجرائم تدنس أعمالهم ، وأعظم أنواع الضلال : كانت الحيرة فى أمر العرب أنفسهم - يراهم صلى الله عليه وسلم فى سخافة عقائدهم ، وضعف بصائرهم ، باستيلاء الأوهام عليهم وفساد أعمالهم وشؤم تلك الأعمال فى أموالهم وتفرق كلمتهم وإشرافهم على الهلاك باستبعاد الغرباء لهم وتحكم الأجانب فيهم (الحبشة ثم الفرس من جانب والرومان من جانب آخر)ثم هم فى غفلة عن مصيرهم ينفرون من الذل ويمدون أيديهم الى أسبابه ويفرون من الموت وهم يتدافعون على أبوابه.

فما العمل فى تقويم عقائدهم وتخليصهم من تحكم عاداتهم فيهم ؟ وأى طريق ينبغى أن يسلك فى ايقاظهم من سباتهم ، ومن أى الابواب يمكن أن يدخل فى قلوبهم ؟ ما أشدها حيرة على الصديقين ، وما أعظمها ظلمة تغشى السالكين من أهل الصدق واليقين ؟

فهذا هو الذى عناه الله بالضلال فى هذه الاية وما أعظم الهداية فى ذلك الضلال!

هل يدرى بنفسه من غير وحى كيف يعبد الله. وأى وصف يصفه ويمجده؟ كل هذه الضروب من الحيرة كانت من حظه عليه السلام قبل أن تطلع عليه شمس النبوة، وللخلاص منها كان يطلب الخلوة بغار حراء ، ويتلمس هداية ربه فى جوانب قلبه ، الى أن سطع عليه نور الوحى فانتشله من هذا كله، واختار له دينا قويما وعلمه كيف يرشد قومه ، وأوضح له طريق الخلاص وهذا هو معنى قوله « وَوَجَدَكَ ضَالًا فَهَدَى » .

«وَوَجَدَكَ عائلا فأغنى» العائل الفقير - وقد كان صلى الله عليه وسلم فقيرا فلم يترك له والده من الميراث إلا ناقة وجارية ، فأغناه الله بما ربحه من التجارة وبما وهبته خديجه من مالها .

ومن ذاق مرارة الضيق فى نفسه، فأجدر به أن يستشعرها فى غيره ،وما أجدره عليه السلام بأن يكرم كل يتيم شكرا لله على نعمته .

« فأمّا اليتيمَ فلا تقهرْ » أى فلا تذله بل إرفع نفسه بالأدب وهذبه بمكارم الخلق ليكون عضواً فى جماعتك ينفعها وتنتفع به حتى لا يفسده الهوان فيكون جرثومة فساد يتعدى أذاها إلى كل من يخالطها من أمتك - (اهـ) .

وجوب رعاية اليتامى : —

واليتامى فى اللغة والشرع هم الذين فقدوا آباءهم ويصح أن يلحق بهم الذين غاب آباؤهم ولم يتركوا لهم ما ينفقون منه ومثلهم الذين حكم على آبائهم بأحكام مقيدة للحرية تجعلهم يفقدون الراعى مدة تنفيذ العقوبة .

ولا يعد فى لغة العرب ولغة الشرع يتيما من فقد أمه دون أبيه .

وقد أوصى القرآن الكريم برعاية اليتيم (من لا أب له) فقال تعالى :

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ » .

وأوصى النبى صلى الله عليه وسلم بكفالة اليتيم فقال « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا » وأشار بأصبعيه (السبابة والوسطى) بأنهما متجاوران فى الجنة .

فمنزلة كافل اليتيم وراعيه كمنزلة النبيين - وما رأى صلى الله عليه وسلم يتيما إلا مسح على رأسه رأفة به وشفقة عليه .

ولقد حرص الإسلام على رعاية الذين لا آباء لهم ولم يكتف بالوصية المجردة وملاحظة ضعفهم بل إنه فصل وصاياه ودعا الى أمور ثلاثة بالنسبة لهم هى : (الرفق بهم ، والمحافظة على أموالهم إن كان لهم مال - والإنفاق عليهم إن لم يكن لهم مال) ولقد صرح القرآن الكريم بالنهى عن قهر اليتيم كما يتضح فى الاية الكريمة « فأمّا اليتيمَ فلا تقهرْ » ولقد ندد الله سبحانه بالمشركين الذين لا يكرمون اليتيم فقال (كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ) (٢) .

ولقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن اليه وشر بيت للمسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه) .

ولو علم الناس ما فى إهمال تربية الايتام من الفساد فى الأمة لقدروا عناية الله بأمرهم فى كتابه قدرها ، ولبذلوا من سعيهم ومن مالهم فى اصلاح حال الأيتام كل ما استطاعوا ، ولو أحسّ كل واحد بأن الموت قريب منه وأنه هدف لنباله

---

(١) الاية ٢٢٠ من سورة البقرة . (٢) الآية ١٧ من سورة الفجر .

لايدرى متى يأخذه عن ولده فيتركه اما غنياً يأكل ماله الأوصياء ، أو فقيراً يستذله الأدنياء ، لتسابقوا إلى تقويم امر اليتيم تسابقهم إلى اللذة والنعيم .

نشأته : ولدالنبي يتيما ونشأ في بادية بني سعد في بيت حليمه الذي باركه الله حتى إذا أتم الرضاعة عاد الى امه ونشأ في ظل جده ثم سافر مع أمه وهو في السادسة من عمره الى يثرب لزيارة قبر أبيه فماتت أمه وهي راجعة به عند «الابواء» فتولته بركه التي عرفت في الإسلام (بأم أيمن) ولم يبلغ السابعة حتى فقد جده فكفله عمه أبو طالب وكان له نعم الكافل ونعم الولي ـ وكان صاحب سفر في التجارة فاصطحبه معه .

ويقول الرواة : إنه هم بالسفر في تجارته الى الشام ذات عام والصبي في الثانية عشرة من عمره وألح أن يصحبه في سفره فحمله معه الى الشام .

ولم يكد يبلغ به مشارف الشام حتى عاد به مسرعا الى مكة استجابة لأمر راهب من رهبان النصارى فقد علم من أمر الصبي مالم يعلمه عمه — فأوصاه بأن يرده الى وطنه وأن يحرزه في مكة من مكر النصارى واليهود .

ولما بلغ الرابعة عشرة شهد حرب « الفجار » التي كانت في حرم مكة بين قيس وقريش وكان صغير السن فلم يشارك فيها ولكنه كان ينبل على أعمامه .

ولما أينع جعل يسعى في رزقه فكان يرعى الغنم على قومه ، ولما زاد على العشرين سلكت الحياة به طريقاً أخرى .

وفي سن الخامسة والعشرين تزوج من خديجة بنت خويلد ، وهي من أوسط قريش نسبا وأعظمهم شرفا وأكثرهم مالا ، وعاش عيشة هادئة في ظل الحياة الزوجيه السعيدة .

وقضى على مشكلة حدثت بين قومه لوضع الحجر الاسود في مكانه بالكعبة فقبلوا حكمه وبسط رداءه ووضع الحجر في وسطه وأخذوا باطراف الرداء ثم وضع الحجر بيده في موضعه .

ولقد حبب اليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء يتعبد الليالى ذوات العدد ثم يرجع الى خديجة ليتزود حتى قالت العرب إن محمداً قد عشق ربه .

لقد قضى حياته مهاجراً الى الله في كل لحظة يضاعف التذلل والخضوع حتى اصبح وكأنه من النور .

نزول الوحى :

وفى شهر رمضان فوجىء بجبريل يقف على باب الغار فضمه إلى صدره بشدة ثم تركه وقال له اقرأ ـ فقال: ما أنا بقارىء فغطه غطاً شديداً حتى بلغ منه الجهد، ثم أرسله، وقال: اقرأ فقال: ما أنا بقارىء، ثم غطه المرة الثالثة وقال: اقرأ، فقال الرسول ماذا أقرأ ؟

فقال(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ)[١].

واختفى جبريل! وخرج النبى مسرعاً إلى أهله وقد أخذه الروع فيسرع إلى أهله مذعورا، يقول: زملونى زملونى ـ ثم يقول لقد خشيت على نفسى (وأخبر خديجة بالخبر) فقالت له: كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق.

ثم تنطلق به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل فيخبره الرسول بما رأى فيطمئنه ورقة النصرانى فيقول (هذا الناموس الذى نزله الله على موسى ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك) فقال ﷺ (أَوَ مُخْرِجِىَّ هُمْ) ؟ قال نعم: لم يأت رجل قط بمثل ما أتيت به إلا عودى، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً.

ولزم داره، وانتظر ما يكون من أمره بعد ذلك، فأوحى الله إليه (يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّر، قُمْ فَأَنْذِرْ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ، وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ، وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ)[٢].

وقد تجرد النبى لأداء ما كلف به فبدأ بأهله فأنذرهم وبشرهم فاستجاب

---

(١) أول سورة العلق . (٢) أول سورة المدثر .

له منهم من استجاب ثم أمر بتعميم الدعوة فاستجاب أقلهم وامتنع عليه أكثرهم ، وقد تألب عليه الكثرة وأصبحت الحياة بينه وبينهم جهاداً متصلا ، وعظم شأن النبي حتى أصبح ملوك الروم يخشونه .

بدأ الإسلام يجمع حوله طائفة العقلاء والفقراء وزادت ضراوة المشركين في السخرية، وانتقل مجال المعركة من الكلمات المتحدية إلى تعذيب أتباع الرسول وقتلهم ، وحين ذهب المعذبون يشكون لرسول الله ما يلقونه قال لهم « قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ما يصده ذلك عن دينه ، والله ليتمن الله تعالى هذا الأمر ولكنكم تستعجلون » وزاد عدد المسلمين وأحست قريش الخوف وفاوضوا الرسول ليرجع عن دعوته ، وفشلت المفاوضات وعاد الإيذاء فأوعز الرسول إلى أصحابه بالهجرة من مكة ، فهاجر إلى الحبشة عدد غير قليل وكانت هذه أول هجرة في الإسلام .

وقوى المسلمون بإسلام حمزة عم النبي وعمر بن الخطاب . وقررت قريش حصار المسلمين اقتصاديا وعقدوا معاهدة بذلك علقوها بجوف الكعبة، واستمرت هذه الحروب ثلاث سنوات كاملة ولم يكد الرسول يستريح من هذا الحصار حتى فوجىء بوفاة زوجته خديجة ثم بوفاة عمه أبي طالب فحزن الرسول أشد الحزن (وسمى هذا العام بعام الحزن) .

وأراد الرسول نشر الدعوة فتوجه إلى الطائف وعرض الدعوة على ثقيف فأساءوا إليه ، وسلطوا عليه غلمانهم يضربونه بالحجارة ، فاستراح في بستان لاثنين من أغنياء الطائف وأقبل عليه خادمهما النصراني بعنقود من العنب فمد الرسول يده إليه وقال (بسم الله الرحمن الرحيم) فدهش الخادم وجرى بينهما حديث ، أسلم عقبه هذا النصراني وعاد الرسول إلى مكة حزينا واتجه إلى الله ضارعاً وقال « اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ،

وهوانى على الناس ، ياأرحم الراحمين أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى - أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ،وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة،من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولاحول ولاقوة إلا بالله »

ويستجيب الله الدعاء وتقع معجزة الإسراء والمعراج تكريماً للرسول إمام المتقين .

نور الله فى ليلة المعراج :-

ولقد لمست اهتماماً كبيراً من المتقين الصالحين بذكرى الاسراء والمعراج يقضون ليلهم فى نور الله ، يسبحون بعقولهم وأفئدتهم فى تصور ماحدث للنبى الحبيب فى هذه الليلة المباركة . ويكثرون من الاستغفار والصوم فى شهر رجب - عملا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكثروا من الاستغفار فى شهر رجب ، فإن لله فى كل ساعة منه عتقاء من النار ، وإن لله مدائن لا يدخلها إلا من صام شهر رجب » .

ولقد أثارنى أحاديث بعض المتصوفة فى السودان أثناء وجودى بينهم (فى الخرطوم) وأهاجتنى الذكرى العطرة فنشرت المقال التالى فى جريدة الثورة فى التاسع عشر من ديسمبر عام سنة ١٩٦٢ .وكان عنوانه (نور الله فى ليلة المعراج) وفيه توضيح ماحدث فى هذه الليلة المباركة قلت فيه :

فى العام التاسع من البعث المحمدى مات أبو طالب الذى كان كبير قريش وعظيمها وبترته فقد محمد نصيرا قوياً حتى لقد قال صلى الله عليه وسلم « مانالتنى قريش بشىء أكرهه حتى مات أبو طالب » وبعد موت أبى طالب بأشهر ماتت أم المؤمنين خديجة وكان الرسول يجد فيها العزاء فى وقت الشدة . ولقد قال فيها ابن هشام « كانت له وزير صدق على الإسلام يشكو إليها » .

ولذا سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا العام « بعام الحزن » - فقد محمد نصراء الدنيا وفقد العزاء ، فكان لابد من عزاء روحى ، لقد كفر به الناس وناوءوه فعوضه ربه بأمرين جليلين - فى عامين متتاليين - أولها

أن الجن آمن به ـ ونزل قوله تعالى : (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا)[١] .

وكان فى السابع والعشرين من رجب فى العام التالى ـ الأمر الثانى ـ الذى كان فيه العزاء ، والغذاء الروحى وآيات الله الكبرى وهو الإسراء المعراج.

قال تعالى (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)[٢] .

والمعراج قد بينه سبحانه بقوله : (عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ، ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ، فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ، مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى)[٣] .

ولقد تجلت قدرة الله فى نقل عبده من مكة إلى بيت المقدس فى ليلة واحدة وهى عند الناس مسيرة أربعين ليلة . وهذا مادعا أبا جهل إلى أن يدعو قومه ليستمعوا إلى هذا الخبر العجيب فيقول « هيا معشر قريش ـ وقد اجتمعوا من أنديتهم ـ فقال للرسول أخبر قومك بما أخبرتنى به » . فقص عليهم رسول الله ﷺ خبر ما رأى وأنه جاء بيت المقدس هذه الليلة وصلى فيه ـ فمن بين مصفق ومصفر تكذيباً له واستبعاداً لخبره ، وطار الخبر بمكة وجاء الناس إلى أبى بكر رضى الله عنه فأخبروه أن محمدا يقول كذا وكذا . فقال : إنكم تكذبون عليه ، فقالوا : والله إنه ليقوله . فقال رضى الله عنه : إن كان قاله لقد صدق ، ثم جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحوله المشركون من قريش فسأله عن ذلك فأخبره فاستعلمه عن صفات

---

(١) أول سورة الجن

(٢) أول سورة الإسراء

(٣) الآيات ٥ ـ ١١ من سورة النجم

بيت المقدس ليسمع المشركون ويعلموا صدقه فيما أخبرهم به . فقالوا أما الصفات فقد أصاب . ولقد ذكر لهم من الأمارات التي تدل على صدقه ، فقد سألوه عن عيرهم فقالوا أخبرنا عن عيرنا فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها وقال : تقدم يوم كذا من طلوع الشمس يقدمها جمل أورق فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية : فقال قائل منهم ، هذه والله الشمس قد أشرقت ، فقال آخر : وهذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق .

ولنستمع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا عن الإسراء والمعراج فيقول : « أتيت بالبراق – وهو دابة فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته فصار بي حتى أتيت بيت المقدس فربطت الدابة بالحلقة التي يربط بها الأنبياء ثم دخلت فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فأتاني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن ، فاخترت اللبن . فقال جبريل : أصبت الفطرة . قال : ثم عرج بي إلى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل من أنت ؟ قال جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال محمد قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال وقد أرسل إليه ، ففتح لنا – فإذا بآدم فرحب ودعا لي بخير . . . » وهكذا عرج به إلى كل سماء – وفي السماء الثانية قابل يحيى وعيسى . وفي الثالثة رأى يوسف ، وفي الرابعة رأى إدريس ، وفي الخامسة شاهد هارون ، وفي السادسة استأنس بموسى وفي السابعة التقى بإبراهيم « عليهم السلام » ويمضي الرسول في حديثه . « وإذا هو مستند إلى البيت المعمور . وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى فإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن يصفها من حسنها ، فأوحى الله إلى ما أوحى وقد فرض الله على في كل يوم وليلة خمسين صلاة » . . . وأخذ الرسول يراجع ربه ويسأله التخفيف وفي كل مرة يحط عنهم خمسة حتى قال يا محمد : هن خمس صلوات في كل يوم وليلة بكل صلاة عشر . فتلك خمسون صلاة ، ومن هم بحسنة فلم يفعلها كتبت له حسنة فإذا عملها كتبت له عشرة ،

ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب له فإن عملها كتبت له سيئة واحدة » . هذا حديث المعراج كما رواه الإمام مسلم فى صحيحه ، ولقد سأل أبو ذر الغفارى النبى صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك ؟ فقال « رأيته نوراً » .

هذه العجالة القصيرة هى من وحى تلك الذكرى العطرة وتتضمن أمرين : أولهما قدرة الله التى لا يحدها زمان ولا مكان ، والثانى : إقامة الحجة القاطعة على المكابرين من أنهم ليسوا طلاب حق ، وإن طالب الحق ليجد فى نور القرآن ما يهديه .

وقد أخبر الرسول قومه بما رآه فتعنتوا وكذبوه وصدقه أبو بكر)

ولم يكن بدعاً أن يختلف الناس فى الماضى ويكثر الجدل وتشتد المنازعات فى موضوع الإسراء والمعراج ، علماً بأن القدرة تكون دائماً على مستوى الفاعل . وقد قيل : إن الزمن يتناسب مع القوة تناسباً عكسياً فكلما زادت القوة قل الزمن - والقوة هنا هى قوة الله تعالى فالمقارنة غير موضوعية . ونحن اليوم فى عصر العلم والمعرفة ، وقد يسرت لسفن الفضاء اجتياز طبقات الجو إلى آفاق بعيدة وخروج رواد الفضاء عن سفنهم يسبحون فى الأجواء ثم يعودون إليها . فهل يستكثر الناس بعد ذلك على الخالق الأعلى أن يكرم نبياً اصطفاه من خلقه ، وأن يجتاز به مناطق الجاذبية . ويصل حيث أراد الله تحوطه العناية والرعاية ؟ .

ومرت الأيام على هذا الحدث العظيم - ويزداد الإيمان واليقين فى قلوب المتقين - ويتعرض المتقون لإيذاء المشركين ولكن إيمانهم ثابت لا تزعزعه الأعاصير .

ويتآمر المشركون ضد حياة الرسول - ويحكى القرآن مايدور فى أذهانهم

(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الماكِرِينَ)[1]

ودارت مناقشات حادة بين أتباع الشيطان وأجمعوا على قتل النبى بضربة سيف من شباب القبائل مجتمعة ـ حتى يتفرق دمه فى القبائل فتعجز بنو هاشم عن قتال العرب جميعاً .

الهجرة إلى المدينة المنورة :

وأوحى الله إلى نبيه بالهجرة وأخذ بأسباب النجاح فكتم أمره واستأجر دليلا يعرف مسالك الصحراء ، وأخبر صاحبه أبا بكر فعرض الصحبة وأصر عليها — وأمر الرسول على بن أبى طالب أن ينام فى فراشه هذه الليلة وحاصر فتيان مكة بيت الرسول ، ومع هذا فقد خرج تحرسه عناية الله وأمسك قبضة من تراب ورماها على القوم وهو يتلو قوله تعالى : « فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ » ،وألقى الله عليهم النوم ولجأ الرسول إلى كهف فى جبل اسمه (ثور) .

واستيقظ الفتيان صباحاً ـ وخرج عليهم (على) فذهلوا وانطلقوا بالسيوف يبحثون عنه فى كل مكان ويجعلون مكافأة لمن يرشدهم إلى مكانه ـ ويعرف (سراقة) مكان النبى ـ وتحدث المعجزة ، وتسيخ قدما فرسه ويعاهد سراقة النبى على عدم إفشاء الأمر .

ويقتفى المشركون أثر النبى حتى بلغوا جبل ثور فرأوا على باب الغار نسج العنكبوت ـ وخشى أبو بكر ـ وقال (لو أن أحدهم نظر تحت قدمه لرآنا) فيقول له الرسول : (ما ظنك باثنين الله ثالثهما ـ لاتحزن إن الله معنا) ويذكر القرآن هذا الحدث العظيم :

---

(١) الآية ٣٠ من سورة الأنفال

(إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)[1].

هذا هو موقف المؤمن الواثق فى نصر الله - فما أروع قوة الإيمان وما أجمل نور اليقين ، لقد أراد الله لى أن أشهد هذا النور يشع من فوق قمة هذا الجبل عام ألف وتسعمائة واثنين وسبعين ميلادية (١٣٩٢هـ) حينما اتجهت إليه فى رحلة ربانية واصطحبت معى بعض الرفاق وبلغنا قمة الجبل بعد جهد - وانبثقت من جوف الغار المظلم أضواء ذلك الماضى فأخذتنى هزة وقشعريرة وطافت أمامى أنوار النبى ﷺ تضىء المكان - ورحمات الله تحيط به من جميع الجوانب وتخيلت جند الله يسيرون فى موكب الحماية الربانية تحرس الرسول إلى المدينة المنورة بعد ثلاثة أيام قضاها فى الحصن الربانى، ولقد بلغ الرسول إلى يثرب ومعه صاحبه ، فاستقبل أحسن استقبال ، وفرح به أنصاره بالمدينة والمهاجرون إليها ، وبنى الرسول مسجده ، وأسس دولته ، وحارب أعداءه ، ونشر الإسلام . وفتح مكة وطهر البيت الحرام ، وألقى فى القلوب والعقول نوراً لا ينطفىء .

وتعلق به أحبابه فأكثروا من ذكره وتمسكوا بسنته وأكثروا من الصلاة عليه فى حياته وبعد موته - فقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أكثروا من الصلاة علىّ يوم الجمعة فإنه يوم مشهود ، تشهده الملائكة ، وإن أحداً لن يصلى على إلا عرضت علىّ صلاته ، حتى يفرغ منها . قيل : وبعد الموت ؟ قال : وبعد الموت ، إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء ، فنبى الله حى يرزق » .[2]

فصلوات الله وسلامه عليك يارسول الله يامن تركت أمتك على المحجة البيضاء ليلها كنهارها - وعبدت الله حتى أتاك اليقين .

---

(١) الآية ٤٠ من سورة التوبة (٢) ابن ماجه آخر كتاب الجنائز ص ٢٥٧

الباب الخامس

مجالات التقوى

فى العبادات

قال تعالى (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِى الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِى الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)[1]

آية واحدة شاملة لكل مجالات التقوى (عقيدة وشريعة — وعبادات ومعاملات) .

وقد كانت أول توجيهات للرسول أن تكون أعماله كلها عبادة — فحينما فاجأه الوحى وعاد يرجف فؤاده إلى منزله ويقول زملونى — نزل عليه قوله تعالى :

(يَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ . قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا . نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا) .

وأوضح لمن اعترضه ضيق أو كرب أن يلجأ إلى العبادة (فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى)[2]

---

(١) الآية ١٧٧ من سورة البقرة

(٢) الآية ١٣٠ من سورة طه

فقد علق سبحانه وتعالى الرضى وطمأنينة النفس وسكينة الفؤاد على التسبيح والذكر والعبادة .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى (فاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّح بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الغُرُوبِ.وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ[١] »

ولقد استجاب الرسول استجابة تامة لما أراد الله — وتحدث الله عن هذه الاستجابة فقال :

(إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ . . »[٢]

ولما كانت الصلاة خير علاج للاضطراب النفسي وعلامة الإيمان العميق، نبدأ بها الحديث عن مجالات التقوى :

(١) التقوى فى الصلاة

« وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ »[٣]

فرض الله سبحانه وتعالى الصلاة فى الأديان السابقة للإسلام ، ولكنها لم تكن مقيدة بوقت خاص فى بعض الأديان ، ولم تكن كذلك مقيدة بنوع معين من الطهارة فى بعضها ولم تتم حركتها الشاملة فى بعضها الآخر ، وسار التدريب المتدرج حتى استعد الناس للقيام بنوع من الصلاة ، يخلص العبد من كل شيء فى الوجود إلا من قلب متوجه بكليته وجسده محدد الاتجاه ، وعقل جائل فيما يقرأ أو يدعو ، وروح مندفعة نحو الغيب فى عبودية خالصة ، واستسلام كامل وتفتح واع واستلهام عاقل لمظاهر الوجود كله .

---

(١) الآيتان ٣٩ — ٤٠ من سورة ق

(٢) الآية ٢٠ من سورة المزمل

(٣) الآية ٧٢ من سورة الأنعام .

ولم يكن ذلك النوع من الصلاة إلا فى ختام الدورة النبوية على يد الخاتم الأعظم سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه، ذلك النوع من الصلاة التى لمعت كالخطرة المختلسة وانبعثت من الحضرة الصمدانية المقدسة ونظرت إليها حضرة النور فوهبتها أسرارها وأفاضت عليها الحضرة القيومية أنوارها (هكذا يقول الشيخ ابن عربى) .

الصلاة وفريضتها فى الأديان السابقة :

ومما يثبت أن الصلاة كانت مفروضة فى الأديان السابقة قول الله تعالى «وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ»[١] إذاً فهناك ركع وهناك سجود من يوم أن خلق الله الرسالة ومن يوم أن خلق التكليف — وقول الله تعالى: (رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ المُحَرَّمِ . رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ)[٢] .

وينوه الله بشأن إسماعيل فيقول « وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا)[٣] .

ولقمان يعظ ابنه ويوصيه بالصلاة « يا بُنَىَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ المُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى ما أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ »[٤] .

وعيسى عليه السلام يتحدث بنعمة الله عليه فيقول « وَجَعَلَنِى مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِى بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَادُمْتُ حَيًّا)[٥] .

وفى سورة آل عمران (يامَرْيَمُ اقْنُتِى لِرَبِّكِ واسْجُدِى وارْكَعِى مَعَ الرَّاكِعِين» — ونصت الآية على الركوع والسجود فى عهد عيسى عليه السلام — بالإضافة إلى ما حدث فى ليلة الإسراء فقد ورد — كما سبق ذكره — أن رسول الله ﷺ — صلى إماماً بالأنبياء فى بيت المقدس قبل أن يعرج إلى السماء والصلاة .

---

(١) الآية ٢٦ من سورة الحج (٢) الآية ٣٧ من سورة إبراهيم (٣) الآية ٥٥ من سورة مريم
(٤) الآية ١٧ من سورة لقمان (٥) الآية ٣١ من سورة مريم

فرضت بشكلها المعروف فى الإسلام -- بعد العروج -- ولذلك نجد موسى عليه السلام قد استكثر العدد الذى فرض على النبى فى ليلة المعراج .

والصلاة فى الإسلام جمعت ميزات كل صلوات الرسل وكانت خير هدية من الله إلى من يؤمن بالرسول — وهى وسيلة إلى القرب من الله — ولذلك يقول الله لرسوله : « وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ » فكأن السجود الذى هو أظهر مظاهر الخضوع فى الصلاة هو الذى يقرب الإنسان إلى الله — القرب الذى تقرب به رسول الله إلى ربه فكأن الله سبحانه وتعالى حيا محمداً ﷺ حين قربه منه فى الملأ الأعلى بأن حمله هدية إلى المؤمنين برسول الله لتكون لهم حظاً فى القرب من الله كما كان لرسوله حظه فى القرب منه .

والصلاة قوة لأنها أول صفات المؤمنين ولا ضعف مع الإيمان ومصدر القوة فى الصلاة ناشىء من أن الله تعالى بقوته وتوفيقه « مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » وأول علامات المتقين إقامة الصلاة « ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يؤمنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ » .[١]

ولقد كانت تلك القوة من السمات التى ميزت الرسول ﷺ ومن معه على سائر الناس. كما نبه القرآن إلى ذلك بقوله تعالى: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِين مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) ثم ذكر ما يوضح مظاهر هذه القوة وأسبابها (تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ »[٢]

الصلاة مصدر قوة :

فالصلاة على هذا مصدر قوة للفرد لأنها شعور بالقداسة وبالصلاة يسمو الإنسان إلى الله ويشعر بارتفاع الروح إلى المقام الإلهى — ففى

(١) أول سورة البقرة (٢) الآيه ٢٩ من سورة الفتح .

الحديث القدسى «.. ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه . فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها .. » وحديث قدسى آخر « من تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً ومن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً ومن أتانى يمشى أتيته هرولة » وكلما أمعنت روح المصلى فى ذوق جمال الأنس بالله — انحلت قبضته على المادة — وبذلك يسهم فى بناء القوة النفسية للمسلمين — تلك القوة التى تحررهم من إراقة ماء الوجه وتخلصهم إلى ربهم

وعلى هذا الأساس بنى الإسلام قوة الجماعة الإسلامية يتجلى ذلك فى صلاة الجماعة وصلاة الجمعة وصلاة العيدين ، وتلتئم الوحدة الإسلامية فى مؤتمر عالمى يضم المسلمين جميعاً مع اختلاف أجناسهم وألوانهم بعد أن يتجردوا من كل زينة مولين وجوههم شطر المسجد الحرام طائفين حول البيت الذى يتوجهون إليه فى صلاتهم .

ويمكن لهم بعد ذلك أن يقدموا بنفوس راضية وأرواح مشرقة كل ما يهم المسلمين .

ولقد ضرب الرسول صلوات الله وسلامه عليه أروع الأمثال التربوية للمسلمين — فلقد كان مع يقينه بمنزلته عند ربه يقوم الليل حتى تتورم قدماه . وكان يطيل السجود لربه حتى يظن من يراه أنه قضى .

وكان كما تروى عائشة رضى الله عنها « يكون فى البيت كأحدهم فإذا نودى للصلاة مضى كأن لم يعرفهم قط من قبل »

وكان أصحابه يعطون وقت الصلاة ما له من قداسة — فقد كان على بن أبى طالب إذا قام للوضوء اصفر وجهه فسئل فى ذلك فقال — أتدرون بين يدى من أقوم ؟ .

وعن أنس رضى الله عنه قال — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أول ما افترض الله على الناس من دينهم الصلاة ، وآخر مايبقى الصلاة »

وأول مايحاسب به الصلاة ، ويقول الله: انظروا فى صلاة عبدى فإن كانت تامة كتبت تامة وإن كانت ناقصة قال : انظروا هل لعبدى من تطوع فإن وجد له تطوع تمت الفريضة من التطوع » — والمراد بالنقص ما لا تبطل الصلاة بتركه .

والمتقون الذين يقيمون الصلاة — لهم من تقواهم وصلاتهم الهدى والبصيرة التى تنفذ إلى أعماق الأمور فتضعها فى مواضعها وتجنب الإنسان الشرور والآلام وصدق الله حين قال (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) .

الصلوات المفروضة :

وقد وردت أحاديث كثيرة فى الصلوات المفروضة وكيفيتها وثواب من يؤديها على أكمل وجه حتى يصل إلى درجة المتقين .

فعن عبادة بن الصامت قال : أشهد أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «أتانى جبريل عليه السلام من عند الله تبارك وتعالى فقال: يامحمد إن الله عز وجل يقول لك . إنى قد فرضت على أمتك خمس صلوات من وفاهن على وضوئهن ومواقيتهن وسجودهن فإن له عندى بهن عهدا أن أدخله بهن الجنة ، ومن لقينى قد أنقص من ذلك شيئاً — أو كلمة تشبهها — فليس له عندى عهد إن شئت عذبته وإن شئت رحمته» .

وفى كيفية أداء الصلاه على وجهها الصحيح ما ورد عن أبى هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد — فدخل رجل فصلى ثم جاء فسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم — عليه السلام — وقال : ارجع فصل فإنك لم تصل (فعل ذلك مع الرجل ثلاث مرات) فقال الرجل : والذى بعثك بالحق ما أحسن غير هذا فعلمنى . قال : إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ماتيسر معك من القرآن ثم اركع حتى تطمئن راكعاً ثم ارفع حتى تعتدل قائما ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً

ثم اجلس حتى تطمئن جالساً ثم افعل ذلك فى صلاتك كلها — فإذا فعلت ذلك فقد تمت صلاتك وما انتقصت من هـــذا شيئاً فإنما انتقصته من صلاتك » .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن أسرق الناس من يسرق صلاته لا يتم ركوعها ولا سجودها — وأبخل الناس من بخل بالسلام » .

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال (إن العبد إذا توضأ فأحسن وضوءه ثم صلى فأحسن الصلاة تحاتت عنه ذنوبه كما يتحات ورق هذه الشجرة » .

ويقص مطرف بن عبد الله عن أبيه قال « أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل — يعنى يبكى » وللصلاة أهمية كبرى يوضحها الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول :ـ « إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة » .

وعن مصعب بن سعد رضى الله عنه قال « قلت لأبى : يا أبتاه أرأيت « الذين هم عن صلاتهم ساهون » أينا لا يسهو ؟ أينا لا يحدث نفسه ؟ قال ليس ذلك إنما هو إضاعة الوقت — يلهو حتى يضيع الوقت » .

ويقول الله تعالى « إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ . كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » (١)

وعن أبى أمامة الباهلى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وقربة إلى ربكم ومكفرة للسيئات ومنهاة عن الإثم » .

---

(١) الآيات من ١٥ ـ ١٨ من سورة الذاريات .

والشرع الحنيف دائما يكلف البشر بما لا يشق عليهم فإن كان التكليف فيه مظنة المشقة خفف ذلك أو رفعه قال تعالى «يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ »

ومن أجل هذا شرعت صلاة السفر للمسافة التى تبيح قصر الصلاة وقدروها بثمانين كيلو متراً .

عن ابن عمر قال «صحبت النبى صلى الله عليه وسلم وكان لا يزيد فى السفر على ركعتين (ماعدا صلاة المغرب فإنها تؤدى ثلاثا فى السفر والحضر) .

الأعذار المبيحة لجمع الصلاة :

وقد أباح الشرع الجمع فى السفر — بين الظهر والعصر فى وقت أيهما شاء وبين المغرب والعشاء فى وقت أيهما شاء .

فعن معاذ «أن النبى صلى الله عليه وسلم كان فى غزوة تبوك إذا زاغت الشمس قبل أن يرتحل جمع بين الظهر والعصر ، وإذا ارتحل قبل أن تزيغ الشمس أخر الظهر حتى ينزل للعصر ، وفى المغرب مثل ذلك إن غابت الشمس قبل أن يرتحل جمع بين المغرب والعشاء ، وان ارتحل قبل أن تغيب الشمس أخر المغرب حتى ينزل للعشاء ثم نزل فجمع بينهما » ولم يشق أيضاً على المريض فقد راعى ظروفه الصحية فأباح له أن يصلى فى أى وضع يستريح إليه .

عن عمران بن حصين قال كانت بى بواسير — فسألت النبى صلى الله عليه وسلم عن الصلاة — فقال « صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فمستلقيا ـ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » .

وأباح الصلاة فى وسائل المواصلات حفظا لها وحرصاً على أدائها فى وقتها .

فعن ابن مرة أن النبى صلى الله عليه وسلم انتهى إلى مضيق هو وأصحابه وهو على راحلته والسماء والمطر من فوقهم والبلة من أسفل منهم . فحضرت الصلاة — فأمر المؤذن فأذن وأقام ثم تقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم

على راحلته فصلى بهم يومىء إيماء يجعل السجود أخفض من الركوع » وفى هذا من السعة واليسر مايتفق مع أساس اليسر الذى بنيت عليه الشريعة الإسلامية .

مظاهر التعظيم فى الصلاة :

ولا يفوتنا فى هـذا المقام لفت الأنظار إلى ما احتوت عليه أفعال الصلاة وكيفيتها التى دلت عليها أفعال الرسول وأقواله ، من مظاهر التعظيم التى عرفت ، مفرقة فى أساليب التعظيم التى يقوم بهـا الناس بعضهم لبعض — فالناس يعظم بعضهم بعضاً برفع الأيدى وبالقيام وبالانحناء وبالسجود وبالدعاء وبترداد أقوالهم — يفعل الناس ذلك كله فى تعظيم ملوكهم ورؤسائهم وأرباب النفوذ فيهم . ولـكن لم تجر عادة الناس أن يجمعوا كل تلك الأساليب فى تعظيم أحد منهم — فشرع الله الصلاة اعترافا بنعمته وعظمته وجمع فى كيفيتها جميع ماتفرق عند الناس من أساليب التعظيم — فجعل افتتاحها بإعلان أن « الله أكبر » من كل مايرون تعظيمه مصحوباً ذلك « برفع اليدين » معا على وجه يمثل فيه وضعهما . المعنى الذى استقر فى القلب حينما ينطق اللسان بكلمة التـكبير — ثم جعل من أركانها « القيام » المصحوب بتلاوة آيات من كتابه ، وأوجب فى كل صلاة وعلى كل مصل قراءة « الفاتحة » التى تعتبر أم الـكتاب . وقد جمعت كل ماتفرق فيه نصاً وإشارة ثم الانحناء المعروف باسم « الركوع » مصحوباً بالتـكبير فى الانخفاض والرفع ثم يجىء « السجود » نهاية لمـا يتصوره من وجوه التعظيم . وبذلك يكون العبد قد وقف من ربه فى موضع العبودية الحقة ، وكأن الله بتنظيم أسلوب تعظيمه على هذا الوجه يلفت نظر المؤمنين إلى أن تعظيمه يجب بمقتضى الإيمان بربوبيته وألوهيته أن يكون فوق كل تعظيم عرفه الناس فى تعظيم بعضهم لبعض ، وأن هذه الصورة من التعظيم التى رسمها الله لنفسه لايصح أن يعظم بها غيره ، كما لايصح أن ينتقصها المؤمن أو أن يغير

شيئاً من أوضاعها أو أن يزيدفيها فهوسبحانه المعبود وهو المعظم ،وقد شرع لنا طريق عبادته وأسلوب تعظيمه وليس لأحد من خلقه أن يفكر أو يستظهر شيئاً غير مارسمه فى تعظيمه بزيادة أو نقص .

من أجل هذا وجب الخشوع التام ومراعاة الأدب فى المناجاة فقد روى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن المصلى مناج ربه فلينظر ماينا جيه به ، ولا يجهر بعضكم على بعض بالقراءة » .

الصلاة فيها كل أركان الإسلام :

يقول الشيخ محمد متولى الشعراوى (فى إحدى حلقاته بالتليفزيون) إذا نظرت إلى الصلاة وجدت فيها كل أركان الإسلام ، لأنك لابد فى الصلاة أن تشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ،فالركن الأول مكرر فيها ـ وأيضا إتيان الزكاة — وماهى الزكاة ؟ الزكاة هى شيء من مالى أخرجه للمحتاج ، أى أن تضحى بشيء من مالك ، والمال فى عرف الإسلام فرع الوقت . لأن العمل يحتاج إلى وقت فكأنك ضحيت ببعض مالك الناتج من عملك الناتج من استغلال وقتك ،والصلاة لاتأخذ من المال ولكن تأخذ من الوقت الذى يعمل فيه العمل الذى يأتى بالمال ، فكأن الزكاة أخذت شيئا من المال الناتج عن العمل ،والعمل الناتج عن الوقت ،فالصلاة أخذت من الوقت نفسه ـ من الأساس الأصيل ـ إذاً حينما يأخذ من الأربعة والعشرين الساعة .. ساعة للصلاة ـ يكون قد اقتطع جزءاً من الوقت وجعله للصلاة كما يقتطع جزءاً من المال — إذاً فالزكاة اقتطاع جزء من المال والمال ناشيء عن العمل والعمل يحتاج إلى وقت . فالصلاة تقتطع من الوقت الأساسى . ففيها زكاة أهم من المال . والذى يمنع الناس عن كثير من الصلاة هو أن يقولوا إنها تحتاج إلى وقت وهذا يعطلنا عن مصالحنا !

فيكون ردنا عليهم بأن نقول لهم : كما سمى الله نقصان المال من الزكاة .. زكاة فهو لم يسمه نقصاناً ،ولكن سماه زكاة ونماء . فيجب أن تستقبل أيضاً الوقت الضائع عندك فى الصلاة الذى تقول عليه ضائعاً . استقبالك للمال الناقص يخرج من مالك فهو ينميه ويزيده ولا ينقصه ، فكذلك الوقت إذا

ضحيت منه ببعضه وجعلته لله . فإن البركة فى بقية الوقت ستعوضك كل ما فات، كما أن الزكاة نماء ، والربا محق .

وأيضاً فيها صوم ، وما هو الصوم ؟ الصوم هو الإمساك عن شهوتى البطن والفرج لكن أنا فى الصلاة أمسك عن شهوتى البطن والفرج وعن الحركة وعن الكلام وعن كل شىء إذاً . ففيها لون من الصيام ومتعلقاته فى المنع أوسع من متعلقات الصيام .

وفيها أيضاً حج البيت من استطاع إليه سبيلا لأنك تستحضر - وأنت تصلى - بيت الله فتتجه إليه وتتحرى إليه . ولما كانت الصلاة هى الركن الوحيد الذى لا يسقط عن المسلم جاءت فيها كل الأركان، من شهادة ألا إله إلا الله ومن الزكاة بشىء أفيد من المال ، بل بالوقت الذى يأتى بالمال، ومن صوم صمته فوق ما تصوم فى رمضان، واستحضار لبيت ربك فى كل وقت من الأوقات، فكأنك حججت بقلبك وإن عجزت عن أن تحج بنفسك .

أنت مطلوب منك أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله مرة فى حياتك ،وبعد ذلك قد لا تزكى إذا كنت فقيراً أو قد تمرض أو تسافر فلا تصوم وقد تكون غير مستطيع للحج فلا تحج ، فما الذى بقى لك من أركان الإسلام؟ بقى لك الصلاة وهى الركن المكرر وهذا هو معنى الحديث الشريف « الصلاة عماد الدين » . اه

وبعد : فعلينا أن نتذكر دائماً قوله صلى الله عليه وسلم : « صلوا صلاة مودع لا يصلى بعدها غيرها » .

وذلك بأن يصلى المصلى وهو متلبس بمشهد رهيب هو مشهد المودع للحياة الذى يلقى النظرة الأخيرة على دنياه استعداداً للدخول فى مشهد آخر، يمعن فى العمق بعيداً عن النطاق المادى للحياة . ألا وهو الدخول فى نطاق روحى خالص تشير إليه الكلمات الشريفة « صلاة مودع » وكان صلى الله عليه وسلم يتغير تغيراً مفاجئاً حينما يستمع نداء الصلاة حتى إنه كان يمضى لتوه وكأن لم يعرف أحداً ممن كان يحدثهم بالمنزل من قبل ، كما روت عائشة رضى الله عنها .

(٢) التقوى فى الصوم

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »(١)

الصوم من سبل التقوى الموصلة إلى مرضاة الله . فهو يعلم الناس كيف يترفعون عن مظاهر الحيوانية حتى يصلوا إلى مستوى الملائكة — غذاء أرواحهم مراقبة الله وعبادته وتقواه .

وينمى فى النفوس فضائل تحقق السعادة فى الدنيا والآخرة ويربى فيهم ملكة الصبر واحتمال الشدائد والجلد أمام العقبات ومكاره الحياة ومقاومة الأهواء .

ويخلص النفوس من الانهماك فى متع الدنيا وزخارفها ، حتى لا تطغى المادية ويشتد سلطانها على سلوك الناس فى هذه الحياة .

فضل الصوم :

وقد ورد فى فضل الصوم أحاديث كثيرة . فعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله عز وجل : كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزى به — الصيام جنة فاذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ولا يجهل فإن شاتمه أحد أو قاتله فليقل إنى صائم مرتين - والذى نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله يوم القيامة من ريح المسك وللصائم فرحتان يفرحهما : إذا أفطر فرح بفطره ، وإذا لقى ربه فرح بصومه » .

وإضافة الصوم إلى الله فى الحديث إضافة تشريف — وأى شرف للإنسان أعظم من أن يتقرب إلى الله بأى وسيلة ؟

---

(١) الآية ١٨٣ من سورة البقرة .

وأى وسيلة أعظم من تصفية النفوس من الشوائب وترفعها عن الدنايا والخطوب ؟

وأى عمل أفضل للمرء فى هذه الحياة من تهذيب نفسه وتربيتها على حسن المعاملة حتى تسود المحبة ويتحقق التعاون ؟!

وقال صلى الله عليه وسلم « إن الجنة لتتجمل وتزين من الحول إلى الحول لدخول شهر رمضان فإذا كانت أول ليلة من شهر رمضان هبت ريح من تحت العرش يقال لها : المثيرة فتصفق لها أوراق أشجار الجنة وحلق المصاريع، فيسمع لذلك طنين لم يسمع السامعون أحسن منه فتبرز الحور العين حتى يقفن بين شرف الجنة فينادين : هل من خاطب إلى الله فنزوجه ؟ ويقول الله : يارضوان افتح أبواب الجنان، ويامالك أغلق أبواب الجحيم »

أما فضله وثوابه فى الآخرة ـ فيحدثنا عنه رسول الله صلى الله عليه فيقول « الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة ـ يقول الصوم : أى ربى منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعنى فيه. ويقول القرآن منعته النوم بالليل فشفعنى فيه فيشفعان » .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا يصوم عبد يوماً فى سبيل الله إلا باعد الله بذلك اليوم النار عن وجهه سبعين خريفاً » .

ويتساوى فى نيل هذا الفضل صيام الفرض أوصيام التطوع .

ففى حديث طلحة بن عبيد الله « أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله أخبرنى عما فرض الله على من الصيام ؟ قال: شهر رمضان. قال: هل على غيره ؟ قال: لا : إلا أن تطوع »

تخصيص شهر رمضان بشريعة الصيام :

وقد خص شهر رمضان بشريعة الصيام لما له من منزلة عظيمة بين أشهر

السنة،فقد اختاره الله لإنزال القرآن الذى هو فى جملته هداية عامة للناس، فيجب أن ترعى حرمته، وشريعة الصوم تتناسب مع حال القرآن ودعوته وتتفق مع أهدافه وغاياته، والحكمة من إنزاله.فإن القرآن هدى ونور، يحث على التقوى والرحمة وعلى العدل والمساواة.وإحسان المعاملة والمعاشرة،وتطهير النفس من الخداع والغش والنفاق .

ومن أجل هذا كان حملة القرآن أكرم الخلق عند الله . فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: « أكرموا حملة القرآن، فمن أكرمهم فقد أكرم الله، ألا فلا تنقصوا حملة القرآن حقوقهم فإنهم من الله بمكان ـ كاد حملة القرآن أن يكونوا أنبياء إلا أنه لا يوحى إليهم » .

وكذلك الصيام فإنه يبعث على الإحسان والرحمة وعلى الصدق والإخلاص ومراقبة الله ويمرن النفس على الصبر، وعلى جمع الهمة وبذل الجهد لتذليل الصعاب، وهو أحسن مبصر بحكمة تنزيل القرآن، وخير مساعد على الاهتداء بهديه، والانتفاع بتعاليمه وإرشاداته .

ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يعنى بتعظيم هذا الشهر بكثرة العبادة وكان يكثر فيه من البر والإحسان وتلاوة القرآن .

وقد وردت أحاديث كثيرة تحث على العناية بصيام هذا الشهر، وبيان ما فيه من خير . فقد روى عن أبى هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم،قال لما حضر رمضان: « قد جاءكم شهر مبارك افترض الله عليكم صيامه تفتح فيه أبواب الجنة وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغل فيه الشياطين . فيه ليلة خير من ألف شهر من حرم خيرها فقد حرم »

لمن يباح الفطر ؟

وفى الترهيب من الفطر فى رمضان ما ورد عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « عرى الإسلام وقواعد الدين

ثلاثة - عليهن أسس الاسلام ، من ترك واحدة منهن فهو بها كافر حلال الدم : شهادة أن لا إله إلا الله والصلاة المكتوبة ، وصوم رمضان »

وعلى هذا فلا يصح الفطر إلا لعذر قهرى، قال تعالى : « فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ . وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ »(١) .

وهذه حالات إباحة الفطر — فالمرض الشديد الذى يزيد بالصوم أو يخشى تأخر برئه ، إما بالتجربة أو بإخبار الطبيب الثقة أو بغلبة الظن . يبيح الفطر .

وإذا صام المريض وتحمل المشقة صح صومه إلا أنه يكره له ذلك لإعراضه عن الرخصة التى يحبها الله - وقد يلحقه بذلك ضرر - والسفر المبيح للفطر هو السفر الذى تقصر الصلاة بسببه .

وقد روى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : سافرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ونحن صيام . قال : فنزلنا منزلا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنكم قد دنوتم من عدوكم والفطر أقوى لكم فكانت رخصة . فمنا من صام ومنا من أفطر ثم نزلنا منزلا آخر ، فقال : إنكم مصبحوا عدوكم والفطر أقوى لكم فافطروا فكانت عزمة ، فأفطرنا ثم رأيتنا نصوم بعد ذلك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السفر » .

ورأى أبو حنيفة والشافعى ومالك : أن الصيام أفضل لمن قوى عليه . والفطر أفضل لمن لا يقوى على الصيام .

---

(١) الآية ١٨٤ من سورة البقرة .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى مكة عام الفتح فصام حتى بلغ كراع الغميم (اسم واد أمام عسفان) وصام الناس معه فقيل له : إن الناس قد شق عليهم الصيام وإنهم ينظرون فيما فعلت فدعا بقدح من ماء بعد العصر فشرب والناس ينظرون إليه فأفطر بعضهم وصام بعضهم فبلغه أن ناساً صاموا فقال : « أولئك العصاة » لأنه عزم عليهم فأبوا وخالفوا الرخصة .

ويرخص الفطر للشيخ الكبير والمرأة العجوز وأصحاب الأعمال الشاقة الذين لايجدون متسعاً من الرزق غير مايزاولونه من أعمال .

وقال الإمام محمد عبده : فالمراد بمن « يطيقونه » فى الآية الشيوخ الضعفاء والزمنى ونحوهم . كالفعلة الذين جعل الله معاشهم الدائم الأشغال الشاقة ، كاستخراج الفحم الحجرى من مناجمه ، ومنهم المجرمون الذين يحكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة إذا شق الصيام عليهم بالفعل وكانوا يملكون الفدية) اهـ .

وفى الحديث « إن الله وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة وعن الحبلى والمرضع الصوم » .

وكان ابن عباس يقول لأم ولد له حبلى : « أنت بمنزلة الذى لا يطيقه ، فعليك الفداء ولا قضاء عليك » .

هذا وينبغى لولى أمر الصبى أن يأمره بالصوم ليعتاده من الصغر مادام مستطيعاً له وقادراً عليه .

وقد روى عن الربيع بنت معوذ قالت : أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيحة عاشوراء إلى قرى الأنصار (من كان صائماً فليتم صومه ومن كان أصبح مفطراً فليصم بقية يومه) فكنا نصومه بعد ذلك ونصوم صبياننا الصغار منهم ، ونذهب إلى المسجد فنجعل لهم اللعبة من العهن (الصوف) فإذا بكى أحدهم من طعام أعطيناه إياها حتى يكون عند الإفطار .

فإذا كان ذلك فى صيام التطوع ، ففى صيام الفرض أولى ، حتى يعتاد الصوم - والصوم وسيلة من وسائل التقرب إلى الله ، فيجب أن نحببه فى العبادة ونسلك به السبيل الذى يوصله إلى مرضاة الله - ومما يثير الأسى ما نشاهده هذه الأيام من وقاحة القادرين على الصوم من الشباب والكبار وتناولهم الطعام جهاراً نهاراً وعلى قارعة الطريق ، وكأنهم يتحدون بذلك الصائمين ونسوا رقابة الله ومشاهدته لهم ، ولم يرتدعوا عما يفعلون - وأولئك فى الأذلين ، ولو تنبهوا جيداً لقول الله تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »

وإلى قول رسول الله ﷺ « من أفطر يوماً من رمضان فى غير رخصة رخصها الله له لم يقض عنه صيام الدهر كله وإن صامه » - لو عرفوا ذلك كله ما أفطروا يوماً واحداً . فقد ألزم الله القادر الصوم فكيف يخالف رب العزة فيما يأمر به ؟ وكيف يلقاه يوم القيامة ؟ .

إن الصوم عبادة قديمة كتبها الله وفرضها على الأمم السابقة . فليس خاصاً برسالة دون رسالة ، وربما كان شأناً فطرياً يشعر بالحاجة إليه فى فترات متتابعة أو متفرقة كل كائن حى .

الصوم الذى يريده الله :

هل الصوم المطلوب هو الإمساك عن الطعام والشراب والملابسة الجنسية كما يظن كثير من الناس ؟ .

إن الله تعالى يقول : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »

فالنداء بوصف الإيمان الذى هو أساس الخير ومنبع الفضائل ، وذكر التقوى آخراً ، وهى روح الإيمان ، إرشاد قوى ودلالة واضحة على أن الصوم المطلوب

ليس هو مجرد الإمساك عن الطعام والشراب وإنما هو الإمساك عن كل ما ينافى الإيمان ولا يتفق مع فضيلة التقوى .

فالذى يتجه إلى غير الله بالرجاء لا صوم له ، والذى يفكر فى الخطايا ويشتغل بتدبير الفتن والمكائد لا صوم له ، والذى يطوى قلبه على الحقد والحسد أو العمل على تفريق الجماعة لا صوم له ، والذى يحابى الظالمين ويجامل السفهاء لا صوم له ، والذى يمد يده أو لسانه أو جوارحه بالإيذاء لعباد الله أو إلى انتهاك حرمات الله لا صوم له ، والذى يأكل أموال الناس برشوة أو اختلاس أو خلو رجل أو باستغلال الظروف ـ أو بإخفاء السلع أو رفع أسعارها لا صوم له والرئيس الذى يستبد بمرءوسيه لا صوم له .

هذا هو معنى الصوم : صورته ـ الإمساك عن المفطرات ، ومعناه ـ تقوية روح الإيمان بالمراقبة .

والرسول ﷺ يقول « من لا يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » ، وعلينا أن نتذكر دائماً قول الله تعالى : « إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ »

بهذا تتحقق حكمة الله فى التعبد بالصوم ـ فبه يزكو القلب وتصفو النفس وتتهذب الووح ويصير الانسان منبعاً فياضاً للخير على نفسه وعلى مجتمعه ـ وبهذا يقترب من الملأ الأعلى .

درجات الصوم :

وقال الإمام الغزالى : (إن الصوم ثلاث درجات ـ صوم العموم ـ وصوم الخصوص ـ وصوم خصوص الخصوص) .

أما صوم العموم فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة ـ وأما صوم الخصوص فهو كف السمع والبصر واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام ـ وأما صوم خصوص الخصوص : فصوم القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية

ويحصل الفطر فى هذا الصوم بالفكر فيما سوى الله عز وجل واليوم الآخر. وبالفكر فى الدنيا - إلا دنيا تراد للدين. فإن ذلك من زاد الآخرة وليس من الدنيا .

وصوم الخصوص الذى هو كف الجوارح إنما يأتى بغض البصر وكفه عن الاتساع فى النظر إلى مايذم ويكره ، وإلى كل ما يشغل القلب ويلهى عن ذكر الله عز وجل ، ففى الأثر « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس - لعنه الله - فمن تركها خوفا من الله آتاه الله عز وجل إيماناً يجد حلاوته فى قلبه » .

وعن بعض السلف (خمس يفطرن الصائم : الكذب والغيبة والنميمة واليمين الكاذبة والنظرة بشهوة) ومعنى الفطر ضياع الثواب - وإن كان الصوم صحيحاً فى نظر الفقهاء .

وقال أبو حامد الغزالى (لا يتم صوم الصالحين إلا بعدم الإكثار من الطعام الحلال وقت الإفطار بحيث يمتلىء جوفه . . . فمن جعل بين قلبه وبين صدره مخلاة من الطعام فهو عن الملكوت محجوب . ومن أخلى معدته فلا يكفيه ذلك لرفع الحجاب ، بل لا بد من التوجه بكل همته إلى الحق عز وجل والتبتل إليه بالخشوع والخضوع) وإنما يكون ذلك بالذكر والفكر ومدارسة القرآن والاعتكاف فى المسجد لا سيما فى العشر الأواخر من رمضان فقد روى عن عائشة رضى الله عنها (كان ﷺ إذا دخل رمضان كثرت صلاته وابتهل فى الدعاء وأشفق لونه) - أى تغير لونه حتى صار مثل الشفق .

وتقول اذ (كان إذا دخل العشر شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله) .

ليلة القدر :

فى هذه الليالى العشر ليلة مباركة هى ليلة القدر « إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ . لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ . تَنَزَّلُ

ٱلْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ . سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ » [١]

وقد قال فى تفسير هذه الآيات الإمام الشيخ محمد عبده (سميت ليلة القدر ـ إما بمعنى ليلة التقدير لأن الله ابتدأ فيها تقدير دينه وتحديد الخطة لنبيه فى دعوة الناس إلى ما ينقذهم مما كانوا فيه ـ وإما بمعنى العظمة والشرف . . . لأن الله قد أعلى فيها منزلة نبيه وشرفه وعظمه بالرسالة ـ وكرر ذكرها فى السورة ثلاث مرات. ثم أتى بالاستفهام الدال على أن شرفها ليس مما تسهل الإحاطة به ـ ثم قال إنها خير من ألف شهر ، لأنه قد مضى على الأمم آلاف من الشهور وهم يتخبطون فى ظلمات الضلال . فليلة يسطع فيها نور الهدى خير من ألف شهر من شهورهم الأولى ـ ومن بعض مزاياها ـ أن أول عهد للنبى ﷺ بشهود الملائكة كان فى تلك الليلة ـ تنزلت من عالمها الروحانى الذى لا يحده حد ولا يحيط به مقدار ، حتى تمثلت لبصره ﷺ ـ والروح هو الذى يتمثل له مبلغا للوحى وهو الذى سمى فى القرآن بجبريل (من كل أمر) أى أن الله يظهر الملائكة والروح لرسله عند كل أمر يريد إبلاغه إلى عباده (سلام هى حتى مطلع الفجر) أى أنها كانت ليلة سالمة من كل شر وأذى ـ والإخبار عنها بالسلام نفسه ـ وهو الأمن والسلامة ـ للمبالغة فى أنه لم يشبها كدر) اهـ .

فهى ليلة عبادة وخشوع وتذكر لنعمة الحق والدين ، فلا تكون ليلة زهو ولهو تتخذ فيها مساجد الله مضامير للرياء يتسابق إليها المنافقون . كما جرى عليه عمل المسلمين فى هذه الأيام ـ فإن كل ما حفظوه من ليلة القدر هو أن تكون لهم فيها ساعة سمر يتحدثون فيها بما لا ينظر الله إليه ، أو يسمعون شيئاً من كتاب الله لا ينظرون فيه ولا يعتبرون بمعانيه ـ بل إن أصغوا إليه

---

(١) سورة القدر .

فإنما يصغون لنغمة تاليه ولهم خيالات فى ليلة القدر لاتليق بعقول الأطفال، فضلا عن الراشدين من الرجال .

وعلينا أن نذكر قول الرسول صلى الله عليه وسلم « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر الله له ما تقدم من ذنبه » .

وقيام هذه الليلة إنما المراد به دوام العبادة الحقة من تلاوة القرآن والصلاة والخشوع والتضرع والابتهال فى الدعاء . كما كان يفعل النبى صلى الله عليه وسلم .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « قلت يا رسول الله ، أرأيت إن علمت أى ليلة ليلة القدر ما أقول فيها ؟ قال : قولى : اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنى » .

وقد جاء فى الحديث عن ابن عباس رضى الله عنهما « أن الله تعالى ينظر ليلة القدر إلى المؤمنين من أمة محمد فيغفر لهم ويرحمهم إلا أربعة : مدمن خمر وعاقا ومشاحنا وقاطع رحم » .

وعنه أنه قال : إذا كان ليلة القدر يأمر الله جبريل أن ينزل إلى الأرض ومعه سبعون ألف ملك ومعهم ألوية من نور، فإذا هبطوا إلى الأرض ركز جبريل لواءه والملائكة ألويتهم فى أربعة مواطن: عند الكعبة وقبر النبى صلى الله عليه وسلم ومسجد بيت المقدس وطور سيناء - ثم يقول جبريل : تفرقوا . فيتفرقون ولا يبقى دار ولا حجرة ولا بيت ولا سفينة فيها مؤمن أو مؤمنة إلا دخلت الملائكة فيها، إلا بيت فيه كلب أو خنزير أو جنب من حرام أو صورة تماثيل . فيسبحون ويقدسون ويهللون ويستغفرون لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا كان وقت الفجر . ثم يصعدون إلى السماء فيستقبلهم سكان سماء الدنيا فيقولون لهم : من أين أقبلتم ؟ فيقولون : كنا فى الدنيا لأن الليلة ليلة القدر لأمة محمد صلى الله عليه وسلم فيقولون - ما فعل الله بحوائج أمة محمد فيقول جبريل : إن الله تعالى غفر لصالحيهم وشفعهم فى طالحيهم ، فترفع ملائكة

السماء الدنيا أصواتهم بالتسبيح والتقديس والثناء على رب العالمين شكراً لما أعطى هذه الأمة من المغفرة والرضوان ، ثم تشيعهم ملائكة السماء الدنيا إلى الثانية ثم كذلك إلى السابعة ... فترفع سكان سدرة المنتهى أصواتها بالتسبيح والتهليل فتسمع الجنات ويسمع عرش الرحمن فيرفع صوته بالتسبيح والتهليل والثناء على رب العالمين شكراً لما أعطى هذه الأمة ، ثم يقول الله : عندى من الكرامة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » .

جزاء الصائمين :

وفى الحديث «إذا كان يوم الفطر هبطت الملائكة إلى الأرض فيقومون على أفواه السكك وينادون بصوت يسمعه جميع من خلق الله إلا الجن والإنس. يقولون: أمة محمد اخرجوا إلى رب كريم يعطى الجزيل ويغفر الذنب العظيم . فإذا برزوا إلى مصلاهم يقول الله عز وجل للملائكة ، ياملائكتى ما جزاء الأجير إذا عمل عمله ؟ فيقولون إلهنا وسيدنا جزاؤه أن يوفى أجره. فيقول تعالى : أشهدكم أنى غفرت لهم ، فمن وفى ما عليه من العمل كاملا وفى له الأجر كاملا ، ومن نقص من العمل الذى عليه نقص من الأجر بحسب نقصه ، فلا يلم إلا نفسه ».

ولقد كان السلف الصالح يجتهدون فى إكمال العمل وإتمامه وإتقانه وتحدث عنهم على رضى الله عنه فيقول : كانوا لقبول العمل أشد اهتماماً منكم بالعمل ألم تسمعوا الله عز وجل يقول : « إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ » .

(٣) التقوى فى الزكاة

قال تعالى : « ورحمتى وَسِعَتْ كلَّ شىْء فسأكْتُبُها للَّذِينَ يتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ والَّذِين هُم بآياتِنَا يُؤْمِنُونَ »[١] .

المال هو عماد الأمم وقوامها ووسيلة سعادتها ، يمهد لصاحبه سبل

(١) الآية ١٥٦ من سورة الأعراف .

الحياة ويعينه على كثير من جلائل الأعمال . فالغنى قادر على الزكاة وأداء الحج ، والإنفاق فى سبيل الله ، والمال وسيلته لتحقيق هذه الفضائل .

يؤيد ذلك ماحدثنا به أبو هريرة رضى الله عنه « أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا له يارسول الله : ذهب الأغنياء وذوو اليسار بالدرجات العلا والنعيم المقيم - يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ولهم فضل من أموالهم يحجون ويعتمرون ويجاهدون ويتصدقون - فقال لهم صلى الله عليه وسلم : ألا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ماصنعتم ؟ قالوا : بلى يارسول الله - قال : تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثا وثلاثين : فقاموا من عنده فرحين مستبشرين. ثم رجعوا إليه بعد أيام فقالوا : يا رسول الله سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله . فقال صلى الله عليه وسلم : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

الحث على السعى وراء الرزق :

ومن أجل هذا نجد أن الدين قد حث على السعى فى طلب الرزق وابتغاء المال من طريق مشروع حتى لا يكون فى المجتمع من يعيش عالة على غيره ينتظر من يجود عليه بالإحسان وقد دعا القرآن الكريم إلى السعى وراء الرزق فى أكثر من آية :

قال تعالى : « هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ »(١) .

أى جعلها مذللة يسهل السير فيها فامشوا فى جوانبها وكلوا من رزقه، وإليه البعث الأخير لمحاسبتكم على مدى استجابتكم لهذا الأمر .

وفى آية أخرى : « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »(٢) .

(١) الآية ١٥ من سورة الملك (٢) الآية ١٠ من سورة الجمعة

وقد كان المسلمون فى العهد الأول يبتغون كسب المال من وجوهه المشروعة يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله ، وأنفقوا المال فى كل ما ينفع المسلمين . فأسسوا المساجد وجندوا الجنود وساعدوا الغزاة والفاتحين .

ولم يقبل أحد أن يعيش على مال أخيه ـ وخير مثل لذلك عبد الرحمن ابن عوف ، وهو من أجلاء الصحابة ومن العشرة المبشرين بالجنة ـ فحينما هاجر من مكة مع من هاجر ،وآخى الرسول صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ـ عرض الأنصارى نصف ماله على أخيه عبد الرحمن بن عوف فأبى ـ وقال له : بارك الله لك فى مالك ولكن دلنى على السوق .وأخذ يتاجر ويربح حتى زاد ماله وأصبح مضرب المثل فى الغنى واليسار . ولم يبخل بماله على متطلبات المجتمع الإسلامى .

أثر المال فى شباب اليوم :

ولكن ما نلاحظه الآن . أن المال إذا زاد على حاجة صاحبه زيادة فاحشة . قاده إلى الشر . فانغمس فى الملذات والشهوات ، وعكف على موائد اللهو والقمار وسعى فى الأرض بالفساد .واتخذه المال وسيلة لنيل مآربه الدنيئة. فأذل من أراد إذلاله . بل وربما يتتأجر من يمعن فى الاذلال .

وصدق الله العظيم إذ يقول : « كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى . أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى »(١) . ويقول«وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ »(٢) .

ومن أجل ذلك وضع الإسلام علاجاً لهذه المشكلة وشرع ما هو كفيل بالقضاء على سلطان المال ففرض الزكاة وجعلها حقاً واجب الأداء للمستحقين « فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ.وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلاَ يَرْبُو عند اللهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ»(٣) أى ذوو الأضعاف المضاعفة من الثواب ، فالزكاة عون المؤمن فى

(١) الآيتان ٦ ـ ٧ من سورة العلق (٢) الآية ٢٧ من سورة الشورى
(٣) الآيتان ٣٨ — ٣٩ من سورة الروم

التخلص من سيطرة المادة وتقديمها على حب المؤمن أخاه المؤمن - فالبناء الصلب يتكون من معاونة المؤمن لأخيه والمال مادة هذا البناء .

أما إذا وقع الإنسان أسيراً للمادة - انحرف سلوكه نحوها وقضى على نفسه بأن يخدمها ويضحى من أجلها بنفسه وبأخيه وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » وعلى هذا فعلى المؤمن حق لأخيه المؤمن يجب عليه أداؤه لحفظ التوازن فى هذا المجتمع .

وقد أوضح هذا الحديث منزلة الغنى الممسك فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم « التقى مؤمنان على باب الجنة مؤمن غنى ومؤمن فقير كانا فى الدنيا فأدخل الفقير الجنة وحبس الغنى ما شاء الله أن يحبس ثم أدخل الجنة فلقيه الفقير - فقال : أى أخى : ماذا حبسك ؟ والله لقد احتبست حتى خفت عليك ، فقال : أى أخى إنى حبست بعدك محبسا فظيعا كريها ما وصلت إليك حتى سال منى من العرق ما لو ورده ألف بعير كلها آكلة حمض - لصدرت عنه رواء » رواه أبو هريرة .

الزكاة سبيل الفلاح :

وهذا هو سبيل الفلاح الذى حدثنا عنه القرآن « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ، وَالَّذِين هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ » (١)

وقد جعل الله الزكاة طهرة للمال ولصاحبه - فما زالت النعمة بالمال ممن

---

(١) أول سورة المؤمنون

أدى زكاته - بل يدفع الله بها الآفات ويجعلها حصناً للمال وقد أوجبها الله مرة كل عام . إذ وجوبها كل شهر أو كل جمعة يضر بأرباب الأموال ، ووجوبها فى العمر مرة مما يضر بالمساكين - وقد فاوت، بين مقادير الواجب بحسب سعى أرباب الأموال فى تحصيلها .

وقد اقتضت حكمته تعالى أن جعل فى الأموال قدراً يحتمل المواساة ولا يجحف بها ،ويكفى المساكين ولا يحتاجون معه إلى شيء ففرض فى أموال الأغنياء ما يكفى الفقراء .

مصارف الزكاة :

وقد تولى رب العزة قسمة الصدقة بنفسه وجزأها ثمانية أجزاء يجمعها صنفان من الناس ، أحدهما من يأخذ بحاجته فيأخذ بحسب شدة الحاجة وضعفها وكثرتها وقلتها وهم الفقراء والمساكين وفى الرقاب وابن السبيل ، والثانى من يأخذ لمنفعته وهم العاملون والمؤلفة قلوبهم والغارمون لإصلاح ذات البين والغزاة فى سبيل الله .

وكان صلى الله عليه وسلم ينهى المتصدق أن يشترى صدقته ، وكان يبيح للغنى أن يأكل من الصدقة إذا أهداها إليه الفقير - وكان أحيانا يستدين لمصالح المسلمين على الصدقة وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بزكاة الفطر أن تؤدى قبل خروج الناس إلى الصلاة .

وكان أعظم الناس صدقة بما ملكت يده ، وكان لا يستكثر شيئا أعطاه لله تعالى ولا يستقله ولا يسأله أحد شيئا عنده إلا أعطاه قليلا كان أو كثيرا ، وكان عطاؤه عطاء من لا يخاف الفقر ، وكان العطاء والصدقة أحب شيء إليه وكان سروره وفرحه بما يعطيه أعظم من سرور الآخذ بما يأخذه ، وكان إذا عرض له محتاج آثره على نفسه . ولنا فى رسول الله أسوة حسنة

فهو إمام المتقين. وعلينا أن نذكر قول الله تعالى « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ »(١) أى لن تنالوا ثواب الله ورحمته ورضاه حتى تنفقوا فى سبيل الله بعض ما تحبون ـ وهكذا كان السلف الصالح إذا أحبوا شيئا جعلوه لله عز وجل .

وروى أنه لما نزلت هذه الآية جاء أبو طلحة فقال : يارسول الله إن أحب أموالى إلى (بير حاء) فضعها يارسول الله حيث أراك الله. فقال عليه السلام « بخ بخ ذاك مال رابح وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين » فقسمها فى أقاربه. وفى ذلك دلالة على أن إنفاق أحب الأموال على أقرب الأقارب أفضل .

جزاء من تزكى :

وقد عرف دين الإسلام اختلاف طبائع البشر ـ فمن الناس من يعبد الله طمعاً فى ثوابه ـ ومنهم من يعبده خوفا من عقابه فعالج كلا بما يليق به ـ وطالب هؤلاء جميعا بالزكاة وخاطب كل فريق بالأسلوب الذى يكون له أعظم الأثر فى نفسه فالراغبون فى الثواب خاطبهم رب العزة بقوله : « مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ »(٢) .

والذين يخافون العقاب خاطبهم بقوله « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »(٣)

---

(١) الآية ٩٢ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ٢٦١ من سورة البقرة .
(٣) الآية ١٨٠ من سورة آل عمران .

أما المتقون فيوضح لهم طريق التقوى فى الزكاة حتى يكون لهم الأجر العظيم « الّذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُم فى سَبِيلِ اللهِ ثُمّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلاَ أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ـ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ـ يَأَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالّذِى يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَومِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَىْءٍ مِمّا كَسَبُوا وَاللهُ لاَ يَهْدِى القَوْمَ الكَافِرِينَ ـ وَمَثَلُ الّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ »[١] .

فقد بين الله سبحانه وتعالى فى هذه الآيات الثواب العظيم بضرب المثل وتوضيح طرق الإحسان فى الصدقة .

فلا يتطاول المحسن على من أحسن عليه بسبب إنعامه ولا يؤذيه بأى لون من ألوان الإيذاء . فى ذلك إحباط لأجر الصدقة، وقد مثل الذى ينفق ماله رياء فيضيع ثوابه ـ بالحجر الأملس عليه شىء يسير من التراب فأصابه مطر عظيم فتركه أملساً ليس عليه شىء من الغبار أصلا ، وفى هذا تصوير لعدم المنفعة بما يفعله الشخص رياء فلا يجد ثواباً له .

أما من بذل ماله لوجه الله تعالى فقد أثبت أنه صادق الإيمان ومثل نفقته فى الزكاة كمثل بستان كائن بمكان مرتفع مأمون من أن يصطلمه البرد ـ للطافة هوائه بهبوب الرياح الملطفة له فإن أشجار الربا تكون أحسن منظرا وأزكى ثمراً ، وأما الأراضى المنخفضة فقلما تسلم ثمارها من البرد لكثافة هوائها بركود الرياح ، فنفقته زاكية عند الله لاتضيع بحال ، وإن

(١) الآيات ٢٦٢ ـ ٢٦٥ من سورة البقرة .

كانت تتفاوت باعتبار ما يقارنها من الأحوال (اهـ . تفسير أبي السعود) .

وقد ختمت الآيات بما يرغب في الإخلاص مع تحذير من الرياء ونحوه ، فالله سبحانه بصير بما تعملون لا يخفى عليه شيء منه « والله بما تعملون بصير » .

ما يجب فيه الزكاة :

وقد اتفق الفقهاء على أن المال الذى تجب فيه الزكاة ، هو المال (النامى بالفعل) كالحيوانات والأرض وعروض التجارة (أو المال النامى بالقوة) كالنقود . فالواجب على مالكها ألا يتركها فى الخزائن دون استثمار ، ولذلك أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالاتجار فى مال اليتيم وقال « اتجروا فى مال اليتيم حتى لا تأكله الصدقة » .

ولا تؤخذ الزكاة من الأموال غير النامية المعدة للانتفاع الشخصى لمالكها - ولا يثبت المال النامى سببا لوجوب الزكاة إلا إذا بلغ نصاباً بالنسبة للأموال المنقولة مع مرور عام عليها ، وهى فى ملك صاحبها ليتحقق النماء بالفعل ، وعلى ذلك تكون أدوات الصناعة التى بها النماء والإنتاج أموالا نامية وكذلك العمائر التى تبنى للاستغلال والزكاة تؤخذ من غلاتها - ومالك الأسهم الذى يتجر فيها ولا يتخذها للاقتناء وتكون كعروض التجارة - يجب عليه الزكاة عنها وتدفع الزكاة عن الأصل والزيادة ، وقدر النصاب الواجب فيه الزكاة - ما يعادل عشرين ديناراً من الذهب - أو ما يعادل مائتى درهم من الفضة - وربما يعادل ذلك (فى رأيى) خمسين جنيها تقريبا فى زماننا هذا لارتفاع الأسعار - وإن كان بعض الفقهاء يقدرونه بما يعادل أحد عشر جنيها تقريبا - والقانون العام إخراج اثنين ونصف فى المائة .

وفى مال التجارة ربع العشر - أما فى الزروع والثمار - فالزكاة واجبة فى كل ما تنبته الأرض - فإن سقيت بالآلات ففيها نصف العشر - وإن سقيت بغير ذلك كالمطر ففيها العشر .

ويكره نقل الزكاة من مكان المال إلى مكان آخر إلا إذا كان المنقول إليه قريبا للمزكى أو كان أحوج ممن هو معه فى البلد .

أما زكاة الفطر :

فتجب على القادر الذى يوجد لديه فائض عن قوته وقوت من يعوله يوم الفطر ، عند بعض المذاهب ، ويخرج الزكاة عن كل شخص ملتزم بالانفاق عليه حتى الخادم ، وتجب هذه الزكاة بطلوع فجر يوم الفطر عند بعض المذاهب وبغروب الشمس من اليوم الأخير من رمضان عند البعض الآخر - ويجوز تعجيلها قبل ذلك .

ويخرج عن كل فرد (قدحين وثلثا) من القمح - أو قيمة ذلك عند أبى حنيفة .

ولا تصرف لأصول المزكى وفروعه .

واجب الحاكم :

هذا وما دامت الزكاة فريضة شرعية وركن من أركان الإسلام فيجب أداؤها وللامام (الحاكم) أن يتولى جمعها وتحصيلها ويعين من يتولى ذلك عملا بقوله صلى الله عليه وسلم « خذها من أغنيائهم وردها على فقرائهم » .

وقاتل أبو بكر الصديق الذين امتنعوا عن أدائها . وأعلنها صراحة : « والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه » .

وقد أنشىء بمصر بنك ناصر الاجتماعى ـ لخدمة المعوزين من أبناء الوطن ـ ومن نشاطه تحصيل الزكاة ـ يتوجه إليه الراغبون فى تطهير أموالهم بالزكاة ـ يؤدون ما فرض الله عليهم ـ ويتولى البنك صرف هذه الأموال فى وجهها الصحيح ـ وحبذا لو وجد فى كل حى من الأحياء أو قرية من القرى من يتولى تحصيل أموال الزكاة ـ ثم تتكون هيئة أهلية من أبناء الحى من المتفقهين والعارفين بالمستحقين ـ تتولى توزيع المتحصل على من يوجد من الأصناف الثمانية التى ورد ذكرها فى الآية السابقة والتى أوضحت مصارف الزكاة .

وهذا هو التكافل الاجتماعى الذى جعله المشرع خير علاج للفقر والعجز . وإذا ما تحقق ذلك تجمعت القلوب المتفرقة وتآلفت النفوس المتنافرة وساد الأمن والاستقرار وقضى على كثير من الجرائم التى يبعث عليها الفقر.

والزكاة فى نظر الإسلام صرف بعض أموال الأمة ممثلة فى أغنيائها إلى الأمة نفسها ممثلة فى فقرائها ولعل هذا ما توحى به الآية الكريمة « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ... » والآية الأخرى « وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ... » فكل من بيده مال فهو موكل عن الله فى إنفاقه فيما أمر به وهذا يقتضى أن ينفق المرء بإحساس الوكيل فلا يشق عليه أن يضعه حيث أمر ـ لأنه إنما ينفق من مال غيره فإذا أحس البخل يقبضه عن أمر الله ـ أو الهوى يدعوه إلى المعصية والسرف ، فليعلم أنه نقض الأمانة وخرج عن مقتضى الاستخلاف ـ قال الإمام الزمخشرى ـ فى تفسير هذه الآية (فأنفقوا منها فى حقوق الله وليهن عليكم الانفاق منها كما يهون على الرجل أن ينفق من مال غيره إذا أذن له فيه) .

أما أبو ذر فقد فهم هذه الآية وأعلن المفهوم التالى ، واتخذه مذهبه وهو صحابى جليل ـ فقال (ليس لأحد فى ماله إلا نفقته ونفقة عياله وما يبقى بعد ذلك فهو مال الله لا ماله وهو أمين الله عليه ينفقه حيث أمره سبحانه) .

(٤) التقوى فى الحج

« الحجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الحجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى الحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِى الأَلْبَابِ » (١)

مكة الحبيبة :

تفوح رائحة مكة الحبيبة وتشع أنوار الرسالة المحمدية اتى انبثقت من الأراضى الطيبة التى تجذبنى إليها دائماً (ونسأل الله أن يحقق رجاءنا فى العودة إليها إن شاء الله) نتمتع بأنواره القدسية التى تتلألأ من بيته المحرم تحف به ملائكة نورانية تنثر الرضوان بين من أحبهم فدعاهم لزيارة بيته - وقد لمست هذا النور الربانى يحيط بالكعبة عند أذان العشاء ليلة الإثنين الرابع من ذى الحجة سنة ألف وثلاثمائة واثنتين وتسعين هجرية واستمر هذا النور فترة غير قصيرة فلم أتمالك نفسى وصحت بأعلى صوتى : الله أكبر الله أكبر - وأخذت أردد قول الله عز وجل: (اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) فإلى هذه الأرض المقدسة تهفو جوانحى وتتأجج نار الشوق فى صدرى منذ فارقتها وحتى اليوم ، وسأظل أردد ويردد الملايين معى ممن يقبلون على الله مستجيبين لبلاغه - لبيك اللهم لبيك - لبيك لاشريك لك لبيك - إن الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك - لبيك وسعديك والخير بيديك والرغباء إليك والعمل - لبيك يارب البقاع الطاهرة - لبيك ياهادى النفوس الحائرة - لبيك يارب الأيادى الفاقرة .

هذه مشاعرى وأعتقد أنها مشاعر كل من استدعاه عز وجل لزيارة

---

(١) الآية ١٩٧ من سورة البقرة .

بيته الحرام - فأنعم بالسياحة فى سبيل الله ، وأنعم بالحج المبرور فليس له جزاء إلا الجنة .

فضل الحج :

وفى فضل الحج ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد وليس للحج المبرور ثواب دون الجنة » .

هذا وقد ورد فى فضل الحج كثير من الأحاديث فقد روى عن أبى هريرة قال « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الأعمال أفضل ؟ قال : إيمان بالله ورسوله - قيل ثم ماذا ؟ قال : ثم جهاد فى سبيل الله - قيل ثم ماذا ؟ قال : ثم حج مبرور » .

وعن عمرو بن العاص قال : « لما جعل الله الإسلام فى قلبى أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : ابسط يدك فلأبايعك - قال : فبسط ، فقبضت يدى ، فقال : مالك يا عمرو ؟ قلت : أشترط ، قال تشترط ماذا ؟ قلت : أن يغفر لى - قال : أما علمت أن الإسلام يهدم ما قبله وأن الهجرة تهدم ما قبلها وأن الحج يهدم ما قبله » .

وكيف لا يتمتع الحجاج بهذا الفضل وهم وفد الله كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الحجاج والعمار وفد الله إن دعوه أجابهم وإن استغفروه غفر لهم » .

الحجة المفروضة ووجوبها على الفور :

وفى توضيح الحجة المفروضة مارواه أبو هريرة قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يأيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا - فقال رجل : أكل عام يارسول الله ؟ فسكت - قال الرجل : أكل عام يارسول الله ؟ فسكت ، قال الرجل : أكل عام يارسول الله ؟ - قال صلى الله عليه وسلم لو قلت نعم : لوجبت ولما استطعتم » .

ثم قال : « ذرونى ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم - فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : خطبنا رسول الله صلى عليه وسلم فقال : ياأيها الناس كتب عليكم الحج - فقام الأقرع بن حابس فقال : أفى كل عام يارسول الله ؟

فقال « لو قلتها لوجبت ولو وجبت لم تعملوا بها ولم تستطيعوا - الحج مرة - فمن زاد فهو تطوع » .

والحج واجب على التراخى فى بعض المذاهب وواجب على الفور فى بعض المذاهب الأخرى لحديث ابن عباس رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من أراد الحج فليعجل فإنه قد يمرض المريض وتضل الراحلة وتكون الحاجة » .

وعنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « تعجلوا الحج - يعنى الفريضة - فإن أحدكم لايدرى ما يعرض له »

وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله الحرام فلم يحج فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً » وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله عز وجل : إن عبداً صححت

له جسده ووسعت له فى المعيشة تمضى عليه خمسة أعوام لا يغدو إلى لمحروم».

ومن ذا الذى لا يغدو إلى الرحمن؟! يستمد منه الرحمة ويطلب منه المغفرة، ويسكب دموع الندم فى بيته المحرم، يقبل عليه بالتوبة والاستغفار يهتف بأعلى صوته :

جئنا رجاء المغفرة جئنا بداع من رضاك
نرجو وليس لنا سواك عفواً يجود به رضاك

رحلة الحج رحلة ربانية :

(وحتى يكون الحج مقبولا) علينا أن نقتدى برسول الله صلى الله عليه وسلم فلنا فيه الأسوة الحسنة ونسترشد بما فعله فى حجه .

كيف تحج ؟

فإذا ركب الحاج متوجها إلى أرض الله الحرام ندب أن يسمى باسم الله تعالى ويحمده ثم يكبر ثلاثاً ويقول « سُبْحَانَ الذى سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِين وَإِنَّا إلى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ » اللهم إنى وجهت وجهى إليك وفوضت أمرى إليك وتوكلت فى جميع أمورى عليك أنت حسبى ونعم الوكيل » .

وينبغى إذا أراد الخروج أن يصلى ركعتين أولا يقرأ فيهما بعد الفاتحة سورة (الكافرون) وفى الثانية سورة (الإخلاص) فإذا فرغ رفع يديه ودعا الله سبحانه وتعالى بهذا الدعاء أو بغيره (اللهم أنت الصاحب فى السفر وأنت الخليفة فى الأهل والمال والولد والأصحاب — احفظنا وإياهم من كل آفة وعاهة . اللهم إنا نسألك فى مسيرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى .

اللهم إنا نسألك أن تطوى لنا الأرض وتهون علينا السفر ، وأن ترزقنا فى سفرنا سلامة البدن والدين والمال وتبلغنا حج بيتك .

اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر فى

الأهل والمال والولد . اللهم اجعلنا وإياهم فى جوارك ولا تسلبنا وإياهم نعمتك ولا تغير ما بنا وبهم من عافيتك .

اللهم أنت ثقتى وأنت رجائى فاكفنى ما أهمنى وما لا أهتم به وما أنت أعلم به منى لا إله إلا أنت عز جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك . اللهم زودنى التقوى واغفر لى ذنبى ووجهنى للخير أينما توجهت) .

وإذا اقترب الحاج من « الميقات » كان من المستحب لكل من الرجل والمرأة قبل الإحرام أن يغتسل ويتطيب ويقص شعره ويقلم أظافره إذا أمكنه ذلك .

الميقات المكانى :

والميقات : هو مكان الإحرام التى يحرم منه من يريد الحج أو العمرة ولا يجوز أن يتجاوزها دون أن يحرم .

وقد بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم — فجعل ميقات أهل المدينة (ذا الحليفة) وهى المعروفة الآن (بأبيار على) وبينها وبين مكة ٤٥٠ كيلو متراً — وميقات أهل الشام (الجحفة) وهى قريبة من (رابغ) وميقات أهل مصر (رابغ) وميقات أهل نجد والطائف (قرن المنازل) بينه وبين مكة ٩٤ كيلو متراً — وميقات أهل اليمن (يلملم) وهى المعروفة بالسعدية تبعد عن مكة ٥٤ كيلو متراً — وميقات أهل العراق (ذات عرق) وهذه المواقيت لأهلها ولمن مر عليها من غيرهم .

ومن تجاوز الميقات بغير إحرام قاصداً المدينة ثم عدل عنها إلى مكة — فإنه يحرم من (جدة) ولا شيء عليه — وإذا كان منزله دون المواقيت فيحرم من منزله . ولبس ملابس الإحرام فى بيته . فإذا بلغ الميقات صلى ركعتين إن أمكن ونوى الحج إن كان (مفرداً) أو نوى العمرة إن كان (متمتعاً) أو نوى بهما معا إن كان (قارنا) ويعتبر هذا الإحرام أول ركن

من الأركان . والمهم أن يكون الحاج عند مكان الإحرام متجرداً من ثيابه لابسا ملابس الإحرام .

وإذا كان قد نوى الإحرام قبل بلوغه الميقات فلا بد أن يكون مستحضراً النية عند بلوغه الميقات .

فإذا جاوز الميقات المختص دون نية الاحرام كان عليه أن يرجع إليه ويحرم إذا أمكنه — وإذا لم يمكنه الرجوع نوى حيث هو فى المكان الذى تذكر فيه النية ولزمه (دم) ذبيحة — والنية هكذا « نويت الحج وأحرمت به لله تعالى اللهم يسره لى وتقبله منى » ويقول مريد العمرة « نويت العمرة وأحرمت بها لله تعالى » ويقول مريد القران « نويت الحج والعمرة وأحرمت بهما لله تعالى » .

ويسن أن تقترن النية بالتلبية « لبيك اللهم لبيك ... الخ »[1] .

ويستحب تجديد التلبية عند تغير الحال : عند الركوب وعند النزول وعند لقاء الأصحاب وعقب كل صلاة ، وهكذا مادام محرماً ويرفع الرجل بالتلبية صوته — أما المرأة فتسمع نفسها ومن يليها ويكره لها أن ترفع صوتها .

ففى الحديث « جاءنى جبريل فقال : مر أصحابك فليرفعوا أصواتهم بها فإنها من شعائر الحج » .

ثم يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم عقبها ثم يدعو بعدها بما شاء .

أنواع الإحرام : ولتوضيح أنواع الاحرام (قران — تمتع — إفراد) نبين معنى كل منها : (فالقران) أن يحرم من عند الميقات بالحج والعمرة معاً — وهذا يقتضى بقاء المحرم على صفة الاحرام إلى أن يفرغ من أعمال العمرة والحج جميعاً .

---

(١) عند بعض المذاهب من ترك التلبية لزمة دم .

أو يحرم بالعمرة ويدخل عليها الحج قبل الطواف .

(والتمتع) هو الاعتمار فى أشهر الحج ثم يحج من عامه الذى اعتمر فيه — وسمى تمتعاً الانتفاع بأداء النسكين فى أشهر الحج فى عام واحد[1] — والمتمتع يتمتع بعد التحلل من إحرامه بما يتمتع به غير المحرم من لبس الثياب وغيره . فيظل المحرم على حاله حتى يصل إلى مكة فيطوف بالبيت ويسعى بين الصفا والمروة ويحلق شعره أو يقصره ويتحلل .

(والإفراد) أن يحرم من يريد الحج بالحج وحده ويبقى محرماً حتى تنتهى أعمال الحج ثم يعتمر بعد ذلك إن أراد .

ويجب على المتمتع والقارن (الدم) أى ذبح شاة ، أو يشترك مع غيره فى ذبح بقرة . لقوله تعالى : « فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ـ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِى الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ »[2]

فإذا كان المتمتع والقارن عادماً لثمن الهدى فعليه أن يصوم ثلاثة أيام فى الحج — يصوم اليوم السابع والثامن والتاسع من ذى الحجة — فإن صامها بعد التحلل من العمرة جاز — أو يصوم أيام التشريق الثلاثة (الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر) — ثم يصوم سبعة أيام إذا رجع إلى أهله « ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ »

أما المرأة : فإن حاضت وهى متمتعة قبل طواف العمرة وخشيت فوات الحج — أحرمت بالحج وجوباً وصارت قارنة ، وقد حدث ذلك للسيدة عائشة رضى الله عنها — فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم « أهلى بالحج » .

محظورات الإحرام : لايجوز للمحرم أخذ شىء من شعر رأسه أو

---

(١) أشهر الحج (الميقات الزمانى) شوال وذو القعدة وعشر من ذى الحجة .

(٢) الاية ١٩٦ من سورة البقرة .

وجهه وسائر بدنه بلا عذر — قال تعالى « وَلاَ تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلَغُ الْهَدْىُ مَحِلَّهُ »

وكذلك لايجوز تقليم الأظفار ولايجوز للرجل تغطية رأسه (والأذنان من الرأس) فلا يجوز تغطيتهما .

ويجوز للمحرم حمل متاعه على رأسه إذا احتاج إليه ويجوز له أن يغتسل — ويجتنب لبس المخيط وله أن يشد الحزام على إزاره ويلبس ساعة اليد ويضع المنظار على عينه ويلتحف (بالبطانية) وغيرها ويغطى سائر بدنه ماعدا الرأس ولا يستعمل الطيب — ولا يقتل الصيد — ولا يعتمد على امرأة ولا يباشرها .

وبذلك يتخلى الحاج عن الدنيا ويقبل على باب ربه وعبادته وكأنه يشعر نفسه بحالة الموتى المقبلين على ربهم متطهرين من ذنوبهم متخلصين من علائق الدنيا ومشاغلها وزينتها ، ولو غطى المحرم رأسه أو لبس مخيطا أو أخذ شيئاً من شعره أو قص أظافره عمدا — فعليه صيام ثلاثة أيام أو إطعام ستة مساكين أو ذبح شاة — وإن فعل ذلك ناسيا فلا شيء عليه ويستغفر الله تعالى .

وقال العلماء [وإن سترت المرأة وجهها بشيء فلا بأس ويجوز ستره عن الرجل بمظلة ونحوها — ويجب ستره إذا خيفت الفتنة من النظر] .

دخول مكة : ويسن للمحرم أن يغتسل قبل دخول مكة — فعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه كان يغتسل لدخول مكة — ويدخلها من الباب المعروف (بباب المعلى) — فقد دخلها النبي صلى الله عليه وسلم من جهة المعلاة — فمن تيسر له ذلك فعله وإلا فعل مايلائم حالته ولا شيء عليه — لأن دخول مكة الآن (كما لاحظته) حسب مايرسمه رجال المرور هناك وعند مايرى بيوت مكة يقول : (اللهم اجعل لى بها قراراً وارزقنى فيها رزقاً حلالا) .

وعند دخول مكة المكرمة يقول : (اللهم إن هذا الحرم حرمك والبلد بلدك والأمن أمنك والعبد عبدك جئتك من بلاد بعيدة بذنوب كثيرة وأعمال سيئة أسألك مسألة المضطرين إليك المشفقين من عذابك أن تستقبلنى بمحض عفوك وأن تدخلنى فى فسيح جنتك جنة النعيم — اللهم إن هذا حرمك وحرم رسولك ، فحرم لحمى وعظمى على النار — اللهم أمنى من عذابك يوم تبعث عبادك ، أسألك أنت الله الذى لا إله إلا أنت الرحمن الرحيم ،أن تصلى وتسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه تسليما كبيراً أبداً).

أو يدعو بأى دعاء شاء .

إلى الكعبة المشرفة :

وعليه أن يبادر إلى البيت الحرام بعد أن يترك أمتعته بمكان أمين . ويدخل من باب بنى شيبة ـ وهو باب السلام لأنه وجه الكعبة ـ ودخوله من أى باب من أبواب الحرم جائز ـ خاصة بعد اتساعه الآن ـ ويقول فى ضراعة وخشوع : « أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم —

بسم الله اللهم صلى على محمد وآله وسلم ، اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك » .

فإذا وقع بصره على الكعبة المشرفة قال : « اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة وزد من شرفه وكرمه ممن حجه أو اعتمره تشريفاً وتكريماً وتعظيماً وبراً ـ الحمد لله رب العالمين كثيراً كما هو أهله وكما ينبغى والحمد لله الذى بلغنى بيته ورآنى لذلك أهلا والحمد لله على كل حال ـ اللهم إنك دعوت إلى حج بيتك الحرام وقد جئتك لذلك . اللهم تقبل منى واعف عنى وأصلح لى شأنى كله لا إله إلا أنت ـ اللهم أنت السلام ومنك السلام فحينا ربنا بالسلام » .

ثم يقصد الحجر الأسود فيقبله (بدون صوت) فإن لم يتمكن من

تقبيله استلمه بيده وقبله فان عجز عن ذلك لشدة الزحام مثلا — أشار إليه بيده .

ثم يقف (بحذائه) أمامه أو بجواره - ويشرع بعد ذلك فى طواف القدوم ويطوف سبع دورات (مع نية الطواف) يبدأ كل دورة بالحجر الأسود ويختتم به جاعلا البيت الحرام عن يساره - يرمل فى الثلاث الأولى منها ويمشى فى الأربعة الباقية (والرمل هو الجرى بخطوات ضيقة بحيث يهتز بدنه كله) ويستحب له أن يجعل وسط الرداء تحت منكبه الأيمن وطرفيه على عاتقه الأيسر (ولا رمل على المرأة) وإن شك فى عدد الأشواط بنى على اليقين وهو الأقل ويقول عند استلام الحجر الأسود أو الإشارة إليه : « اللهم إيماناً بك وتصديقاً بكتابك ووفاء بعهدك واتباعاً لسنة نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم » .

وقد قال فيه عمر بن الخطاب كلمته المأثورة : « إنى لا أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك » - ولقد قالها عمر لأنه يخشى الفتنة والناس قريبو عهد بجاهلية وبعبادة الأصنام والأحجار المصنوعة للتقديس - ولكننا بفضل من الله فى عصر شاع فيه النور وانتشر فيه الإيمان وكلنا لهفة وشوق لهذا الحجر نقبله ونسلم عليه فهو يد الرحمن فى الأرض يأتى يوم القيامة يشهد على من سلم عليه .

وقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أكثروا استلام هذا الحجر فانكم يوشك أن تفقدوه بينما الناس ذات ليلة يطوفون به إذ أصبحوا وقد فقدوه . إن الله تعالى لا يترك شيئا من الجنة فى الأرض إلا أعاده فيها قبل يوم القيامة » .

وبعد الطواف يصلى ركعتين ويسن أن تكون فى مقام إبراهيم « واتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى »

ولا يصلى تحية المسجد ـ فإن تحيته الطواف به ـ إلا إذا كانت الصلاة المفروضة مقامة، فيصليها[١] مع الإمام فى جماعة لقوله صلى الله عليه وسلم « إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة » ـ وكذلك إذا خاف فوات الوقت يبدأ به فيصليه ويستحب أن يستلم الركن اليمانى ـ ويكثر من الذكر والدعاء فاذا أخذ فى الطواف قال : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فاذا انتهى إلى الركن اليمانى دعا فقال « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » .

ويقول فى كل شوط « رب اغفر وارحم واعف عما تعلم إنك أنت الأعز الأكرم » .

ولا بأس بقراءة القرآن أثناء الطواف .

فضل الطواف :

وفى فضل الطواف : ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم : « ينزل الله كل يوم على حجاج بيته الحرام عشرين ومائة رحمة ستين للطائفين وأربعين للمصلين وعشرين للناظرين » ويجوز للطائف الركوب ، إذا وجد سبب للركوب .

أنواع الطواف : إن كان الطائف (مفردا) سمى هذا الطواف (طواف القدوم) وإن كان قارنا أو متمتعا كان هذا الطواف طواف العمرة وعليه أن يمضى فى استكمال عمرته فيسعى بين الصفا والمروة .

(وطواف الإفاضة) وهو ركن من أركان الحج وأول وقته نصف الليل من ليلة النحر ـ وأفضل وقت يؤدى فيه ضحوة النهار يوم النحر ـ ويستحب تعجيل الإفاضة للنساء يوم النحر «وطواف الوداع» بعد أن يفرغ الحاج من جميع أعماله ويريد السفر ليكون آخر عهده بالبيت .

---

(١) يجوز أن يصلى المصلى فى المسجد الحرام والناس يمرون أمامه .

وإذا فرغ الطائف من طوافه وصلى ركعتيه عند المقام استحب له أن يشرب من ماء زمزم، فقال الرسول عنها : « إنها طعام طعم وشفاء سقم » أى أنه يشبع من شربه .

ويقول « خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم فيه طعام الطعم وشفاء السقم » .

(وقد جربتها فشفيت على الفور من مرض ألم بى هناك والعبرة بالإخلاص) وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم « ماء زمزم لما شرب له . إن شربته تستشفى شفاك الله وإن شربته لشبعك أشبعك الله وإن شربته لقطع ظمئك قطعه الله وهى هزمة (١) جبريل وسقيا (٢) الله إسماعيل » وكان ابن عباس إذا شرب من ماء زمزم قال : (اللهم إنى أسألك علماً نافعاً ورزقاً واسعاً وشفاء من كل داء) .

وبعد الشرب من ماء زمزم يستحب الدعاء عند الملتزم (وهو ما بين الركن والباب) لا يلزم ما بينهما أحد يسأل الله شيئاً إلا أعطاه الله إياه .

ويستحب أن يكون الشرب على ثلاثة أنفاس وأن يستقبل به القبلة ، ويتضلع منه ويحمد الله ويدعو بما دعا به ابن عباس هذا ، ويلاحظ أنه يشترط فى صحة الطواف ما يشترط فى صحة الصلاة . فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « الطواف صلاة إلا أن الله تعالى أحل فيه الكلام فمن تكلم فلا يتكلم إلا بخير » .

السعى بين الصفا والمروة : السعى ركن من أركان الحج والعمرة ويتم بالتردد بين الصفا والمروة .

---

(١) أى حفرة .
(٢) أى أخرجه الله لسقى إسماعيل فى أول الأمر .

(أ) وسعى المحرم بالعمرة يكون بعد طواف العمرة وبهذا تنتهى أعمالها ويتحلل من إحرامه بها بالحلق أو التقصير .

(ب) وسعى المحرم بالحج يكون بعدطواف الإفاضة إن لم يكن سعى بعد طواف القدوم .

(حـ) وسعى المحرم بالحج والعمرة يكون بعد طواف العمرة ويغنيه عن السعى بعد طواف الإفاضة .

ومن سنن السعى : أن يخرج إلى المسعى من باب الصفا ويصعد على (الصفا) حتى يشاهد الكعبة ويستقبلها ثم يقرأ « إن الصفا والمروة من شعائر الله » أبدأ بما بدأ الله به - ثم يكبر ثلاثا ويقول : (الحمد لله على ما هدانا والحمد لله على ما أولانا - لا إله إلا الله وحده لا شريك له - له الملك وله الحمد يحيي ويميت بيده الخير وهو على كل شيء قدير - لا إله إلا هو وحده لا شريك له - أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده - لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون) ويكرر هذا الدعاء ويدعو بما أحب .

ثم ينزل من الصفا فيمشى إلى أن يصل إلى العلم الأخضر (وهناك لمبات خضراء طويلة لإرشاد الحجاج)ويسرع بين الميلين ويردد (رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأكرم) - ويواصل المشى حتى يرقى (المروة) فيستقبل القبلة ويقول ما قاله على الصفا - وهكذا سبعة أشواط (يبدأ بالصفا وينتهى بالمروة) ويسن الموالاة بين الأشواط .

فإذا فرغ من السعى - فإن كان متمتعاً حلق أو قصر .

وهذا السعى يذكر الحجاج أن عبوديتهم لله من عبودية آبائهم الأولين عبودية واحدة أمام معبود واحد يتصل حاضرها ومستقبلها بماضيها ، يذكرون عبادة السلف الصالح والصحابة الأبرار وصاحب الرسالة المحمدية صلى الله عليه وسلم .

يذكرون اللهفة التى طغت على قلب (هاجر) وهى تهرول بين الصفا والمروة تبحث عن قطرة ماء تروى بها ظمأ وليدها إسماعيل ، تتجاذبها اللهفة والقلق والشفقة ـ سبعة أشواط ـ وبعد أن يصيبها الإعياء وهى على المروة تتجه نحو الكعبة فإذا برحمات ربانية ورزق فياض وماء يتدفق تحت قدمى طفلها ! ! ويتلاشى العجز فى الرحمة الواسعة .

يوم التروية : يتأهب الحجاج للإحرام بالحج يوم التروية وهو الثامن من ذى الحجة ويستحب أن يفعل الحاج عند إحرامه من مكة أو قربها ما يفعله عند إحرامه من الميقات ثم يخرج إلى (منى) قبل الزوال . والمبيت بمنى تلك الليلة سنة . فلو سار من مكة إلى عرفات جاز . وهو ما يحدث الآن . لعدم الإرهاق وضغط الحركة وشدة التزاحم .

وينوى بالحج بعد أن يحرم فيقول : « اللهم إنى أريد الحج فيسره لى وتقبله منى . لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك . لا شريك لك » .

ويتوجه الحجاج إلى الطبيعة المجردة من زخرف الحياة إلى الجبال وأحجارها والرمال وحصبائها ، إلى السماء وصفائها إلى الموقف العظيم .

إلى عرفات :

وفى عرفات يقف الحجاج بقلوب خاشعة ونفوس ضارعة وأكف راجفة ووجوه شاخصة بالضراعة وألسنة بالدعاء مشغولة . يلبون ويسبحون ، يكبرون ويهللون ، يكثرون من الدعاء . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « خير الدعاء دعاء يوم عرفة ، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلى . لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير » .

« اللهم اجعل فى بصرى نوراً وفى سمعى نوراً وفى قلبى نوراً . اللهم اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى . اللهم أعوذ بك من وسواس الصدر وشتات الأمر

وشر فتنة القبر وشر ما يلج فى الليل وشر ما يلج فى النهار وشر ما تهب به الرياح وشر بوائق الدهر » .

« اللهم إنى أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، وأسألك أن تجعل كل قضاء تقضيه لى خيراً . اللهم إنى أسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك، والغنيمة من كل بر ، والسلامة من كل إثم والفوز بالجنة ، والنجاة من النار . اللهم لا تدع لى ذنباً إلا غفرته ولا هماً إلا فرجته ، ولا ديناً إلا قضيته، ولا حاجة فيها لك رضا إلا قضيتها يا أرحم الراحمين » .

وينبغى المحافظة على الطهارة الكاملة واستقبال القبلة والإكثار من الاستغفار ، والذكر والدعاء لنفسه وأهله وجميع المسلمين مع الخشية وحضور القلب .

ويتوجه إلى الله ويتوسل إليه (وإليك هذا التوسل)

فيارب أنت الله وحدك دائماً ... وأنت لدى الأبعاد كل بلا بعد

هنا عرفات وحدت فوق رملها ... خطا كل بسام بجاهك معتد

وقفنا لدى الساحات فيها تندرت ... بذكرك موصول الهدايات والرشد

وقفنا لدى الباب الكريم ومن يقم ... ببابك ملحاحاً فليس بمرتد

نمد إليك الأكف الراعشات ومن يلذ
ببابك يا رحمن لم يجد الصد

فقد قلت أدعونى عبادى أستجب
إليكم وهذا موقف السؤل للعبد

فيارب بالإيمان زدنا على المدى
بجاهك إيماناً ترسخ كالطود

ويارب بالغفران كافل مجيئنا
إليك بمحو للخطيئة أو وأد

وفى عرفات تشرق الذكرى بأنوارها فيستمع الحجاج بآذان القلوب

إلى صوت محمد حبيب الله ورسوله يخطب الناس ويحثهم على صدق الإيمان ويشهد الله على تبليغ الرسالة : « ألا قد بلغت اللهم فاشهد » .

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم « أما الوقوف عشية عرفة فإن الله يهبط إلى السماء الدنيا فيباهي بكم الملائكة فيقول: هؤلاء عبادى جاءونى شعثا يرجون رحمتى فلو كانت ذنوبكم كعدد الرمل وكعدد القطر والشجر لغفرتها لكم . أفيضوا عبادى مغفوراً لكم ولمن شفعتم له» . رواه أنس بن مالك.

فما أعظم هذا اليوم ، وما أجمل الشعور بلذة القرب من الله ،هذا وقد أجمع العلماء على أن الوقوف بعرفة هو ركن الحج الأعظم .

فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر منادياً ينادى « الحج عرفة . من جاء ليلة جمع قبل طلوع الفجر فقد أدرك » .

ولهذا فإن وقت الوقوف يبتدىء من زوال اليوم التاسع إلى طلوع فجر اليوم العاشر . وإن وقف بالنهار وجب عليه مد الوقوف إلى ما بعد الغروب . فإن جاء ليلا أجزأه (والمقصود بالوقوف الحضور والوجود فى أى جزء من عرفة) . ويستحب أن يكون الوقوف عند الصخرات أو قريباً منها .

فقد وقف فيها الرسول صلى الله عليه وسلم وقال « وقفت ها هنا وعرفة كلها موقف » .

ويجمع الإمام بين الظهر والعصر بعرفة ـ وللحاج أن يجمع منفرداً .

إلى المزدلفة :

تكون الإفاضة من عرفات إلى المزدلفة بعد غروب الشمس :

« فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ » .

ولهذا يندب فى الإفاضة الإكثار من التلبية والدعاء والذكر وقراءة القرآن

فإذا وصل الحجاج إلى المزدلفة صلوا بها المغرب ثلاث ركعات والعشاء ركعتين قصراً جمع تأخير بآذان وإقامتين .

ويبيتون هذه الليلة بالمزدلفة ويتحقق المبيت بالوجود فيها ولو بالمرور بها في النصف الثانى من الليل .

ويقف الجميع عند المشعر الحرام مستقبلين القبلة ومكثرين من الدعاء والاستغفار والضراعة لله تعالى .

ويلتقطون حصى الجمار (سبع لرمى جمرة العقبة وواحد وعشرون لكل جمرة من الجمار الثلاث كل يوم من الأيام الثلاثة) . فعددها سبعون ، ويواصل الحجاج مسيرهم إلى منى وهم يلبون . فإذا وصلوها قطعوا التلبية عند رميهم جمرة العقبة بسبع حصيات متعاقبات ، يرفع الحاج يده عند كل حصاة ، ويكبر ويستحب له عند الرمى أن يجعل الكعبة عن يساره ومنى عن يمينه لأن ذلك ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وأيام الرمى ثلاثة أو أربعة . يوم النحر . ويومان أو ثلاثة من أيام التشريق لقوله تعالى : « فَمَنْ تَعَجَّلَ فى يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى » .

وبعد رمى الحصى (يوم النحر) ينحر الحاج هديه ويستحب له أن يقول عند نحره (باسم الله والله أكبر . اللهم هذا منك ولك) . ويجوز أن يوكل غيره فى الذبح .

التحلل من الإحرام :

وبعد نحر الهدى . يحلق الحاج شعر رأسه أو يقصره والحلق أفضل للرجل . والتقصير للمرأة .

ويقول وهو يمسك بناصيته (الله أكبر . ثلاثا . اللهم هذه ناصيتى بيدك فاجعل لى بكل شعرة نوراً يوم القيامة واغفر لى ذنبي ياواسع المغفرة) .

وبعد الفراغ من الحلق . يكبر ثلاثا ويقول (الحمد لله الذى قضى عنى نسكى . اللهم ائتنى بكل شعرة حسنة وامح عنى بها سيئة وارفع لى بها درجة واغفر لى وللمحلقين والمقصرين وجميع المسلمين . اللهم زدنا إيماناً ويقينا وتوفيقاً وعونا ، واغفر لنا ولآبائنا وأمهاتنا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم » .

ويستحب لمن حلق شعره أو قصره أن يأخذ من شاربه ويقلم أظافره .

وبعد ذلك يباح للمحرم كل شيء حرم عليه بالإحرام إلا النساء وهذا ما يسمى (بالتحلل الأول) .

طواف الإفاضة : يسن للحاج أن يتطيب ويلبس الثياب المعتادة ويتوجه إلى مكة ليطوف طواف الإفاضة . وهو ركن من أركان الحج .

قال تعالى : « ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ » .

وعليه أن يسعى بعد الطواف . بين الصفا والمروة . إن لم يكن سعى من قبل بعد طواف القدوم . أما إذا كان قد سعى فإنه يطوف ولا يسعى . ويتحلل (التحلل الأكبر) .

وبذلك يرجع إلى حياته العادية . ثم يعود إلى منى ويبيت بها ، والذين لا ينزلون إلى مكة يوم النحر ويظلون فى منى . فإنهم يطوفون طواف الإفاضة عندما ينزلون إلى مكة وبعده يتحللون التحلل الأكبر .

وقد روى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أما خروجك من بيتك تؤم البيت الحرام فإن لك بكل وطأة تطأها راحلتك يكتب الله لك بها حسنة ويمحو عنك بها سيئة ، وأما وقوفك بعرفة فإن الله عز وجل ينزل إلى السماء الدنيا فيباهى بهم الملائكة فيقول : هؤلاء عبادى جاءونى شعثاً غبرا من كل فج[1] عميق يرجون رحمتى ويخافون عذابى ، ولم

(١) الطريق الواسع .

يرونى فكيف لو رأونى؟ـ فلو كان عليك مثل رمل عالج[١] أومثل أيام الدنيا أو مثل قطر السماء ذنوباً غسلها الله عنك. وأما رميك الجمار فإنه مذخور لك[٢]. وأما حلقك رأسك فإن لك بكل شعرة تسقط حسنة. فإذا طفت بالبيت خرجت من ذنوبك كما ولدتك أمك).

ويبدأ رمى الجمار بعد ذلك فى الأيام التالية ليوم النحر (يومين أو ثلاثة) يبدأ بالجمرة الصغرى، ثم الوسطى ثم الكبرى وتسمى جمرة العقبة ـ وكلها متقاربة ـ وعلى كل منها علامة تميزها ولافتة كبيرة تحمل اسمها .

وعدد الحصى الذى يرميه فى كل جمرة سبع حصيات فيكون مجموع كل يوم ٢١ حصاة ـ وعليه أن يتأكد من إصابة الجمرة أو يغلب على ظنه. وينوى فى قلبه ويعزم على أن يقهر إبليس ووسوسته له .

ووقت الرمى يوم النحر يبدأ من منتصف ليلة العيد إلى آخر أيام التشريق فى بعض المذاهب تلافياً لشدة الزحام والحرارة الشديدة .

أما الأيام الأخرى فيبدأ وقت الرمى من الزوال إلى الغروب ويجوز للمرضى وكبار السن والحوامل أن يوكلوا من يرمى عنهم الجمرات كلها .

يقول الإمام الغزالى (وأما رمى الجمار فليقصد به الرامى الانقياد للأمر إظهاراً للرق والعبودية وانتهاضاً لمجرد الامتثال من غير حظ للنفس والعقل فى ذلك، ثم يقصد به التشبه بإبراهيم عليه السلام ... فإن خطر لك أن الشيطان عرض له وشاهده فلذلك رماه، وأما أنا فليس يعرض لى فاعلم أن هذا الخاطر من الشيطان ... واعلم أنك فى الظاهر ترمى الحصى وفى الحقيقة ترمى به وجه الشيطان وتقصم ظهره » .

---

(١) ما تراكم من الرمل .
(٢) مدخر .

طواف الوداع : سمى بذلك لأن الحاج بعد تمام حجه يودع مكة راجعا إلى بلده ، وهو طواف لارمل فيه - ويسافر بعد خروجه من المسجد مباشرة - فإذا رجع إلى المسجد مرة أخرى أعاد الطواف ،ويستحب له أن يدعو بهذا الدعاء (اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك حملتنى على ماسخرت لى من خلقك وسيرتنى فى بلادك حتى بلغتنى بنعمتك إلى بيتك وأعنتنى على أداء نسكى فإن كنت رضيت عنى فازدد عنى رضا وإلا فارض عنى قبل أن تنأى عن بيتك - هذا أوان انصرافى إن أذنت لى غير مستبدل بك ولا بنبيك - ولا راغباً عنك ولا عن بيتك - اللهم فاصحبنى بالعافية فى بدنى والصحة فى جسمى والعصمة فى دينى وأحسن منقلبى وارزقنى طاعتك ما أبقيتنى واجمع لى بين خيرى الدنيا والآخرة إنك على كل شىء قدير - وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمدلله رب العالمين)

إلى المدينة المنورة : (المدينة قبة الإسلام ودار الإيمان وأرض الهجرة ومثوى الحلال والحرام)فبعد أن يؤدى الحاج فرضه يشد الرحال إلى المسجد النبوى الشريف - وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ومسجدى هذا والمسجد الأقصى » وعن فضائل الصلاة فى مسجد الرسول ماروى عنه صلى الله عليه وسلم « صلاة فى مسجدى أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه » .

وفى حديث آخر « من صلى فى مسجدى أربعين صلاة لاتفوته صلاة كتبت له براءة من النار وبراءة من العذاب وبرىء من النفاق » .

آداب الزيارة : يستحب إتيان مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالسكينة والوقار وأن يكون متطيباً بالطيب ومتجملا بحسن الثياب ويتأهب لمواجهة أنوار النبوة التى أضاء بها الكون - ويدخل المسجد برجله اليمنى ويقول : أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان

الرجيم بسم الله اللهم صل على محمد وآله وسلم ، اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك » .

ثم يقصد إلى الروضة الشريفة (بين القبر الشريف والمنبر) فيصلى فيها ركعتين لله سنة تحية المسجد ويدعو الله فيها بما أحب من خيرى الدنيا والآخرة ، وعليه أن يتيقن تماماً من الإجابة فهو فى مهبط الرحمة - قال صلى الله عليه وسلم « مابين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة » ثم ينهض من صلاته ويتوجه إلى قبره صلى الله عليه وسلم ويقف عند رأسه الشريف فى أدب وإجلال ويتمثل صورته الكريمة - كأنه نائم فى لحده - يسمع كلامه - فقد قال صلى الله عليه وسلم « مامن أحد يسلم على إلا رد الله على روحى حتى أرد عليه السلام » .

ثم يقول : السلام عليك يارسول الله ، السلام عليك يانبى الله - السلام عليك ياخيرة خلق الله من خلقه - السلام عليك ياخير خلق الله - السلام عليك ياحبيب الله - السلام عليك ياسيد المرسلين السلام عليك يارسول رب العالمين - السلام عليك ياقائد الغر المحجلين - أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنك عبده ورسوله وأمينه وخيرته من خلقه .

وأشهد أنك قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة وجاهدت فى الله حق جهاده » .

ثم يتحول قدر ذراع حتى يحاذى رأس أبى بكر رضى الله عنه فيقول : السلام عليك ياخليفة رسول الله ، السلام عليك ياصاحب رسول الله فى الغار - السلام عليك يارفيقه فى الأسفار - السلام عليك يا أمينه فى الأسرار ، جزاك الله عنا أفضل ماجازى إماماً عن أمة نبيه » .

ثم يتحول قدر ذراع حتى يحاذى قبر عمر رضى الله عنه ويقول : السلام عليك يا أمير المؤمنين . السلام عليك يامظهر الإسلام - السلام عليك يامكسر الأصنام - جزاك الله عنا أفضل الجزاء .

ثم يستقبل القبلة فيدعو لنفسه ولأحبابه وإخوانه وسائر المسلمين .

وعليه أن يتجنب التمسح بالحجرة ـ أى القبر ـ والتقبيل لها ويسن له بعد أن يفرغ من الزيارة أن يخرج إلى البقيع حيث يرقد الأبطال المجاهدون ويستحب له أن يزور شهداء أحد ـ فقد كان النبي يزورهم ويدعو لهم .

ويستحب أن يأتى مسجد قباء ـ وهو أول مسجد بناه الرسول فى المدينة ـ ويصلى فيه ـ فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يزور مسجد قباء راكبا وماشيا ويصلى فيه ركعتين ـ وكان النبي يرغب فيه ويقول « من تطهر فى بيته ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه صلاة كان له كأجر عمرة » .

الحياة الروحية فى الحج : الإحرام تجرد من شهوات النفس وحبسها فى التفكر فى عظمة الله وجلاله والتخلص من علائق الدنيا وزينتها .

والطواف التفاف القلوب حول قدسية الله وتعلق المحب بحبيبه .

والسعى تردد على رحمة الله والتماس لمغفرته ورضوانه ، والوقوف بعرفة مظهر الضراعة ـ فالقلوب مليئة بالخشية والأيدى مرفوعة مرتعشة طمعا فى رجاء العفو والمغفرة ، والألسنة تلهج بالدعاء والثناء والتهليل والتعظيم ورمى الجمار طرد لوساوس الشيطان والقضاء على مظاهر الشر والعزم على محاربة الهوى .

وجميع هذه المظاهر الروحية تحقق معنى العبودية لله والاخلاص له .

لهذا فالحج أقوى العبادات فى تحقيق هذا المعنى ـ وكل من يقصد رضاء الله فى عمله يردد الشعار (لبيك اللهم لبيك)ويقول يا الله ـ أنا الواقف ببابك المسارع لأجابتك المقيم على عهدك ـ أنت الواحد الذى تلبى دعوته ، رب النعمة التى لا تحصى ـ رب القوة التى لا تعجز . وقد استمرت التلبية هكذا من من عهد محمد صلى الله عليه وسلم تنطلق بها أصوات الملايين المؤمنة حتى

اليوم ، وستظل الشعار الدائم للحج وصدق الإيمان ـ وما جعلت عنوانا خاصاً بالحج إلا لتفرده بمزايا لاتوجد فى غيره .

وما أعظم أن يستمر الحاج على عهده مع الله لايلبى نزغات الشيطان وسلطان الهوى وأصدقاء السوء .

وما أروع أن يتمسك المسلمون بهذا الشعار فى كل وقت ، يراقبون الله فى أعمالهم ويبذلون أرواحهم وأموالهم استجابة لأمر الله وحرصا على تقوى الله .

وليذكر القادرون على الحج قول الله تعالى « وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ » (١) .

فهل هناك أعظم من التمتع بأنوار بيت الله الحرام ؟ وهل لا مست الأيدى وقبلت الشفاه شيئاً أغلى من الحجر الأسعد، الذى قبله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟وهل مشت الأقدام حول مكان أعظم من الطواف حول الكعبة والسعى بين الصفا والمروة ـ وهل ارتوت الأكباد والقلوب بماء يعدل ماء زمزم؟ وهل فرحت القلوب ببشارة أعظم مما بشر به رب العزة وفوده،وينجز وعده لهم وهو يقول« ياملائكتى إن هؤلاء هم عبادى انظروا إليهم وقد جاءونى شعثا غبرا ـــ ألا فاشهدوا بأنى قد غفرت لهم) .

---

(١) الآية ٩٧ من سورة آل عمران

الباب السادس

التقوى فى المعاملات

أولا : التقوى فى المعاملات المالية

١ – تحريم الربا :

قال تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ »(١).

هاتان الآيتان وماقبلهما نزلت بعد الفتح المكى ، وهى آخر مانزل فى شأن الربا .

تعريف الربا : الربا معناه فى اللغة الزيادة – وشرعا هو الزيادة فى الدين أيا كان نظير الأجل وهو نوعان : (ربا الفضل – وربا النسيئة) .

وقد قال الإمام فخر الدين الرازى فى تفسير آيات الربا (اعلم أن الربا قسمان : ربا النسيئة وربا الفضل – أما ربا النسيئة فهو الأمر الذى كان منسهوراً ومتعارفاً فى الجاهلية ، وذلك أنهم كانوا يدفعون المال على أن يأخذوا كل شهر قدراً معيناً ويكون رأس المال باقياً – ثم إذا حل الدين طالبوا برأس المال – فإذا تعذر الأداء زادوا فى الحق والأجل . . . وقد كان الرجل فى الجاهلية إذا كان له على إنسان مائة درهم إلى أجل – فإذا جاء الأجل ولم يكن المدين واجداً لذلك المال ، قال : زدنى فى المال حتى

---

(١) الآيتان ٢٧٨ ، ٢٧٩ من سورة البقرة .

أزيدك فى الأجل ، فربما جعله مائتين ، ثم إذا جاء الأجل الثانى فعل مثل ذلك ، ثم إلى آجال كثيرة ، فيأخذ بسبب تلك المائة أضعافاً ، فهذا هو المراد بقوله تعالى : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .. (١)

وقد ورد فى تحريم الربا آيات وأحاديث كثيرة فمن الأحاديث النبوية ماروواه ابن مسعود رضى الله عنه — أن النبى صلى الله عليه وسلم « لعن آكل الربا ومؤكله وشاهديه وكاتبه » .

وعن عبدالله بن حنظلة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « درهم رباً يأكله الرجل وهو يعلم ـ أشد من ست وثلاثين زنية » . وفى رواية أخرى « إن الربا بضع وسبعون باباً أصغرها كالواقع على أخته والدرهم الواحد من الربا أعظم عند الله من ستة وثلاثين زنية » .

هذا وقد أخرج البخارى ومسلم عن رافع بن خديج قال : كنا أكثر الأنصار حقلا — فكنا نكرى الأرض على أن لنا هذه ولهم هذه فربما أخرجت هذه ولم تخرج هذه فنهانا عن ذلك .

وعن رافع قال (حدثنى عماى أنهما كانا يكريان الأرض على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم بما ينبت على الأربعاء وبشىء يستثنيه صاحب الأرض . قال : فنهى النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك) .

ولم يكن الإسلام هو الدين الوحيد الذى حرم الربا ، فلقد حرمته جميع الأديان السماوية . ولكن الإسلام هو الدين الوحيد الذى أوضح معالم الطريق إلى مجتمع لايقوم نظامه المالى على الربا .

وقد صور القرآن حالة آكل الربا تصويراً مفزعاً ومخيفاً حيث يقول :

---

(١) الآية ١٣٠ من سورة آل عمران .

« لَا يَقُومُ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ »[١] .

فتلك حياته فى الدنيا والآخرة — أما فى الدنيا فإن جنون المرابى بالمال ووساوسه التى تساور نفسه فى كل لحظة من الحرص عليه وهواجسه حول العمليات الربوية التى يقوم بها لقريبة من المس عند من نعرفهم من المرابين .

وأما فى الآخرة فكما وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم فيمن رأى ليلة الإسراء (بطنه كالبيت تجرى فيه الحيات من خارجها) .

وقد شاهد النبى صلى الله عليه وسلم — فى ليلة الإسراء رجالا ونساءاً يسقون من القيح الصديد كلما حصل فى بطونهم شىء تمزقت جلودهم ، ثم يعودون خلقاً جديداً ، ولما سأل عنهم جبريل قال له : هؤلاء الذين يأكلون الربا .

وبين نصوص النهى عن الربا فى الآيات ، نجد أن هذا النهى قد اقترن بالأمر بالصلاة والزكاة ، وذلك إشعار بأن النهى عن الربا ركن من أركان الإسلام ، وأن من ينكر ذلك فقد أنكر أمراً عرف من الدين بالضرورة .

والحضارة الإسلامية حضارة فاضلة تقوم على منع الكسب الخبيث ، ولذا قرن النهى أيضاً بأن من يبيح الربا هو فى حرب مع الله ورسوله .

وقال الشيخ محمد أبو زهرة (إن أناسا فى عصرنا تأثروا بتلك الحضارة الربوية التى اقتبست نظمها المالية من اليهود لأنهم المتحكمون فى أسواقها المسيطرون على نظمها — فحاولوا تأويل القرآن الكريم ليخضع لها ، ومنها علماء يتسمون بسمة الدين ، ومنهم رجال اقتصاد ومال ، فهموا أن النظام الربوى ضرورة اقتصادية لامناص منها ، فاندفع هؤلاء وهؤلاء إلى

---

(١) الآية ٢٧٥ من سورة البقرة

نصوص القرآن الكريم يغيرون عليها بضروب من التأويل ، إن شئت أن تسميها عبثا بمعانى القرآن فسمها ، وإن شئت أن تسميها إفسادا فى اللغة فسمها غير متحرج ولا آثم ، ولقد استغل البعض أن ثمة خلافا فى كلمة الربا . . . ونسوا أن العلماء اختلفوا فى ربا الفضل وربا النساء ، أى ربا البيوع الذى جاء فى السنة بيانه ، ولم يختلفوا قط فى الربا الذى حرمه القرآن الكريم ، وربا القرآن هو الربا الذى تسير عليه المصارف ، ويتعامل به الناس ، فهو حرام لاشك فيه ، ولقد ظهر فى أول هذا القرن ناس من المخلصين للإسلام يؤمنون بالمدنية الحاضرة ، وقد ظنوا أن مصلحة القرآن أن يوفق بين نصوصه وبين التعامل الحاضر ، وقد أثر عنهم أقوال عابرة داعية إلى النظر البصير فى العقود الربوية . . . فجاء من بعدهم يحاولون أن يثبتوا عليهم أنهم أباحوا ربا المصارف أو ما يشبهه ، فادعوا مثلا على الأستاذ الإمام محمد عبده أنه قال ذلك القول . ولكننا بحثنا عن قول معين له فى ذلك فلم نجد له فى ذلك قولا ... ولو أنه وغيره قالوا مبيحين ربا المصارف ماتبعناهم . . . وما لأحد قول فى أمر نص عليه القرآن الكريم وأجمع عليه الصحابة . . .) .

ويبين الله الوضع الذى ينبغى أن يكون عليه صاحب المال فيقول : « فَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رءوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ »(١) .

وهذا هو القرض الحسن الذى يوجد الألفة ويدعم الروابط الإنسانية ، وينزع الغل والحقد من النفوس ويقتل الجشع والأنانية فى نفس صاحب المال الذى يقرض أخاه المحتاج ، والإسلام يرى أن كل كسب يحصل عليه الإنسان فى هذه الحياة لابد وأن يكون نتيجة عمل يقوم به ، ومايقال بأن صاحب المال يستحق أجراً مقابل رأس المال المستخدم فى التجارة والصناعة مثلا ، فهذا حق ، إذا كان سيتحمل مخاطرة استغلاله ، وشأنه فى ذلك شأن

---

(١) الآية ٢٧٩ من سورة البقرة

المستغل سواء بسواء طبقاً للقاعدة الشرعية (الغنْم بالغُرْم) وليس من واجب المقترض أن يلتزم بمكافأة للمقرض إلا إذا كان هبة غير مشروطة فى العقد عند القرض .

والربح وإن كان ثمرة العمل ورأس المال معا ، ولكن إذا كان هناك قرض فإن المال والعمل يكونان فى يد شخص واحد هو المقترض الذى يتولى بنفسه إدارة المال ، حتى إذا هلك أو أصابه تلف فإنما يهلك على ملكه .

وإذا كان لابد من اشتراك المقترض فى الربح الناشىء وجب أن يشترك فى الخسارة أيضاً (المحتملة) .

وعلينا أن نذكر دائما قول الرسول صلى الله عليه وسلم « كل قرض جر نفعا فهو ربا » .

ولقد نشرت صحيفة الأهرام بأن البنوك الإسلامية بدأت تتحول من فكرة يدعو إليها علماء الاقتصاد والفقه المسلمين إلى واقع عملى ، فقد قررت إمارة (دبى) إنشاء أول بنك إسلامى يقوم بكافة الأعمال والخدمات المصرفية بالإضافة إلى تمويل مشروعات محلية لخدمة البيئة على أساس المشاركة فى رأس المال ، وهى الصيغة التى يقرها الشرع — وتنص لائحة البنك على أنه (لا يتعامل بالفائدة أخذاً وعطاء فى كل المعاملات) .

وفى الوقت نفسه قد تقدم الأمير محمد الفيصل آل سعود (محافظ مؤسسة تحلية المياه فى السعودية) بمشروع إلى الحكومة المصرية لإنشاء بنك إسلامى فى منطقة القناة باسم (بنك قناة السويس الإسلامى) وتتخذ حالياً الخطوات اللازمة لاستصدار قرارات إنشاء البنك برأسمال مصرى سعودى ، وفيما يتعلق بالبنك الإسلامى الدولى للتنمية ، فقد صدقت غالبية الحكومات الإسلامية على الاتفاقية الخاصة به ، ويعتبر هذا البنك بمثابة البنك الأم للبنوك الإسلامية .

والمعروف أن بنك ناصر الاجتماعى فى مصر يقوم فى معاملاته على قاعدة استبعاد الفوائد ويؤدى دوراً مشابهاً لفكرة البنوك الإسلامية المطروحة الآن .

هذا وإنى أحذر الذين يلجأون إلى التحايل على الربا بطريق يظنونه مشروعاً وهو (بيع العينة) وهو أن يشترى من يريد الاقتراض بالفائدة عينا لآخر بثمن مؤجل — أو أن يشترى الدائن ممن يريد الاستدانة منه عيناويقبضه إياها ثم يبيعهاله بعد قبضها بأكثر من ثمن الشراء ، أو أن يبيعها المدين ويقبض الثمن ، ثم يبيعها المشترى لغيره ، ثم يبيعها الثالث فى المجلس لبائعها بثمن نسيئة ، فقد يكون ذلك من الناحية الشكلية عقود بيع ، ولكن إثم الربا ثابت ، وإن الله تعالى يحاسب عليه — وهذا ماعليه جمهور الفقهاء .

وحجة جمهور الفقهاء فى ذلك أن امرأة دخلت على عائشة فقالت لها : « إنى بعت غلاماً من زيد بن أرقم بثمانمائة درهم إلى العطاء ، ثم اشتريته منه بستمائة درهم ، فقالت أم المؤمنين عائشة (بئسما شريت وبئسما اشتريت، أبلغى زيد بن أرقم أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن يتوب) .

والظاهر أنها لاتقول ذلك القول الشديد ، إلا إذا كانت تعلم فيه حكما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن ذلك ذريعة إلى الربا والذرائع الثابتة مؤكدة .

وعلى أية حال فإن صحة العقد من ناحية الشكل لا تقتضى أن قاصد الربا يعفى من الوزر والحساب عليه أمام الله .

هذا ويجب أن نعلم أن الاسلام يرى أن كل كسب يحصل عليه الانسان فى هذه الحياة لابد وأن يكون نتيجة عمل يقوم به المرء — كما أن الاسلام حريص على تقوية الروابط بين الناس القائمة على التعاون والتعاطف

والبر والتراحم ، ولا يتحقق ذلك بين أناس تحركهم المادة وحدها ونسوا مبدأ التكافل الذى هو الدعامة الكبرى فى كيان المجتمع الإسلامى .

إن فى القضاء على الربا تقريب حقيقى للطبقات ، ويجب أن نعمل من الآن حتى يتهيأ لنا الجو الذى نريده وهو التمسك بالمثل العليا التى نادى بها الدين ، ولا يصح أن نبتعد عن حظيرة الدين لنفصل بين الإيمان به والعمل بمقتضاه ، فالإيمان بالدين يعنى العمل بكل ما جاء به الوحى بلا تفريق أو تجزئة .

٢ — المحافظة على مال اليتيم :

اليتيم لغة وشرعاً من فقد أباه ، وأصبح فى حاجة إلى رعاية الغير ، ليتولى أمره ويرعى مصالحه ، ويحافظ على ماله ، ويعمل على إنمائه بالطريق المشروع .

وليس للوصى على اليتيم أن يوجه ماله فى مشروع غير مأمون العاقبة ، أو يفرض منه أجراً لنفسه إلا فى حدود ما أباحه الله ، فمال اليتيم أمانة تحت يده ، وما نشاهده اليوم أو نسمع به ، من إستغلال الأوصياء لمال اليتامى — وهو أمانة — إنما هو لون من ألوان الانحلال الخلقى أوعدم الخشية من الله ، ولو درى كافل اليتيم ما أعد له من مكانة سامية عند الله ، لحافظ على ما اؤتمن عليه . وهل هناك أسمى من رفقة النبى فى الجنة ؟ فقد قال ﷺ « أن وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين » وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى .

ولقد شدد الإسلام فى المحافظة على أموال اليتامى — وكذلك من لا آباء لهم ممن فقدوا فى الحرب — أو طال غيابهم لسبب أو لغير سبب — فقال تعالى : « وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ »[1] .

---

(١) الآية ٣٤ من سورة الاسراء

(٢) سبق ذكر وجوب رعاية اليتامى ص ٩٥

ونهى عن أكل مال اليتيم وأنذر بعذاب عظيم ، فقال تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا »[(١)] » .

وقد أطلع الله نبيه على ما أعد لهؤلاء من العذاب ، فشاهد ليلة الإسراء والمعراج رجالا ونساء فى السعير ، والنار لها دوى فى بطونهم تدخل من أدبارهم وتخرج من أفواههم ، فسأل جبريل عن ذلك وقال له : (من هؤلاء يا أخى يا جبريل ؟ قال هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ، إنما يأكلون فى بطونهم ناراً)، وقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: « اجتنبوا السبع الموبقات — قيل وما هى ؟ قال : الشرك بالله ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، والسحر ، وأكل الربا . وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » .

وليس للولى أن يقرض من مال اليتيم ، وله أن يخرج زكاته مع مراعاة تنمية هذا المال ، فقد أوصى النبى بتنمية مال اليتيم ، فقال : « اتجروا فى مال اليتيم حتى لا تأكله الصدقة » أى حتى لا تأخذ منه الصدقة — وهى الزكاة المفروضة — عاماً بعد عام من غير أن يوجد ما يعوضه .

هذا وقد حارب الإسلام فى القائمين على الأموال البذخ والتبذير ، وجعل للحاكمين الحق فى أن يقفوا المسرفين المبذرين بالمرصاد، لأن المال قوام الحياة ، فيجب حفظ هذا المال ، حتى إذا ما كبر اليتيم استرد ماله كاملا ، قال تعالى :

« وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا »[(٢)].

---

(١) الآية ١٠ من سورة النساء

(٢) الآية ٢ من سورة النساء .

وحتى يبعد الوصى نفسه عن الشبهات فلا بد من الإشهاد عند إعطاء اليتيم ماله بعد أن يبلغ رشده :

قال تعالى : « وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً »(١) .

تلك رعاية اليتيم كما أوجب الإسلام (وخير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه) كما قال ﷺ — وقد ورد فى فضل رعاية اليتيم قول النبى صلى الله عليه وسلم : من عال ثلاثة من الأيتام كان كمن قام ليله وصام نهاره ، وغدا وراح شاهراً سيفه فى سبيل الله ، وكنت أنا وهو فى الجنة إخواناً كما أن هاتين أختان) وألصق إصبعيه السبابة والوسطى — فبقدر ما يبذل فى تربية اليتامى الأطفال وتقديمهم — بقدر ما يكون للأمة من مكانة وعزة — فأطفال اليوم هم لبنات بناء المجتمع ، وهم رجال الغد فيجب الرعاية والاهتمام بهم . حتى لا يفسده الهوان فيكون جرثومة فساد يتعدى أذاها إلى الغير .

٣ — حرمة مال الغير

وإذا كان مال الغير محرماً فما نشاهده اليوم مما يحز فى النفس ويؤلم ذوى الضمائر الحية من انتشار جرائم الاختلاسات والسرقات وغيرها كالنشل والرشاوى وخلو الرجل واستغلال ذوى الحاجات بشتى الوسائل وكل هذه أمور قد حرمها الله — وفرض لها أشد العقوبات .

فقد جعل حد السارق قطع اليد حتى يكون عظة للغير ، وردعاً له عن الإقدام عن هذا الجرم .

(١) الآية ٦ من سورة النساء

قال تعالى : « والسَّارِقُ والسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »(١).

وجعل جزاء المغتصب وقاطع الطريق ، ومن يبث الرعب والفزع فى قلوب الآمنين المطمئنين (الصلب وتقطيع الأطراف من خلاف)

قال تعالى : « إنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فى الأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ »(٢).

وكثيراً ما سمعنا عن حوادث النشل المتكررة ، والضحايا فى أشد الحاجة إلى هذا المال المسروق فقد يكون ثمنا لدواء مريض أو أجراً لمسكن يؤويه ، أو ثمنا لطعام أسرة فى انتظار عائلها وهم فى أشد الحاجة إليه ، وأصبح الإنسان غير آمن فى مسكنه بالرغم من تزاحم الأقفال على الأبواب وإحكام إغلاق النوافذ ، ومع هذا نسمع الكثير عن حوادث السرقات ونشر الفزع فى قلوب الآمنين — بل وقد تبلغ الجرأة بهذا المجرم أن يسفك دماء ضحاياه الذين يقاومونه أو يستصرخون غيرهم من الجيران مستغيثين .

ولا علاج لهذه الآفة الاجتماعية إلا بموقف حاسم من أولياء الأمور والأخذ بالشدة على أيدى هؤلاء المجرمين وتنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية، فهى خير علاج لهذه الأدواء .

وهذا مادعا العميد الأسبق بكلية أصول الدين (الشيخ عبد الجليل عيسى) إلى توجيه خطاب مفتوح إلى وزير الداخلية نشر بصحيفة الأخبار فى

---

(١) آية رقم ٣٨ من سورة المائدة

(٢) الاية ٣٣ من سورة المائدة

أوائل صفر ١٣٩٥ هـ منبهاً ومحذراً من العواقب الوخيمة لهذا الكابوس المسيطر على نفوس المواطنين ، ومنادياً بتدخل أولى الأمر للوقوف فى وجه هذه الفئة الباغية بيد من حديد .

ومما قاله : (. . . وإذا كان الملاحظ أن الجناة على شراستهم يقعون دائماً وبسرعة فى قبضة رجال الأمن ، إلا أن المشكلة تبقى فى السؤال عن كيفية انحصار هذه الموجة من الاستهتار بالقوانين ومن القسوة والتجاوز عن المألوف فى جرائم الاعتراض والنشل والخطف وغيرها .

وفى الإجابة على هذا السؤال يبرز دور العقوبة الرادعة — العقوبة التى يمكن أن تعالج هذا الشذوذ الطارىء وهى تفرض عامل الهيبة لقوانين المجتمع ، وعامل الحرمة لحياة المواطنين وممتلكاتهم مع اتسامها فى نفس الوقت بالطابع الإنسانى الذى لا يلجأ إلى تصعيد العقوبة بدنياً لردع العنف بالعنف ،ولا يمكن فى التعليق على هذه الحوادث « المؤسفة » أن نتهم رجال الشرطة بالتقصير ، ونحن نشهد لهم بالجد واليقظة والذكاء فى مكافحة الجريمة ، وفى مراقبة العائدين وسرعة الوصول إليهم إذا عادوا .. وذلك لأن القصور يتخطاهم كما نرى إلى نوع « العقوبة الرادعة » لمثل هذا الاستهتار بالقوانين الذى يوشك أن يكون مرضاً استعراضياً أو هوساً ، لذلك أهيب بكم أن تواجهوا هذه الحوادث المتناثرة هنا وهناك بالعقوبة الملائمة لردعها وإيقافها قبل أن تصبح تياراً — ومواجهتها بتشريع يستند دستورياً إلى شريعتنا التى هى مصدر رئيسى من مصادر التشريع . .

إنى أهيب بكم أن تأخذوا بالمبدأ السليم الذى أخذ به المسلمون فى بعض الأحوال المماثلة وهو « من أحدث ذنباً أحدثنا له العقوبة التى تكفه عنه » .

بل إنى أقترح عليكم أن تستعيدوا إلى التطبيق والتشريع أخف أنواع الجزاء الذى يحكم به الله على مثل هؤلاء المجرمين الذين يرتكبون فى الحقيقة

تحت أنواع مختلفة من الجرائم جريمة واحدة هى « الإفساد فى الأرض » وذلك حيث يقول تعالى :

« إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا ، أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِنْ خِلَافٍ ، أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ، ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ »(١).

إنى أقترح عليكم أخف هذه الجزاءات وهى أن « ينفوا من الأرض » — أن يبعدوا عن المدن إلى أماكن نائية نعمرها بأعمالهم ونستثمرها بتهذيبهم ، ونجعلها فى نفس الوقت مثالا رادعاً لغيرهم — مثالا لعقوبة حضارية وشرعية — على جرائم غير حضارية فيها حرب على الله وشرائعه. وبالتأكيد فإنكم تعلمون كما نعلم جميعاً أن الله فى حكمه هذا أعلم بعباده عن عباده ، وأرحم بعباده من عباده — وهو الهادى إلى سواء السبيل) اه

هذا هو الخطاب المفتوح الموجه إلى المسئولين حتى يمكن القضاء على هذا الفساد وهو ما نطالب به اليوم — حتى ينتشر الأمن فى البلاد .

وقد لاحظت فى المملكة العربية السعودية أن الأمن مستتب.وأمانة الناس وبعدهم عن المال الحرام دستورهم الذى لا يحيدون عنه ، وعلمت أن كل من يسرق هناك تقطع يده على الفور عندما تثبت جريمة السرقة عليه ، ومن أجل هذا فقد انتشر الأمان وعم الخوف قلوب المجرمين بل وتيقظت ضمائرهم، وعرفوا أن هناك رقابة دائمة تلاحقهم فأصبح لهم من أنفسهم رقباء .

وهذا ما أوضحه واحد من المملكة العربية السعودية فى حوار مع أحد أولئك الذين يتباهون بالمدنية والتقدم فى أمريكا — فقال لمحدثه : — إن تنفيذ قانون الإسلام بقطع يد السارق كان سبباً فى نشر الأمان فى كل مكان

---

(١) الآية ٣٣ من سورة المائدة

بالسعودية مع اتساع الرقعة وانتشار الصحارى والوديان ، وهى من عوامل تشجيع الاجرام - لو لم يكن هناك حزم فى تنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية .

أما فى أمريكا ، فمع انتشار المدنية الحديثة والأخذ بمبادىء القوانين الوضعية ، فقد انتشرت حوادث السرقة والإجرام بالرغم من انتشار العمران فى كل مكان مع أنه لايخلو مكان من رجال الأمن .

ونحن فى مصر وكل مكان نتطلع إلى اليوم الذى يتخذ فيه إجراءات حاسمة للقضاء على الجرائم المتفشية وذلك بتنفيذ ما شرعه الله من قوانين صالحة لكل زمان ومكان . ويكفى أن يشعر السارق بأن يده ستقطع وأن ذلك فضلا عن تعجيزه له سيفضحه أمام الملأ .

إن تطبيق هذا الحد — مرة واحدة — سيكون أقوى رادع للذين لم تردعهم العقوبات المألوفة .

ثانياً : التقوى فى المحافظة على الأعراض

١ — تحريم الزنا :

تقضى تعاليم الإسلام بالحرص على حرمات الغير والمحافظة عليها بكل الوسائل ، ومن هذه الحرمات (أعراض النساء) فلا يصح التعرض لها بما يخدش حياءها أو يهين كرامتها .

وجريمة الزنا من أبشع الجرائم التى حرمها الله ، إذ فيها تتوافر الكثير من الموبقات : ففيها سرقة الأعراض ، وفيها خيانة الأزواج ، وفيها فضيحة العائلات وفيها إهانة الكرامات ، وفيها اختلاط الأنساب ، وفيها فوق ذلك غضب الجبار الذى لا تخفى عليه خافية .

ولو تساءل الإنسان مع نفسه ، هل يقبل أن يتعرض أحد لزوجته أو

بنته أو أخته أو أمه — لخجل كل الخجل — فكيف يرضى لنفسه ما لا يرضاه لغيره ؟

إننا نذكر المناقشة التى دارت بمجلس الشعب فى ٦/٧/٧٥ عن الأفلام الهابطة فقد قال أحد الأعضاء (إن الذى يؤثر فى الأخلاق وفى قيم الأسرة تأثيراً سيئاً يؤدى بالشباب للميوعة ـ هو ما تعرضه شاشة السينما والتليفزيون من أفلام مثيرة) .

وهل هناك أشد تأثيراً من الأفلام المثيرة والأفلام الجنسية الجريئة ؟

إن رفع التكلف نتيجة الاختلاط الذى لا يرضى به الاسلام والتزاور فى غيبة الرجال فى البيوت ، فيخلو الرجل بالمرأة والشيطان ثالثهما ، فيؤدى ذلك كله فى النهاية ، إلى نتيجة مخجلة . فكثير من الناس من لا يجد من نفسه عزماً يقاوم به الشهوة ، فتحلو له الخطيئة فيقع فى الزلل فيقتحم الحرمات .

قال تعالى : « وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً »[١]

فنهى عن قربانه لأنه داع إلى مباشرته لأنه فعلة ظاهرة القبح متجاوزة الحد فبئس طريقا طريقه ، فإنه غصب الأبضاع المؤدى إلى اختلال أمر الأنساب وهيجان الفتن . (اهـ تفسير أبى السعود) .

وقد قال النبى ﷺ « إذا زنى العبد خرج منه الإيمان فكان على رأسه كالظلة فإذا انقطع رجع إليه » .

وفى رواية أخرى « إن الإيمان سربال يسربله الله من يشاء ، فإذا زنى العبد نزع منه سربال الإيمان . فإن تاب رد إليه » .

وقال عليه الصلاة والسلام « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن »

وعن حذيفة رضى الله عنه أنه قال : قال عليه الصلاة والسلام « إياكم والزنا فإن فيه ست خصال ثلاث فى الدنيا وثلاث فى الآخرة — فأما التى

---

(١) الآية ٣ من سورة الإسراء

فى الدنيا فذهاب البهاء ودوام الفقر وقصر العمر — وأما التى فى الآخرة فسخط الله تعالى وسوء الحساب والخلود فى النار » .

وقد أوجب الله غض البصر من الجانبين — الرجال والنساء — حتى لا تشاع الفتنة ، فالعينان تزنيان :

قال تعالى : « قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ »(١) .

فكيف يتحقق غض الطرف مع الاختلاط المباح ، وقد انتشرت أساليب الإثارة المتنوعة ؟ .

لقد انطلقت الفتاة تحت ستار المدنية الحديثة تخالط من تشاء من الرجال ، فهل فى الاسلام ما يشير إلى إباحة هذا التصرف ؟

إن القرآن الكريم يشدد عقوبة الزنا . وجعل حد الزانى الرجم حتى الموت للمتزوج — والجلد مائة جلدة لمن لم يسبق له الزواج من الجانبين ، وتكون العقوبة أمام كثرة من الشهود المؤمنة ليكون نكالا وعبرة ، دون رأفة أو هوادة فى تنفيذ الحد .

قال تعالى : « الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ »(٢) .

ويزاد على هذا الجلد (بالسنة) تغريب عام . فالواجب على المؤمنين أنه

---

(١) تكملة الآيات ص٥٤ (٢) الآيتان ٢ و٣ من سورة النور

يتشددوا فى دين الله ولا يأخذهم اللين والهوادة فى استيفاء حدود الله . وقد فسر ابن عباس (الآية) فذكر الطائفة بأنها أربعة إلى أربعين رجلا من المصدقين بالله ، ولا يصح الاكتفاء بتزوج الزانى ممن اغتصبها دون توقيع العقاب عليه كما حدده الشرع ، لا كما نشرته إحدى الصحف عن نتيجة تحقيق فى جريمة زنا فتذكر هذه العبارة (. . . لكن توقف التحقيق فى القضية بعد أن تزوج الشاب من الفتاة) ؟! .

وعلى هؤلاء الزناة أن يذكروا دائماً حديث رسول الله ﷺ « إن السموات السبع والأرضين السبع والجبال لتلعن الشيخ الزانى وإن فروج الزناة ليؤذى أهل النار نتن ريحها » .

والمحافظة على أعراض النساء : فقد حدد الله عقاباً للقــذف حماية للأعراض وصيانة لها من التعرض بما يسىء حفظاً للكرامة وصوناً للعفاف من أن يمس ، ونكالا بمن يميل إلى التشهير بالنساء العفيفات والفتيــات الطاهرات ، وقد يلجأ بعض الخاطبين إلى التشهير بمن فسخ خطوبتها حتى لا تتزوج بغيره ، لهذا جعل الله حد القذف ثمانين جلدة ، وأسقط عن القاذفين العدالة فلا تقبل شهادتهم ولا يقام لهم وزن .

قال تعالى : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ »[1] .

وهكذا يحرص الإسلام دائماً على الكرامة حتى لا تخدش ، وعلى العفاف حتى لا يمس . وعلى الطهارة حتى لا تلوث ، لتظل الأعراض فى حماية دائمة ، ويعيش المجتمع طاهراً نقياً .

فالحماية الإلهية قائمة وسيف الحق مسلط على من تعرض بالإيذاء للغير

---

(١) الآية ٤ من سورة النور

فالمؤمنون إخوة والأخوة تقتضى تقوية الروابط وتوطيد الصلات والمحافظة على الأعراض وتلكم طريق التقوى .

٢ — مراعاة حرمة الغير

الإسلام حريص كل الحرص على حسن العلاقة بين أفراد الأمة وتوطيد الصلة القوية القائمة على المحبة ، واحترام الحقوق ، والاحتفاظ بالأمانات والأسرار ، وصون الأعراض ، والعون عند الشدائد ، وما إلى ذلك مما تفرضه العلاقات الإنسانية السامية .

ومن أجل ذلك أوجب الإسلام عدم التجسس حتى لا تتكشف عورات الناس ، ومن تتبع عورات الناس تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته فضحه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد .

ونهى الإسلام عن الغيبة والنميمة ، فلا يحق لامرىء أن يغتاب أخاه فى مجالس السمر أو أماكن العمل أو فى أى مجتمع يوجد فيه .

فقد روى أن سلمان كان يخدم رجلين من الصحابة ويسوى لهما طعامهما فنام عن شأنه يوماً — فبعثاه إلى رسول الله ﷺ يبغى لهما إداماً ، وكان أسامة على طعام رسول الله ﷺ فقال ما عندى شىء — فأخبرهما سلمان — فقالا لو بعثناه إلى « بئر سميحة » لغار ماؤها — فلما جاء إلى رسول الله ﷺ فقال لهما (مالى أرى خضرة اللحم فى أفواهكما) فقالا : ما تناولنا لحما — قال (إنكما قد اغتبتما ، ومن اغتاب مسلماً فقد أكل لحمه) ، ثم قرأ الآية (الآتى ذكرها) .

وكثيراً ما رأينا صراعا دائراً ، وخصاما دائماً ، وعداوة قائمة بين بعض الناس ، وسبب ذلك كله ما أحدثته الغيبة ، وأوقعته النميمة ، فالدس والوقيعة توغر الصدور وتغير النفوس وتبث الكراهية والأحقاد ، وقد نهى الإسلام عن ذلك ونبه الرسول ﷺ إلى العاقبة الوخيمة لهذا الإثم فقال « لا يدخل

الجنة نمام » وقال « إن الرجل إذا كان يغتاب الرجل فى الدنيا أتى به يوم القيامة ميتا ، فقيل له : كما أكلت لحمه حياً فكله ميتا ، فإنه ليأكله ويصيح ويكلح » أى يكشر فى عبوس .

وسعادة الناس فى حياتهم الفردية أو الاجتماعية معقودة بسد منافذ السوء والبعد عن كل ما يؤذى الإنسان ويؤلمه وما يحدث ضرراً فى الفرد والجماعة، حتى أن الجهر بالسوء حرمه الله سبحانه وتعالى فقال :

(لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا)(١)

وصور هذا الجهر كثيرة مثل ذكر عيوب الناس وإشاعة الفاحشة والتحدث بما يقبح من المنكرات وطرق الاحتيال وما إلى ذلك ، مما يترك أسوأ الأثر فى أخلاق الناس وحياتهم وعلاقاتهم بعضهم ببعض ، هذا المجاهر يتحدث عنه الرسول فيقول « كل أمتى معافى إلا المجاهرين » .

وقد نهى الرسول عن الاستطالة فى عرض المسلم بغير حق ، ونهى عن شتم الأعراض . فقد روى عنه أنه قال « إن أربى الربا شتم الأعراض ، وأشد الشتم الهجاء ، والراوية أحد الشاتمين » .

وفى الآية الكريمة التالية ما يحث على البعد عما يسىء إلى العلاقات الإنسانية

قال تعالى « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُم بَعْضًا . أَيُحِبُّ أَحَدُكُم أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ »(٢)

وقد فتح الله باب التوبة لمن أقدم على هذا العمل القبيح فقال :

﴿ واتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ توَّابٌ رَحيمٌ ﴾

---

(١) الآية ١٤٨ من سورة النساء (٢) الآية ١٢ من سورة الحجرات

قال النسفى فى تفسير هذه العبارة : واتقوا الله بترك ما أمرتم باجتنابه ، والندم على ما وجد منكم منه ، فإنكم إن اتقيتم تقبل الله توبتكم وأنعم عليكم بثواب المتقين التائبين .

وجوب الاستئذان :

ومن آداب الإسلام السامية وجوب الاستئذان على الغير حتى لا يفاجأ بكشف ما يكره ومعرفة ما لا يحب أن يطلع عليه غيره .

قال تعالى « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلاَ تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ »(١)

وفى تفسير أبى السعود : إن هذه الآية وما بعدها تفصيل الزواجر عما عسى يؤدى إلى الزنا ورمى العفائف ، من مخالطة الرجال بالنساء ودخولهم عليهن فى أوقات الخلوات ، وتعليم الآداب الجميلة والأفاعيل المرضية المستتبعة لسعادة الدارين ، ووصف البيوت بمغايرة بيوتهم ، خارج مخرج العادة التى هى سكنى كل أحد فى ملكه ، وإلا فالآجر والمعير أيضاً منهيان عن الدخول بغير إذن حتى يستأذن من يملك الإذن من أصحابها (والاستئناس بمعنى الاستعلام) .

والتسليم على أهل البيوت عند الاستئذان واجب — وقد روى عن النبى ﷺ « أن التسليم أن يقول : السلام عليكم ـ أأدخل ؟ ثلاث مرات ، فإن أذن له دخل وإلا رجع » .

وروى أن رجلا قال للنبى ﷺ « أستأذن على أمى ؟ قال له : نعم ـ

---

(١) الآيتان ٢٧ ـ ٢٨ من سورة النور

قال : ليس لهـا خادم غيرى ـ أ أستأذن عليها كلما دخلت ؟ قال عليه الصلاة والسلام : أتحب أن تراها عريانة ؟ قال لا . قال: فاستأذن »

وقد نهى الله عن دخول البيوت الخالية ممن يملك الإذن بالدخول كالنساء والولدان ، لما فيه من الاطلاع على ما يعتاد الناس إخفاءه ، والدخول على النساء والولدان محرم بدلالة النص، وإن صدر الأمر بالرجوع ، سواء كان الأمر ممن يملك الإذن أو لا ـ فلابد من الرجوع دون إلحاح أو إصرار على الدخول .

وهذا أكبر دليل على حرمة البيوت وعدم الاقتحام بغير إذن .

ومن أجل هذا حرم القانون اقتحام أى منزل إلا بإذن من النيابة العامة ـ لأمر يتعلق بأمن الدولة أو تنفيذ لحكم صادر من جهة قضائية .

وعن سهل بن سعد قال : اطلع رجل من جُحْر فى حُجَر النبى ﷺ ومع النبى مدرى يحك به رأسه : فقال « لو أعلم أنك تنظر لطعنت به فى عينك إنما جعل الاستئذان من أجل البصر » .

وفى رواية أخرى عن أنس : « أن أعرابياً أتى النبى ﷺ فألقم عينـه خصاصة البـاب ، فبصر به ، فتوخاه بعود أو حديدة فانقمع ، فقال له الرسول : أما إنك لو ثبت لفقأت عينك » .

وهكذا حافظ الإسلام على حرمة البيوت ، وشرع لنـا الطريق الذى يجب أن نسلكه فى المحافظة على حرمات الغير ، حتى تسود المحبة فى المجتمع ، وحتى يشعر الإنسان أنه فى أمن من العادين والباغين .

إن سمة هذه الأمة المسلمة هى الحب والألفة ومودات القلوب، ولا يتحقق ذلك إلا بالمحافظة على حرمات الغير . والإسلام يهتف للبشرية بنداء الحب، ويوقع على أوتار القلوب ألحانه العذاب ، فتستجيب إليه حين يخالطها نداوة الإيمـان .

٣ — حرمة الدم؟

قال تعالى « وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ »(١).

أى جريمة أبشع من جريمة سفك الدماء؟! وإزهاق أرواح الأبرياء؟! لغير سبب أو لسبب قد يكون تافها ـ كما تحدثنا الصحف كل يوم.

ولقد نشرت الصحف تطاول بعض الأبناء على الآباء من أجل الاستيلاء على ثروتهم بطريق غير مشروع، أو لمضايقة من بعض تصرفات قد لا تعجب ذلكم الابن العاق، دون وازع من ضمير أو رادع من خلق، أو استجابة لأمر الله الذى يحث على إكرام الوالدين وعدم مضايقتهما بأدنى عبارة توحى بالتضجر أو التأفف.

قال تعالى « وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا »(٢).

فالابن العاق لا يأبه بصلة الأرحام، ولا بالفضل الذى أسبغه عليه والده منذ ولادته، بل قد جعل جزاء تربيته له إزهاق روحه والتخلص ممن كان سبباً فى وجوده.

وكم نشرت الصحف حوادث السطو على المال ولو أدى ذلك إلى إزهاق الأرواح استجابة لإثارة تلقفها هذا الآثم بعقله من كتاب رخيص أو تقليداً لمشهد شاهده فى فيلم أو استجابة لنزوة طائشة.

---

(١) الاية ٢٧ من سورة المائدة (٢) الآيتان ٢٣ و ٢٤ من سورة الإسراء

وكم استمعنا إلى حوادث الثأر المتكررة دون خوف من عقاب ، ولو طبق مبدأ القصاص كما نصت الشريعة (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ) ونفذت عقوبة الإعدام استجابة لأمر الله ، ماجرؤ أحد على إزهاق روح مهما كانت الأسباب .

ولقد وقعت أول جريمة قتل فى مسرح الحياة ، بين اثنين من أبناء آدم، (قابيل وهابيل) بسبب متعة زائفة ـ وهما أخوان شقيقان ـ ولجأ المقتول قبل أن يقتل إلى كل طريقة مهذبة لاستعطاف قلب قاتله فخاطبه معاتباً : « ... لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ »(١) .

فالخوف من الله وتقواه خير رادع لارتكاب الجرائم ، ولكن من خلا قلبه من خشية الله ، وساءت علاقته بالله ، أقدم على الجريمة دون حياء من الله

« فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ »(٢) .

وخسر الدنيا والآخرة بقتل أخيه وخسر نفسه التى انحطت بهذه الجريمة البشعة ، وخسر أخاه وهو عونه فى هذه الحياة ، وخسر أباه الذى غضب عليه وقاطعه ، فقد بث الحزن فى قلبه على فراق ولده ، وخسر جميع المحيطين به فقد تحاشوه جميعاً لإجرامه .

ويصدر الجبار القرار بتحريم القتل :

(مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا »(٣)

وصدر قانون الزجر بين الأفراد والجماعات :

(١ ـ ٢) الآيتان ٢٨ ـ ٣٠ من سورة المائدة (٣) الآية ٣٢ من سورة المائدة

« وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيما »[1]

فهل هناك أقسى من هذا الجزاء ؟! عذاب عظيم فى جهنم ، وغضب دائم من الله ، ولعنة مستمرة من المنتقم الجبار . فماذا ينتظر القاتل بعد ذلك كله ؟

ولقد حرص الرسول ﷺ على تذكير الناس بالمحافظة على الحرمات حتى فى آخر لحظة من حياته ، ففى خطبة الوداع ، كرر البلاغ فقال: « أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام ، إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا .. ألا هل بلغت ، اللهم فاشهد »

هذا وقد وردت أحاديث كثيرة فى تحريم القتل وكلها تندد بهذه الجريمة النكراء . فقد قال الرسول ﷺ « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه »

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ « لايحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والمارق من الدين التارك الجماعة » .

وعن ابن عباس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن أقرب الخلائق من عرش الرحمن يوم القيامة المؤمن الذى قتل مظلوما رأسه عن يمينه وقاتله عن شماله وأوداجه تشخبُ - يقول : رب - سل هذا فيم قتلنى ؟ فيم حال بينى وبين الصلاة ؟ »

لهذا كان الأمن لابد منه للإنسان فى هذه الحياة حتى يتقدم العمران ، وتزدهر الحياة وحتى تتحرك الأرض حركتها المثمرة ، والعدل لابد منه على طريق الإنسان يساند الأمن ويتضامن معه حتى لا يعرقل الظلم سير قافلة الحياة ، وبهذا يقرر القرآن الكريم القصاص العادل .

---

(١) الآية ٩٣ من سورة النساء .

التقوى والجهاد

قال تعالى « فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ » (١)

الصراع بين الخير والشر دائم مادامت البشرية والحرب بينهما دائرة الرحى ، ولكنها سجال ، والعداوة لاتخبو نارها بين الدعاة إلى الحق والصلاح . وبين الدعاة إلى الباطل والفساد ، ولما شهر إبليس وجنوده سلاح الغواية ، شهر المتقون من عباد الله فى وجهه سلاح المقاومة .

وهكذا كان الجهاد نوعان : جهاد المعتدى الغاصب ، وهذا هو الجهاد الأصغر . وجهاد النفس وهذا هو الجهاد الأكبر .

والباعث على القتال فى الاسلام ليس هو فرض العقيدة الاسلامية على الناس بالقوة أو إكراههم على اتباع أحكام الدين . فالله يقول :

« لاَ إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ » (٢)

فالبواعث على القتال تدور كلها فى حدود الفضيلة ، ولاتخرج عن دائرة الدفاع المشروع . ومن هذه البواعث :ـ

(١) الدفاع عن العقيدة ـ فمصادرتها معناها الحرمان من الحياة الطيبة فى هذه الدنيا .

قال تعالى « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَتَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ، فَإِنِ انْتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ » (٣)

٢ ـ الدفاع عن النفس والمال والوطن والعرض: فقد حرم الإسلام الاستسلام للقاتل ، ومن مات وهو يذود عن أسرته ويحمى عرضه وشرفه

---

(١) الآية ١٩٤ من سورة البقرة . (٢) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة
(٣) الآية ١٩٣ من سورة البقرة .

فهو من الشهداء الشرفاء ، فلا يستنيم المسلم إلى الذل والهوان والضعة ، لأن الاسلام دين العزة والقوة (المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير) هكذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد روى أبو هريرة رضى الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالى ؟ قال: (فلا تعطه مالك)، قال: أرأيت إن قاتلنى ؟ قال : (قاتله) ، قال : أرأيت إن قتلنى ؟ قال (فأنت شهيد) قال: أرأيت إن قتلته ؟ قال (هو فى النار) .

٣ — تأديب الخائنين والمتآمرين : فقد أذن الله للمسلمين أن يقابلوا العدوان بالعدوان وأن ينتقموا لأنفسهم وأن يحموا عقيدتهم ممن يتربص بها الشر وقد نشرت الصحف نبأ يثير الأسى ويوجب الوقوف بحزم فى وجه المارقين على الجماعة فقد تحدثت هذه الصحف عن شباب يمارسون حياة غريبة شاذة فى الصحارى والكهوف ، وتحت فورة الحماس الغبى والغيرة العمياء تمثل هؤلاء المارقون سيرة الخوارج ، فكفروا الأمة الإسلامية وخرجوا على نظام الدولة ظنا منهم أن العدل فى الحكم لا يتحقق إلا بالخلافة . والإسلام لم يرسم للمسلمين صورة محددة للحكم الذى يقيمونه سوى ما أوجبه من الأخذ بنظام الشورى والعدل .

ولقد أطلقوا على أنفسهم جماعة التكفير — وهم إلى طريق الكفر أقرب وعن طريق الصواب أبعد — إنها محنة ما كان لها أن تحدث لو قويت الصلة بالله — وما كان لأحد أن يسمح بحدوث هذه المحنة فى وقت يسعى العلماء فيه إلى بناء أمة مسلمة تعتز بقرآنها وتترسم خطى نبيها ، يعاونهم فى ذلك الغيورون على دينهم ، وقد بدأت اليقظة الدينية تغزو القلوب ، وآن للنائمين أن يستيقظوا من سباتهم العميق ، وقد لمسوا أثر الإيمان فى حرب

العزة والكرامة (ولله العزةُ ولرسُولِه وللمؤمنين) فقد كان شعار المقاتلين في معركة رمضان عام ١٣٩٣ هو (الله أكبر) ـ يرددونه بأصوات عالية مدوية تبلغ عنان السماء وإذا بالملائكة تردد صداها ، وتستجيب للنداء فتقاتل مع المقاتلين وتدافع مع المدافعين والله معهم أقوى مدافع وصدق وعده « إنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا »[1] فتهتز الأسياف في أيدى المقاتلين ، وتزلزل أصواتهم جبال العتاة وصلف الغزاة ، وتتجلى بوادر النصر ، فتحمل القوم على مواصلة الكفاح ، وينزل المدد من السماء ، فتتجمد الأسلحة في أيدى الأعداء ، ويتوجه الرسول ﷺ إلى ميدان القتال ـ [ولقد شاهدته عليه السلام في المنام ـ يسرع إلى سيناء ويقول : لن أترك أبنائى يقاتلون وحدهم] ـ فسلام عليك يا رسول الله ، يا من كنت ولا زلت شفوقاً بأمتك حريصاً على دعوتك مدافعاً عن أحبابك .

ولقد أمدهم الله بمدد من عنده كما وعد ووعده الحق « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ »[2] ونبعت المياه في أماكن شتى ـ في صحراء سيناء ـ جفت منها الماء وتطلع المقاتلون إلى شربة تروى ظمأهم ـ وكأنى بهم في معاركهم اليوم ـ قد اشتركوا في غزوات بدر وغيرها ـ وشاهدوا من المعجزات وخوارق العادات ما يجل عن الوصف ـ فتذكروا وعد الله

« بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ[3] »

ولقد عاد جنودنا من هذه المعركة وكلهم إيمان بالله ـ وثقة في نصر الله متمسكين بدين الله ـ وتلك حلاوة النصر وثمرته .

وهكذا كان المسلمون الأول يرون الجنة وأبوابها تحت ظلال السيوف

(١) الآية ٣٨ من سورة الحج
(٢) الآية ٧ من سورة محمد
(٣) الآية ١٢٥ من سورة آل عمران

فقد روى عن أبى بكر بن أبى موسى الأشعرى قال : سمعت أبى رضى الله عنه وهو بحضرة العدو يقول : قال رسول الله ﷺ « إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف » فقام رجل رث الهيئة فقال : يا أبا موسى : أأنت سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا ؟ قال نعم ، فرجع إلى أصحابه فقال : أقرأ عليكم السلام - ثم جفن سيفه فألقاه ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قتل) .

وقد جعلوا التقوى خير زاد فى كل معركة - فمن ذلك وصية أبى بكر لخالد حين أرسله لمحاربة المرتدين « يا خالد - عليك بتقوى الله وإيثاره على ما سواه والجهاد فى سبيله » .

ولقد وقف عقبة بن نافع الفهرى فوق جواده على شاطىء البحر ، بعد أن فتح الله على يديه المغرب العربى ، وتطلع إلى الماء المنبسط ، وقال: (اللهم رب محمد لو أنى أعلم أن وراء هذا البحر أرضاً يابسة لاقتحمت بفرسى هذا الموج الهائج لأنشر إسمك العظيم فى أقصى بقاع الأرض) ، ولقد كان الشباب فى عصر الرسول ﷺ حريصين على القتال - فقد قالوا له حين شاورهم فى البقاء فى المدينة أو اللقاء بالكفار خارجها (وذلك فى غزوة أحد) فأجابوه (كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله به فساقه الله إلينا فى ساحتنا) - يريدون بذلك الخروج من المدينة للقاء الكفار ، وهكذا كان الحرص على القتال فى شجاعة وبأس، وهكذا كان العمل المثمر ، فالإيمان بدون عمل أبتر ، والعمل بدون إيمان أشل ، قال ﷺ : « ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل . وإن قوماً غرتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا : نحن نحسن الظن بالله وكذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » .

وأما ما أعد للشهيد من النعيم فهو يجل عن الوصف فحسبه سيرته العطرة

فى الدنيا وخلود ذكراه ، وفى الآخرة يلقى ما وعده الله به من نعيم مقيم قال تعالى :

« إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »

فالمشترى فى هذه الصفقة كريم لا يبخس وهو الله رب العالمين والبائع : المؤمنون المجاهدون المضحون بأنفسهم وأموالهم فى سبيل الله ، والسلعة : أنفس ـ الله خالقها ، وأموال ـ الله رازقها ، والثمن : جنة عرضها كعرض السماء والأرض ، والمنزلة فى الجنة ـ أعلى مراتبها ، هناك فى الفردوس الأعلى تحت عرش الرحمن وقد أخبر بذلك الرسول أم حارثة حينما سألته عن ابنها الشهيد فقال لها (... إن ابنك قد أصاب الفردوس الأعلى) وحينما سئل عن الفردوس الأعلى قال : (إنه أعلى درجة فى الجنة وفوقه عرش الرحمن)

ومر برسول الله ﷺ أعرابى وهو يقرؤها ـ قال : كلام من ؟ قال : كلام الله عز وجل ـ قال بيع والله مربح لا نقيله ولا نستقيله فخرج إلى الغزو واستشهد .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال ـ قال رسول الله ﷺ (إن أرواح الشهداء فى جوف طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش تسرح فى الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى القناديل فاطلع عليهم ربهم اطلاعة فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا : أى شىء نشتهى ونحن نسرح فى الجنة حيث شئنا ؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا ، قالوا : يا رب نريد أن ترد أرواحنا فى أجسادنا حتى نرجع إلى الدنيا فنقتل فى سبيلك مرة أخرى ، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا) .

---

(١) الآية ١١١ من سورة التوبة .

وأى ثواب أعظم من هذا الثواب ؟ وأى نعيم أحسن من هذا النعيم ؟ إن هذا المصير يطمئن الشهيد على مصيره ويجعله يقابل الموت ضاحكا مستبشراً مقبلا غير مدبر ، صائحاً كما صاح من قبله من السابقين الأولين « فزت ورب الكعبة فزت ورب الكعبة » قولة قالها أحد جنود الإسلام الأمجاد وهو يتلقى طعنة قاتلة من عدوه مما جعل عدوه ينظر إليه فى عجب ودهشة ، ويسأل عن سر مايقوله هذا الجندى المسلم — فيجاب بأن هذا هو الإيمان يغرس فى نفوس المسلمين أنهم فى لقائهم مع عدوهم بين إحدى الحسنيين: إما نصر وغنيمة وإما استشهاد يوصلهم إلى جنة عرضها السموات والأرض ، وهم أحن إلى الأخرى من الأولى ، فيقول الكافر: واعجبا ! إن دينا يجعل أهله كذلك حتى يقابلوا الموت باسمين مغتبطين لحقيق بأن يتبع !!

هكذا تجلت قوة العقيدة ، وماعز المسلمون السابقون إلا بحرصهم على الموت فى سبيل الله ورغبتهم فى أن ينالوا شرف الاستشهاد . فإذا أردنا أن نعيد الإسلام مجده علينا أن نسير على هذا الدرب واثقين من نصر الله .

« ومَا النَّصْرُ إلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ إنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيم »(١)

---

(١) الاية ١٠ من سورة الأنفال .

الباب السابع

التقوى ويوم القيامة

« وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ »(١)

أمر البعث محقق لا ريب فيه :

الناس لا يتركهم ربهم سدى دون حساب — وقد أقسم رب العزة على وقوع هذا اليوم بقوله تعالى :

« لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ . أَيَحْسَبُ الْانْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ - بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ - بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ »(١)

وظاهر هذه الآيات نفى القسم ، ولكن المراد بهذا النفى التوصل إلى التأكيد ، وكأنه يقول إن هذا واضح فلا أحتاج إلى أن أقسم عليه ، وهل يعجز الخالق عن جمع العظام والإحياء ؟!

ولقد وردت هذه الآيات فى معرض الرد على (عدى بن ربيعة) فقد جلس يوما إلى رسول الله ﷺ ، وطلب منه أن يحدثه عن يوم القيامة ، فذكر له شيئاً من أمره ، فقال له عدى :

(أما والله لو رأيت ذلك اليوم بعينى لم أصدقك يا محمد — ولم أومن بك ولا به - أيمكن أن يجمع الله العظام) ؟ فنزل الوحى فى الرد عليه .

فأقسم الله أولا بيوم القيامه نفسه، وبالنفوس التى أجهدت نفسها فى طاعة الله طمعاً فى النجاة من هذا اليرم .

---

(١) الآية ٢٨١ من سورة البقرة (٢) الآيات ١ — ٥ من سورة القيامة

ثم أوضح قدرته تعالى على جمع عظام الإنسان ، وإعادة تركيز أعضائه كله كما كانت أولا ، فيتمثل بشراً سوياً كاملا لا ينقصه شيء حتى أطراف أصابعه التى هى أصغر أعضائه ومنتهى أطرافه ، فذكر تسوية البنان مثلا فى الكمال وعدم النقصان .

وقد ذكرت سورة (القيامة) موقف الفاجر المتعامى عن الحق المتمادى فى الضلالة كلما نصح له ناصح بالكف عن الفجور خوفاً من عذاب يوم القيامة — فهو يسأل سؤال سخرية (أيان يوم القيامة)؟ أى متى وقته ؟ فهو يستبعد وقوع هذا اليوم وينكره .

ولقد تغلبت على الإنسان شهوته . واندفع بها فى ملذاته - فنسى البعث بل وأنكره ليفك نفسه من قيوده فيكون حرا طليقا فيما يشتهى - وتوضح الآية الكريمة ذلك كله « بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ »

فالإنسان لم ينكر البعث نزولا عن برهان وإنما هو محاولة التفلت من سلطان التكاليف والمؤاخذة .

وصف يوم القيامة :

ثم تذكر الآيات بعد ذلك وصف هذا اليوم « فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ - يَقُولُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ » (١) ففى هذه الآيات وصف لبعض أحوال ذلك اليوم ببيان ما يكون فيه وبيان شأن ذلك المنكر ، ففى هذا اليوم تشتد الحيرة ويزيغ البصر ويدهش فلا يطرف ولا يرى شدة الهول — ويتغير نظام العالم فلا تعود الأرض أرضاً ولا السماء سماء ويذهب ضوء القمر — وهناك آيات كثيرة توضح ما يحدث للسماء والنجوم والكواكب - ومن هذه الآيات « وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا » أى مفرقه الأجزاء « وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ » أى تناثرت منقضة من كل

---

(١) الآيات ٧ — ١٠ من سورة القيامة .

جانب « وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ » أى تساقطت متفرقة فى كل ناحية وهكذا شأن السماء — وهكذا الأحداث المتلاحقة والتغيرات المذهلة — تدفع الانسان إلى مبحث عن مخرج ويقول (أين المفر) ؟

وكيف ينجو من هذه الكارثة ؟ إنه يوم الحساب على ماقدم وأخر إهمالا أو تسويفاً ، ويعرض عليه كتابه وسجل أعماله ويقال له :

« إِقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا »(١)

فإذا أخذ فى القراءة تلجلج وتكلف الإسراع فى القراءة لينجو من هذا الموقف .

وفى هذا اليوم الرهيب ، ينكشف للأرواح مشهد الجبروت الأعظم ، فيشغل كل نفس مايصيبها من هيبة الجلال الإلهى ، وتود لونجت بنفسها ، فهى تفر من كل من تتوهم أنه يتعلق بها ، ويطلب معونتها ، فيتوارى كل امرىء من أخيه وأمه وأبيه ، وصاحبته التى هى ألصق الناس به ، وقد دافع عنها فى حياته ، ويفر من بنيه وكان فى الدنيا يجهد نفسه من أجلهم ويتحمل المشاق فى سبيلهم ، فالكل فى هول وفزع وله شأن يغنيه ، فليس عنده فضل فكر ، أو قوة يمد بها غيره ، فمن كان فى الحياة الدنيا طالبا للحق لاتحجبه عن الاعتبار غفلة ولا يبتعد عن الامتثال لأمر الله لحظة ، ولا يقتدى إلا بالرسول الكريم ، فما الذى يلاقيه إذا جاءت الصاخة ؟

سوف يطمئن إلى ماعرف وتسكن نفسه إلى ما ألف يتهلل وجهه ويضحك ويستبشر .

« وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ »(٢)

أما من رضى جهله وشغل نفسه بالجدل ، والتمس الحيل لتقرير الباطل وترويج الفاسد ، وخالف الدين ، فهو يقترف الفواحش ، والدين ينهى عنها

---

(١) الآية ١٤ من سورة الاسراء (٢) الآيتان ٣٨ و٣٩ من سورة عبس

ويفتك بمصالح العامة ، والدين يأمر بصيانتها . ويكنز المال ـ والدين يطالبه ببذله فى سبيل الخير ـ وإن أنفق منه شيئاً فهو ينفقه فى سبيل الشر ، ويظلم والدين يأمره بالعدل ، ويكذب والدين يأمره بالصدق ـ من كان هذا شأنه فماذا يكون حاله يوم الطامة الكبرى ؟ ـ يملك الهم نفسه لشر ما يتوقع ويظهر أثر ذلك على وجهه فتعلوه الغبرة (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ)[1] أى يعلوها الغبار ويغشاها السواد ، وقد يكون الغبار غبار الذل ، والسواد سواد الغم والحزن (اهـ تفسير الإمام محمد عبده) .

تلكم حال الناس يوم الفزع الأكبر يوم تتغير الأحوال وتتشتت الأفكار ، يوم يندم المتكبرون والمتغطرسون (فى الدنيا) على مواقفهم وتصرفاتهم ، ويتمنون العودة إلى الحياة الدنيا ، فيغسلون هذا العار ويتحلون بأجمل الفضائل ، حتى يلقوا ما لقيه الصالحون المتقون الذين راقبوا الله فى أعمالهم، ووطدوا الصلة بالله ـ فما تركوا ذكر الله لحظة ـ ولا تخلوا عن الإحسان برهة،ولا انقطعوا عن العبادة ليلا أو نهاراً ـ ولقد كانوا يكثرون من ذكر هازم اللذات . . . الموت — كما ورد فى الحديث الشريف (أما إنكم لو أكثرتم ذكر هازم اللذات — الموت — لشغلكم عما أرى — فأكثروا ذكر هازم اللذات الموت ـ فإنه لم يأت على القبر يوم إلا تكلم فيه ـ فيقول : أنا بيت الغربة ، أنا بيت الوحدة ، وأنا بيت التراب ، وأنا بيت الدود ، فإذا دفن العبد المؤمن قال له القبر مرحباً وأهلا ، وأما إن كنت لأحب من يمشى على ظهرى إلىّ ، فإذا أوليتك اليوم وصرت إلىّ فسترى صنيعى بك، فيتسع له مد البصر ويفتح له باب إلى الجنة ، وإذا دفن العبد الفاجر أو الكافر ، قال له القبر : لا مرحباً ولا أهلا ، أما إن كنت لأبغض من يمشى

---

(١) الآيتان ٤٠ ـ ٤١ من سورة عبس .

على ظهرى إلى ، فإذا وليتك اليوم وصرت إلى فسترى صنيعى بك فيلتئم عليه حتى يلتقى عليه ، وتختلف أضلاعه ، ويقيض له سبعون تنيناً ، لو أن واحداً منها نفخ فى الأرض ماأنبتت شيئاً مابقيت الدنيا ، فينهشنه ويخدشنه حتى يفضى به إلى الحساب ، إنما القبر روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار) رواه الترمذى عن أبى سعيد[١] .

ولقد استمعوا إلى آيات الله وهى تذكرهم بأهوال البعث فكانوا يرتعدون خوفاً من الموقف الرهيب - ويعلمكم الحياء من ربهم كيف يلقونه ؟ - هل رضى عن أعمالهم ؟ وهل تقبل منهم عبادتهم ؟ وهل يتغمدهم برحمته !

علامات يوم القيامة :

وقد ذكرت الأحاديث النبوية — الكثير عن يوم القيامة وعلاماتها وأهوالها — ولنستمع إلى رسول الله ﷺ يحدثنا عنها — فقد روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة ، قال كيف إضاعتها يا رسول الله ؟ قال إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة »

وعن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين فى ذكر الأمانة ورفعها — رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر — حدثنا أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة) .

وحدثنا عن رفعها — قال « ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر الوكت[٢] — ثم ينام النومة فتقبض فيبقى أثرها

---

(١) جمع الجوامع ١٣٠٨

(٢) النقطة فى الشىء من غير لونه

مثل المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبراً[1] وليس فيه شيء فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدى الأمانة فيقال: إن فى بنى فلان رجلا أميناً ، ويقال للرجل ما أعقله وما أظرفه وما أجلده ! وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان) .

وقال حذيفة « ولقد أتى على زمان وما أبالى أيكم بايعت (مبايعة البيع والشراء) لئن كان مسلماً رده على الإسلام ، وإن كان نصرانياً رده على ساعيه . فأما اليوم فما كنت أبايع إلا فلانا وفلانا » (كناية عن قلة الصالحين).

وكأن حذيفة بن اليمان يعيش هذا العصر ، فالخيانة قد تفشت بين بعض الناس ، ونحن نسمع الكثير عن خيانة الرجل الفاجر تجده فى عمله يختلس ، ويكذب وينافق ويسرق وينكر الوديعة ويشهد الزور خوفاً أو تزلفاً أو طمعاً فى الكسب الخبيث ؟ !

والمرأة التى لاتخشى الله تخون زوجها ، بل وتقتله إن خافت الفضيحة أو توصى بقتله كما تنقل الصحف اليومية مثل هذه الأخبار المؤلمة وغيرها من الجرائم الشنيعة ، والابن العاق يخون أباه فيسرق ماله من أجل متعة زائفة تأثراً بطيش الشباب .

والفتاة المتبرجة تخون الأمانة وتعرض جمالها فتنة للناظرين ، وقد حملها الله أمانة العفة والشرف وصيانة العرض وأمرها بعدم التبرج وهى تعصيه ، وغير ذلك كثير مما يندى له الجبين فلا حول ولا قوة إلا بالله .

وقد عرض الله الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فقال لهن أتحملن هذه الأمانة بما فيها (قلن مافيها) قال إن أحسنتن جوزيتن وإن عصيتن عوقبتن قلن: لا يارب ، لانريد ثواباً ولاعقاباً خشية وتعظيما لدين الله

---

(١) مرتفعا أو منقطعا .

وكان هذا العرض تخييراً لا إلزاماً وأما رفع الأمانة ، فالحديث يوضح رفعها على درجات من قلوب الرجال ، تقبض أولا ويبقى بعض الأثر ، وفى المرة الثانية يزول هذا الأثر فلا يبقى منها شيء فى قلوب الرجال حتى أن الناس يتبايعون فلا يجدون أحداً يؤدى الأمانة وليس فى قلب أحد ذرة من الإيمان، لأن الأمانة لازمة الإيمان كما يقول الحديث « لا إيمان لمن لا أمانة له » .

ولقد ذهبت الأمانة كما يقول راوى الحديث حتى أنه لا يثق بأحد فيأتمنه، فإذا كان هذا حدث منذ سنين طويلة فكيف بنا اليوم ؟!

إن الأمانة قد رفعت من قلوب بعض الناس ، وإن البعض يتزلف لرئيسه فيتكلم بكلمة نفاق أو يعرض بزميله فى غيبته أو يستخف بالشريعة باسم التقدم والمدنية ونسى قول الرسول ﷺ « وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالا ، يهوى بها فى جهنم » : وفى رواية أخرى «فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة » ، ونسى هذا الإنسان أهوال يوم القيامة التى حدثنا عنها الرسول الكريم « إن العرق يوم القيامة ليذهب فى الأرض سبعين باعا وأنه ليبلغ إلى أفواه الناس وإلى آذانهم »(١) .

وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: « إن الرجل ليلجمه العرق يوم القيامة فيقول : يارب ارحمنى - وفى رواية أرحنى - ولو إلى النار) .

وسبب كثرة العرق تراكم الأهوال ودنو الشمس من رءوسهم وزحمة بعضهم بعضا كما يقول الرسول « تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل فيكون الناس على قدر أعمالهم فى العرق فنهم من يكون إلى كعبيه ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه العرق إلجاما ، وأشار الرسول (بيده إلى فيه) .

فإذا كان هذا مايحدث يوم الحشر فهل أعددنا لهذا اليوم عدته ؟

---

(١) مختصر مسلم — رواه أبو هريرة

ومن علامات الساعة ماروى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن الرسول ﷺ قال : « لاتقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان يكون بينهما مقتلة عظيمة دعوتهما واحدة ، وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعمون أنه رسول الله ، وحتى يقبض العلم . وتكثر الزلازل ، ويتقارب الزمان ، وتظهر الفتن ، ويكثر الهرج (وهو القتل) وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يُهم رب المال من يقبل صدقته ، وحتى يعرضه فيقول الذى يعرضه عليه لا أرب لى به ، وحتى يتطاول الناس فى البنيان ، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول : ياليتنى مكانه ، وحتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس — يعنى آمنوا أجمعون — فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً . ولتقومن الساعة ، وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلايتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلايسقى فيه ، ولتقومن الساعة وقد رفع اللقمة إلى فيه فلايطعمها » .

وعن الحشر يحدثنا أبو ذر رضى الله عنه فيقول : حدثنى الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم « أن الناس يحشرون ثلاثة أفواج . فوجا طاعمين كاسين راكبين ، وفوجا يمشون ويسعون ، وفوجا تسحبهم الملائكة على وجوههم إلى النار . فقلنا يا أباذر قد عرفنا هؤلاء وهؤلاء ، فما بال الذين يمشون ويسعون ؟ قال : يلقى الله الآفة على الظهر فلاظهر)

فإذا كان يوم القيامة أمر لامفر منه ، وأن الحساب واقع لامحالة ، وأن أهوال هذا اليوم لا يطيقها أحد من الثقلين . فالنجاة فى هذا اليوم لاتتحقق إلا للسعداء الذين أسعدهم الله برحمته وتجاوز لهم عن سيئاتهم ، والذين فزعوا إلى تطهير النفس بتذكر عظمة الله وغيرته والتمسوا عفوه ورضوانه .

والذين عرفوا أن الوقوع فى الذنب لايحول دون سعادة المرء فى الآخرة فإن الإحساس بثقل الذنب والتوجه إلى الله بالتوبة يفتح باب الأمل فى العفو

والمغفرة ، والمحروم من عفو الله هو الذى يظل سدراً فى ظلمة الذنوب غير مستشعر غضب الله وغيرته . وتتكرر منه الخطيئة حتى يعتادها ويألفها ، ويستمر على عصيان الله ومخالفة أوامره حتى ينسى أنه فى عصيان ومخالفة .

إن الله جلت قدرته ، وهو رحيم بعباده ، فتح للمذنبين منهم أبواب رحمته وأرشدهم إلى طريق التوبة ، وجعل العبادات وقاية من الشرور . كما أن التوبة تمحو أثر المعصية ، وهى علاج يستطيعه كل إنسان .

فالتوبة تتحقق بالندم على ارتكاب المعصية ، وعدم العودة إليها ، والإسراع بها فى وقت لاحق لارتكاب الذنب .

قال تعالى : « إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً »(١) .

والله سبحانه وتعالى يفرح بتوبة العبد ، وقد صور رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الفرحة فقال : (لله أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل فى أرض دوية مهلكة معه راحلته ، عليها طعامه وشرابه قد ندت فطلبها حتى اشتد عليه الحر وأخذه العطش فقال: أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه فأنام حتى أموت ! فرجع إلى مكانه ووضع رأسه على ساعده ليموت ، ولكنه نام ثم استيقظ فإذا راحلته عنده ، عليها طعامه وشرابه ، فالله تعالى أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته) .

ولهذا فهو يبعث الأمل بالمغفرة فى النفوس ويذكر عباده بها فيقول جل شأنه « إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى »(٢) .

---

(١) الآية ١٧ من سورة النساء (٢) الآية ٣٢ من سورة النجم .

والتوبة المقبولة إنما تحصل باجتماع أمور أربعة : احتراق القلب عند صدور المعصية . والندم على فعلها فيما مضى ، والعزم على تركها فى المستقبل ، وأن يكون الحامل له على التوبة طلب رضوان الله وعبوديته .

فليذكر الإنسان دائماً موقفه من رب العزة للحساب، وأن الإعادة يوم البعث أمر لابد منه. بل إن الإعادة لتحديد المسئوليات والجزاء على الأعمال أثر من آثار العناية بالإنسان وتكريمه ، وأنه لا يمكن وقد أكرمه الله ونفحه بالعقل والشرائع أن يتركه سدى بدون حساب ولا جزاء .

فقد رسم له شرائعه ووهبه قوى العمل ، وقوى التسلط على ما خلق ، ثم أحاطه بعنايته بما ينعم به فى حياته ويحفظ له ذكراه من بعد مماته ، فلابد له إذن من يوم يسأل فيه عن النعيم ، ويتجلى فيه بالنسبة للمحسن والمسىء فضل الله وعدله وهو ذلك اليوم الموعود .

قال تعالى : « أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى »(١).

جزاء المتقين

« إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً * حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً * وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً . وَكَأْساً دِهَاقاً * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَّاباً * جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً . رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً »(٢)

استجاب المتقون لربهم فأكرمهم الله بحبه واصطفاهم من بين خلقه

---

(١) الآيات ٣٦ـ ٤٠ من سورة القيامة (٢) الآيات ٣١ـ٣٧ من سورة النبأ

وأخلصوا العبادة لله ، فاستحقوا بذلك إكرام الله لهم (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) (١)

فمن سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله .

وروى أنه صلى الله عليه وسلم طاف يوم فتح مكة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (الحمد لله الذى أذهب عنكم غيبة الجاهلية وتكبرها . يأيها الناس إنما الناس رجلان : مؤمن تقى كريم على الله ، وفاجر شقى هين على الله) . (ثم قرأ الآية المذكورة).

وقد أعد الله للمتقين من الأجر مايجل عن الوصف وذلك عطاء لهم من مالك السموات والأرض عظيم الرحمة والإنعام الذى لايملك أحد من أهل السموات والأرض أن يخاطبه فى شأن الثواب والعقاب .

وقد وردت آيات كثيرة توضح ثواب المتقين وما أعد لهم من النعيم فى الآخرة ، ومن هذه الآيات ـ الآية المذكورة فهى توضح أن لهم الفوز بالنعيم كالبساتين المليئة بأنواع الشجر المثمر، والتى تتوفر فيها تمتع فائق اللذة على حسب ما يتناسب ذلك العالم الأخروى . ففيها الحور العين فى سن متقاربة ، وفيها آنية من البللور للشراب مملوءة مترعة ، وأهلها لايسمعون ألفاظاً تتألم لها النفوس ، بل سلام دائم وتحية مستمرة من ملائكة الرحمن .

وقد حدثنا ابن عباس رضى الله عنه عن وصف الجنة فقال : قال النبى صلى الله عليه وسلم وهو يتحدث عن مشاهداته ليلة المعراج « ثم أخذ جبريل بيدى وسرنا حتى أتينا الجنة فقال جبريل: يارضوان . خذ بيد حبيب الله وأره الجنة وما أعدله ولأمته، فأخذنى وأدخلنى الجنة فنظرت فإذا أرضها بيضاء مثل الفضة وترابها المسك ، ونباتها الزعفران ، والثمار مثل النجوم المضيئة والعرش سقفها والرحمة حشوها والملائكة سكانها ، ورأيت نعيما وملكا كبيراً ، ورأيت فيها سبعة أنهر — نهر من ماء ، ونهر من لبن ، ونهر من

---

(١) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

خمر ، ونهر من عسل ، ونهر من السلسبيل ونهر من الرحيق ، ونهر من التسنيم ، ونهر من الكوثر ..)

وخير وصف للجنة ماورد فى القرآن الكريم. ذلك الوصف الذى لا يقبل الجدل ولا يتعرض للإنكار.

فقد قال رب العزة فى وصف جنته التى أعدها للمتقين والذين خافوا أهوال يوم القيامة فخففوا آلام المتعبين فى الدنيا :

« وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا * مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا * وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا. قَوَارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا * عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا »[1].

وفى الآية الأولى إيجاز أخذاً بأطراف الإعجاز — وذلك أنه أشار بقوله (جنة) إلى ما يتمتع به أولئك الأبرار فى دار الكرامة من صنوف الثمار الشهية والمطاعم الهنية — فإن الجنة لا تسمى جنة إلا وفيها ذلك — كما أنه أشار بقوله (حريراً) إلى ما يتمتعون به من ضروب اللبوس والزينة التى من أغلاها وأنفسها عند العرب الحرير .

فالله تعالى جمع لهم الثواب والمكافأة بين الشعورين : الشعور بلذة الطعام

---

(١) الآيات من ١٢ — ٢٢ من سورة الإنسان

والشعور بلذة اللباس ، وتصوير المسرات الأخروية بهذه الأوصاف لتقريبها من متناول أذهاننا ، فهم لا يرون فى الجنة شمساً ولا قمراً ، ولا يحسون حراً ولا زمهريرا ، وأن هواءها معتدل ، ليس فيها شيء من حر الشمس ولا من برد الزمهرير المؤذى .

وقيل إن المراد بالزمهرير فى الآية هو القمر — وقال الشاعر :

وليلة ظلامها قد اعتكر ∴ قطعتها والزمهرير ما ظهر

وعطف الزمهرير على الشمس فى الآية — ربما أشعر بأن المراد منه القمر ، وظلال الأشجار الدانية — كناية عن اشتباك الأغصان وتهدلها ، وقد خلق الله عناقيد ثمارها سهلة القطف قريبة من أيدى المتناولين .

إن أهل الجنة يأكلون طعامهم على النمط الذى عليه أهل الترف اليوم ، يحمل الغلمان صحاف الطعام حول المائدة ويدنون من الآكلين واحداً واحداً فيتناول كل منهم حاجته .

والمراد بالآنية : صحاف الطعام ، والقوارير : جمع قارورة وهى وعاء الزجاج المعروف ، ومع كونها من فضة ولكنها فى رقتها وشفافيتها تشبه الزجاج — فقد جمعت بين بياض الفضة وحسنها وصفائها وشفوف القوارير ورقتها .

والنعيم فى الجنة كثير منتشر فى كل مكان ولا يحيط به وصف ، وقد وردت أحاديث عديدة توضح جزاء المتقين وتذكر نعيم أهل الجنة .

فقد ورد عن سهل بن سعد عن رسول الله ﷺ أنه قال : (إن فى الجنة لشجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها) وعنه أنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : (ليدخلن الجنة من أمتى سبعون ألفاً أو سبعمائة ألف متماسكون آخذ بعضهم بعضا لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم وجوههم على صورة القمر ليلة البدر) .

. وعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه — عن النبي ﷺ أنه قال (إذا دخل أهل الجنة الجنة — وأهل النار النار — يقول الله للملائكة — من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه [أى من النار] فيخرجون قد امتحشوا[١] وعادوا حمما[٢] فيلقون فى نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل[٣]) .

وقال النبي ﷺ : (ألم تروا أنها تنبت صفراء ملتوية)[٤]

ومعنى الحديث : من كان فى قلبه مثقال حبة من إيمان يخرج من ذلك الماء نضراً متبختراً كخروج الحبة من جانب السيل صفراء متمايلة .

وقال النووى : لسرعة نباته يكون ضعيفا — ولضعفه يكون أصفر ملتوياً — وبعد ذلك تشتد قوته

وفى وصف نهر الكوثر يقول الرسول ﷺ (أعطيت نهراً فى الجنة يقال له الكوثر ، ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وألين من الزبد ، فيه طيور — أعناقها كالجزر — قال عمر : إنها لناعمة ، قال : أكلها أنعم منها) رواه أنس بن مالك

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ (إن أدنى أهل الجنة منزلة لينظر فى ملكه ألفى سنة — يرى أقصاه كما يرى أدناه ينظر أزواجه وخدمه وسرره ، وإن أفضلهم منزلة — لمن ينظر فى وجه الله تبارك وتعالى كل يوم مرتين) وفى رواية أخرى (. . . وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية — ثم قرأ «وُجُوهٌ يومئذ ناضرةٌ . إلى ربها ناظرةٌ»[٥].

أما جزاء المتقين فى الدنيا — فحسبهم ما ينالهم من رحمة الله التى وسعت كل شىء وقد أثبتها الله للمتقين فى قوله (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ

---

(١) احترقوا (٢) فحما (٣) (ما يحمله السيل)
(٤) منعطفة (٥) الآيتان ٢٢ — ٢٣ سورة القيامة .

فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبي الأمي ...)[1]

ـ وقيل لما نزلت هذه الآية فرح إبليس — وقال أنا من ذلك الشيء — فصرفها الله عنه — بهذا التحديد (للذين يتقون) فقالت اليهود ونحن نتقي ونؤتي الزكاة ونؤمن بآيات ربنا — فأخرجهم الله منها وأثبتها لهذه الأمة فأنزل (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي) ـ والتبعية للرسول تقتضي الاقتداء به في كل شيء — والاستجابة الكاملة لكل ما يأمر به والتحلي بالخلق الكريم الذي تحلى به — وبهذا تتحقق التبعية التي تستوجب الرحمة المذكورة في هذه الآية .

وما من أمة أو جماعة أو فرد استجاب لله ولرسوله واتقى الله حق تقواه إلا وأفاض الله عليه بنعمه وأجزل له العطاء فعاش في خير دائم وبركة مستمرة ورزق واسع .

قال تعالى : (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)[2] — وبركات السماء المطر، وبركات الأرض النبات والثمار وجميع ما فيها من الخيرات والأنعام والأرزاق والأمن والسلامة من الآفات ، وكل ذلك من فضل الله وإحسانه على عباده .

وأصل البركة ثبوت الخير الإلهي في الشيء — ويسمى المطر بركة السماء لثبوت البركة فيه ، وكذا ثبوت البركة في نبات الأرض، لأنه نشأ من بركات السماء وهي المطر .

وقيل: إن أصل البركة المواظبة على الشيء فيكون معنى الآية (تابعنا عليهم بالمطر من السماء والنبات من الأرض ورفعنا عنهم القحط والجدب) .

---

(١) الآيتان ١٥٦ ـ ١٥٧ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ٩٦ من سورة الأعراف

وها نحن أولاء اليوم نرى أهل بعض البلاد يشتد بهم البلاء ولا تجد بركة فى أى شىء — فهل رجعوا إلى أنفسهم فحاسبوها على ما بدا منهم من تقصير فى حق الله ؟!

إن الله يرزق المؤمن التقى من حيث لا يحتسب لأنه موصول بربه مطيع له ففى الحديث (أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب) والعبد يفوز بالإنعام فى اللحظة التى يحظى فيها أى عمل له بالقبول والرضا لدى الكريم المتفضل بالإنعام — وهذه النعم مقدمة للنعيم الذى وعد الله به عباده الصالحين — إنها قبس من عطر الجنة يجده المؤمن فى قلبه فإن القرآن الكريم يخبرنا بأن الجنة التى سيظفر بها أهل الإيمان والتقوى هى رزق معلوم — وعليه فإن تلك الجنة لن تكون شيئاً مجهولا للعباد لأنهم قد عرفوها فى هذه الدنيا .

« وَيُدْخِلُهُم الجنةَ عرَّفَهَا لَهُمْ » (١)

وقد جاء فى الحديث الشريف (لأحدكم بمنزله فى الجنة أعرف منه بمنزله فى الدنيا) .

وثمة ألوان أخرى من الرزق فى هذه الدنيا — فعندما يخشع الإنسان ، وينعم بتلاوة القرآن ويصدق عليه . قول الله تعالى : « ترى أعْيُنَهُم تفيضُ مِنَ الدمْع »

وعندما يقضى ليلته فى العبادة وأصبح ممن قال الله فيهم « تتجافَى جُنوبُهُمْ عَن المضَاجِـع » وعندما تمر به لمحات الحب الإلهى ويشعر بألطف كيفيات الإيمان ، وعندما تنكشف له فجأة حقيقة من الحقائق المكنونة ، وعندما تتمتم شفتاه وهو يناجى ربه فى كيفية إلهامية بكلمات لم تخطر له على بال — فذلك هو الرزق العظيم الذى ينعم به المتقون .

---

(١) الآية ٦ سورة محمد

* * *

وهكذا جزاء من قضوا حياتهم فى رحلة إلهية ، وخلعوا أنفسهم من هموم الدنيا وأكدارها إلى لذة لا يعرفها ألم ، وسعادة لا يعرفها شقاء .

إن المؤمن التقى — هو الذى يقوم لله قانتا — يركع مسبّحاً ويسجد داعيا ، مرتّلا آيات الله ، وقلبه متعلق بمولاه ، يظل متمسكا بجانب التقوى ما استطاع ، ويقوم بما كلف به من سائر التكاليف التى تظهر بها ربوبية الرب وعبودية العبد ، مع الإخلاص فى الامتثال والتنفيذ ، والثقة والاطمئنان والرضا بحكم الله ، ولا ينقطع عن عبادة الله فشعاره الدائم :

« وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يأْتِيَكَ اليَقِينُ »[1]

وحياته باقية وذكراه دائمة — فقد قيل :

موت التقى حياة لا نفاد لها   قد مات قوم وهم فى الناس أحياء

وعلينا أن نذكر دائما قول الله تعالى : (يَأَيّهَا الّذينَ آمَنُوا اتّقُوا اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنّ إلاّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُون »[2] .

---

(١) الآية ٩٩ من سورة الحجر

(٢) الآية ١٠٢ من سورة آل عمران

خـــاتمة

وبعد . هذا هو كتاب التقوى فى القرآن — قصدت به وجه الله ، وقدمته لمن يريد أن يقوى صلته بالله ، ولقد طرقت جميع أبواب التقوى فى العبادات التى يتخذها المؤمن وسيلة للتقرب إلى الله والمعاملات على اختلاف أنواعها ، مع ذكر تفصيل شامل لكل مناسك الحج — بعد أن لمست حاجة الحجاج إلى توضيح كامل لما يجب أن يفعلوه ، وتطلع الكثير منهم إلى من يرشدهم إلى أقوم السبل — والحيارى منهم كثيرون — ويريدون أن يؤدوا فريضتهم على الوجه الأكمل وقد هجروا أرضهم وديارهم وأموالهم وأهليهم استجابة لنداء الله ، (هذا إلى إيضاح بعض مقالات نشرت لى بالصحف لزيادة الفائدة ورغبة فى أن يعم النفع) والكتاب يتحدث عن النواحى الروحية فى العبادات والمعاملات — نخير الغذاء غذاء الروح وأعظم قوة — هى مانستمدها من الله .

وقد اعترف بالقوة الروحانية أحد القساوسة — الدكتور يحى عبد الرحمن (جوهانز سابقا) — من كوالا لمبور — وقد أمضى عشرين عاماً فى خدمة الكنيسة — وقضى سنوات يدرس كل مايتعلق بالدين الإسلامى — فقال (لقد كنت محظوظا حقاً فبعد سنوات من الدراسة المقارنة فى الأديان تأكد لدى أن الإسلام دين ذو قوة روحانية تقود الإنسان إلى الوحدة الأخوية وترشده إلى الله وتؤكد له وحدانية الخالق[1] .

وقال تعالى : « وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ »[2] .

---

(١) صحيفة الأهرام فى ٢٤/٤/١٩٧٥

(٢) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة الطلاق .

فكل مايحتاجه العبد يجده عند الله ،فإذا أردت الرزق فأنت تتوجه إلى الله الرزاق ، وإذا أحسست بالظلم اتجهت إلى الله تستنصره على من ظلمك، وإذا وجدت نفسك فى ظلمات يعلوها ظلمات اتجهت إلى الله ليكشف عنك ما أنت فيه وإذا ظلمت نفسك بارتكاب المعصية ورجعت إلى ربك — تجد الله غفوراً رحيما يمحو خطاياك .

وقد ينسى الإنسان الجاحد ربه بعض الوقت — ولكنه كثيراً ماتعتريه نكبات ويبحث حوله فلايجد إلا الله يتجه إليه —ويطرق الأبواب فيجدها موصدة فى وجهه ولا يجد أمامه غير باب الله فيحس بالخزى والندم ، ويطلب منه الصفح والمغفرة — فإليه تنيب القلوب ، والعزة دائما فى الطريق إلى الله .

تلكم هى التقوى التى وصانا بها الله ، ووصى بها من قبلنا .

قال تعالى : « وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الذين أُوتُوا الكتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ »(١)

فما من رسول إلا كانت رسالته تقوى الله ، ومامن عبد يريد الوصول إلى الدرجات العلا فلا يبلغها إلا بتقوى الله — وقد أوضح الرسول منزلة الأتقياء ووصفهم لنا فقال : (إن اليسير من الرياء شرك وإن من عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة، وإن الله يحب الأبرار الأخفياء الأتقياء ، الذين إذا غابوا لم يُفْتَقدوا ، وإن حضروا لم يُدْعَوْا ولم يُعْرَفُوا . قلوبهم مصابيح الهدى ، يخرجون من كل غبراء مظلمة)(٢) .

وقد سئل أحد الصالحين — كيف يصل الإنسان إلى التقوى فأجاب السائل : أما سرت فى طريق فيه شوك ؟ قال : نعم . قال : فماذا فعلت ؟

---

(١) الآية ١٣١ من سورة النساء . (٢) رواه معاذ

قال شمرت واجتهدت — قال : هذه هى التقوى . تشمير عن المعاصى واجتهاد فى الطاعات والتوبة الصادقة الخالصة النصوح — تضع صاحبها فى مرتبة البراءة . وتزيل عنه السيئات .

قال تعالى : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِى اللهُ النَّبِىَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ »(١) .

وعلينا ألا ننقطع عن طلب العلم — والمزيد منه ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ـ مع السكينة والحلم — استجابة لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم (اطلبوا العلم ، واطلبوا مع العلم السكينة والحلم . ولينوا لمن تعلمونه ولمن تعلمتم منه ولا تكونوا من جبابرة العلماء فيغلب جهلكم علمكم) رواه أبو هريرة رضى الله عنه .

هذا — وقد أراد الله أن يكون نهاية إعداد كتاب (التقوى فى القرآن) — فى شهر القرآن لينعم به أهل القرآن — وتهتدى بهديه أمة القرآن — فهو الشهر الوحيد الذى أفاض الله فيه أكثر نعمه على عباده — بالكتاب الذى كان من أبرز تعاليمه أن سما بالعقل الإنسانى عن الوثنية المظلمة ، وعن صفوف المربوبية والخضوع لغير الله ، إلى التوحيد الخالص الوضاء ، وجدير بكتاب هذا شأنه أن تطأطىء الرءوس لعظمة تعاليمه ، وأن يكون زمن الإنعام به عيداً يذكر به الموحدون جميعاً فضل الله عليهم — ويخلعون فيه نفوسهم من هموم الدنيا وأكدارها إلى لذة العبادة وصفائها .

---

(١) الآية ٨ من سورة التحريم .

وخير خاتمة لهذا الكتاب آيات كريمة تلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم — على المنبر — فتحرك المنبر مرتين :

« وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

نسأل الله تعالى التقوى .

محمد فتحي حافظ قورة

---

(١) الآيات ٧٣ — ٧٥ من سورة الزمر .

تصويب الخطأ

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٣	١	مشاعل على النور	مشاعل النور
٨	٣	نهنون	تُنْهَوْن
١١	٢	ففت	فَقَسَتْ
١٩	٢٥	ن أ	أن
٢٦	٤	نفخت	بثت
٢٩	١٢	يحمه	بجمعه
٣٧	٧	كلمات مفهومة	كلمات غير مفهومة
٥٠	٥	اسوء	سوء
٥١	٨	الشرق	الشرقى
٦٣	٢١	منه	له
٨٥	٥	مهما	مما
٩٣	١٤	وضعة	وضعته
١٦٢	١٧	تظلَمون	تظلِمون
١٦٥	١٨	أن	أنا
١٦٧	٦	بالمعروفُ	بالمعروفِ
١٧٢	٥	يؤدى	ويؤدى
١٧٦	٨	الجهد	الجهر
١٨٩	١٥	البصرَ — القمرَ	البصرُ — القمرُ
١٩١	١٨	وأما	أما

أهم المصادر والمراجع

١ — القرآن الكريم	
٢ — الفتوحات الإلهية	الشيخ سليمان العجيلى الشهير بالجمل
٣ — تفسير أبو السعود	أبو السعود محمد العماوى
٤ — المنتخب فى تفسير القرآن الكريم	المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
٥ — تفسير النسفى	عبدالله النسفى
٦ — تفسير جزء عم	الإمام الشيخ محمد عبده
٧ — تفسير جزء تبارك	الشيخ عبد القادر المغربى
٨ — من توجيهات الإسلام	الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت
٩ — إلى القرآن الكريم	» » » » »
١٠ — الإسلام عقيدة وشريعة	» » » » »
١١ — زاد المعاد	الإمام أبو عبدالله بن القيم الجوزى
١٢ — لمحات من حياة الرسول	الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود
١٣ — الله	عباس محمود العقاد
١٤ — عبقرية محمد	» » »
١٥ — عبقرية الامام على	» » »
١٦ — مرآة الإسلام	الدكتور طه حسين
١٧ — رابعة العدوية	سنية قراعة
١٨ — القاموس المحيط	مجد الدين الفيروزابادى
١٩ — جامع الأصول من أحاديث الرسول	ابن الأثير الجزرى
٢٠ — إرشاد السارى لشرح صحيح البخارى	أحمد بن محمد القسطلانى
٢١ — تنظيم الإسلام للمجتمع	الشيخ محمد أبو زهرة

٢٢ — النظم الفنى فى القرآن	عبد المتعال الصعيدى
٢٣ — جمع الجوامع المعروف بالجامع الكبير	الإمام جلال الدين السيوطى
٢٤ — أنبياء الله	أحمد بهجت
٢٥ — سيرة ابن هشام	تحقيق — إبراهيم الإبيارى
٢٦ الفلسفة القرآنية	عباس محمود العقاد
٢٧ — فلسفة الأخلاق فى الإسلام	محمد يوسف موسى
٢٨ — موطأ الإمام مالك	تحقيق — عبد الوهاب عبد اللطيف
٢٩ — نظرة الإسلام إلى الربا	محمد بن محمد أبو شهبة
٣٠ — نظرية دارون بين التأييد والمعارضة	سيد أحمد الكيلانى
٣١ — الإقناع	محمد الشربينى الخطيب
٣٢ — حلية الأولياء وطبقات الأصفياء	أبو نعيم الأصبهانى
٣٣ فلسفة الأخلاق فى الاسلام	محمد يوسف موسى
٣٤ — صفوة صحيح البخارى	عبد الجليل عيسى أبو النصر
٣٥ — مختصر النبراوى	عبد الرحيم فرج الجندى
٣٦ — الإحكام فى أصول الأحكام	على بن محمد بن سالم التغلبى
٣٧ — مواقف مع الغزالى فى إحياء علوم الدين	أبو بكر ذكرى
٣٨ — اشتراكية الإسلام	الدكتور مصطفى السباعى
٣٩ — تاريخ العرب وعصر الرسول	عبد الفتاح على شحاته
٤٠ — شرح الأربعين النووية	يحيى بن شرف الدين النووى
٤١ — الأنوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية	العارف بالله عبد الوهاب الشعرانى
٤٢ — حياة محمد	محمد حسين هيكل
٤٣ — الإسلام يتحدى	وحيد الدين خان

فهرس الكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧٥/٣٨٠١

هذا الكتاب

- يتناول هذا الكتاب « التقوى كما يصورها القران الكريم » وهو موضوع تشتاق كل النفوس الى معرفته والاط[illegible] كل ما يكتب عنه .
- وقد عنى الكتاب بالجانب الروحى فى مجالات التقو[illegible] العبادات التى يتخذها المؤمن وسيلة للتقرب الى الله وفى المعاملات على اختلاف أنواعها .
- هذا الى توضيح طريق التقوى للمحبين ممن يعشقون الله .
- يتضمن هذا الكتاب نبذة عن حياة بعض الانبياء ـ وتفصيل جوانب عديدة من حياة امام المتقين .
- الالمام بصفات عباد الرحمن كما وردت فى القران .
- أفاض الكتاب الحديث عن الرحلة الربانية ـ الى البيت العتيق ـ فالحيارى من الحجاج كثيرون .
- هذا الكتاب ـ هو كتاب دعوة الى الله .

الناشر
مكتبة النهضة المصرية


Bibliotheca Alexandrina
1523180